جمهورية مصر العربية
جامعـة الأزهر الشريف
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج
قسـم البلاغة والنقد

رسالة الحاسد والمحسود للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)
في ميزان النقد البلاغي

إعداد
د/ مفيدة محمد حسن عبد الرحيم

ملخص البحث

عنوان البحث : (**الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في ميزان النقد البلاغي من خلال رسالة الحاسد والمحسود**)

اخترت هذه الرسالة من بين رسائل أمير البيان العربي (الجاحظ) وهو مَنْ هو في الكتابة والأدب، لما لموضوع الحسد من أهمية وأثر خطير على الفرد والجماعة، فهو داء كل الأمم، ومرض كل الشعوب، أول الذنوب التي عصي بها المولى–سبحانه وتعالى– في السموات والأرض، فهو داء أخلاقي وبلاء اجتماعي، لا تخلو منه جماعة من الجماعات، لذا أردت أن أسلط الضوء على هذا الموضوع الخطير على الدين والدنيا، من خلال دراسة بلاغة الجاحظ في رسالته (الحاسد والمحسود)، والتي عرض فيها الجاحظ موضوع الحسد عرضًا أدبيًا بليغًا وممتعًا، استوفى جوانبه وأحواله، من حيث (ماهيته، وأسبابه، وصوره، وآثاره، وفيمن يكثر، وسبيل علاجه)، هدفه من ذلك التنفير من تلك الصفة الذميمة، وبيان ما يترتب عليها من أضرار على الفرد والجماعة، مع تحقير شأن الحاسد، وتقبيح فعله.

الكلمات المفتاحية : (الجاحظ– النقد – البلاغي– رسالة – الحاسد المحسود)

البريد الإلكتروني الجامعي:

moufidahassan.٧٩@azhar.edu.eg

Research Summary

Research title: (Al-Jahiz (d. ٢٥٥ AH) in the rhetorical cash balance through the message of the envious and the envied).

I chose this message from among the letters of the Emir of Arabic statement (Al-Jahiz) in writing and literature, because the topic of envy is important and has a dangerous impact on both individuals and the communities that it is perceived as a mutual disease of all nations and peoples as well as being the sin by which the Lord - glory be to Him - was first disobeyed - In heavens and on Earth, which is a moral and a social affliction, which is not without a group of groups, so I'd like to shed some light on this serious topic and its implications on the world and religion, by studying the rhetoric of Al-Jahiz in his message "The envious and the envied", in which Al-Jahiz adressed the subject of envy in an eloquent literary presentation and with pleasure fulfilled its aspects and conditions, in terms of (its essence, causes, images, effects, the way it abounds, and how to treat it.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، العالم بدقائق الأمور، وعظائمها، المدبر بحكمته لكل الأشياء، المريد الذي لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، خلق البشر وقسَّم الحظوظَ والأرزاقَ، وجعلها مقادير مُختلفة، وأشكال متنوعة، وجعل لكل فرد مكانا ومنزلة؛ لتستقيم الحياة على النهج الذي أراده–سبحانه– قال تعالى: **﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾**[الزخرف: آية (٣٢)] ، وصلاةً وسلامًا على سيد المرسلين،والرسول الأمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين٠

وبعد

يعدُ النثر لونًا مهمًّا ومؤثرًا من ألوان الأدب وفنونه، عُني به الكثير من الأدباء والكتاب، فهو وسيلة من وسائل التعبير عما يدور بالخواطر من أفكار، وقضايا تهم الفرد والجماعة، كما أنه فن أدبي راقٍ ومؤثر، يكشف براعة الكاتب وقدرته على التعبير بأسلوب بليغ، يجذب الأسماع، ويحقق الإمتاع، ومع تلك الأهمية العظيمة لم يحظ بعناية كبيرة من النقاد والباحثين تضاهي عنايتهم بالكلام المنظوم٠

لذا أردت البحث في ذلك اللون من خلال دراسةِ رسالةٍ أدبيةٍ من رسائلِ الجاحظ، والتي أَطْلَقَ عليها عنوان (الحاسد والمحسود)، ويدور نصها حول بيان الحسد (ماهيته، وأسبابه، وصوره، وآثاره)، وهي مثال رائع لذلك الأدب الذي عُنِيَ فيه الجاحظ بتصوير طباع فئة من الناس، وكشف مكنونهم، فقد كان الجاحظ مهتما بأدب الطباع والأخلاق، والغوص في النفس البشرية، والتعمق في دخائلها، فغرض الرسالة هو غرض أخلاقي، يُظهر سلبيةً اجتماعيةً، وداءً خُلُقِيًّا، يكشف مساوءَه وأضراره، وسبيل السلامة منه٠

وقد اهتم (الجاحظ) بموضوع الحسد اهتمامًا كبيرا، حيث ذكره في كثير من رسائله وكتبه، ولكنه تحدث عنه في تلك الرسالة حديثًا مفصلًا٠

فقد انتشر الحسد في كثير من مجتمعاتنا الإسلاميةِ، وظهر بين عالمها وجاهلها، ولن يجتمع شمل الأمة إلا بنبذ الأحقاد والضغائن، والتمسك بمبادئ ديننا الحنيف، الذي حث على سلامة القلوب، والضمائر، قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾، [الشعراء: آية (٨٨، ٨٩)]٠

لذا وجب علينا أن نسلط الضوء على هذا الموضوع الأخلاقي، والاجتماعي، من خلال دراستنا البلاغية، للعمل على ربط علومنا اللغوية بالحياة التي نعيشها، وما يهم المجتمع من موضوعات تؤثر فيه٠

وقد تمت دراسة تلك الرسالة سابقًا من خلال موضوع: (آليات الاتساق النصي في رسالة " الحاسد والمحسود" للجاحظ)،[١] وأفدت منها في بيان أساليب الربط بين المفردات أو الجمل، حيث استهدفت الدراسة الكشف عن وحدة النص الأدبي النثري، من خلال التعامل معه على أنه كل متكامل، لا يقبل التجزئة، وهو يختلف منهجا وتناولا عن هذا البحث٠

فقد عمدت هذه الدراسة إلى توضيح أبرز الأساليب والصور التي استخدمها الجاحظ للتعبير عن أفكاره ومقاصده، وبيان ما اشتملت عليه الرسالة من أساليب بلاغية، وصور بيانية، ومحسنات بديعية، وما دلت عليه من براعة تعبير، وجمال تصوير، ودقة معان، وروعة أسلوب، وحسن عرض

---

(١) المؤلف: جاهمي، آمنة ، المصدر حوليات جامعة قالمة، العدد التاسع عشر ٢٠١٧، المجلد ٢٠١٧، العدد ١٩ للغات والآداب (٣٠ يونيو/حزيران ٢٠١٧)، ص. ٣٠٣-٣٢٧، ٢٥ص ، الموضوع الرئيسي الآداب المقارنة، الناشر: جامعة ٨ ماي ١٩٤٥ قالمة، تاريخ النشر :٢٠١٧/٦/٣٠، الجزائر٠

للمعاني والأفكار، عن طريق عرض أفكار الرسالة ومقاصدها بالتفصيل، بما يكشف الملكة البلاغية، والمقدرة البيانية التي يتمتع بها الجاحظ، وتنم عن كاتب بليغ، يمتلك زمام اللغة، ويَعْلَمُ أساليبها.

واستخدمت منهج (التحليل البلاغي، والنقدي)؛ لتوضيح أبرز الأساليب والصور البلاغية التي اشتملت عليها الرسالة، والكشف عن أسرار التعبير بها، ببيان نوعها، وقيمتها، ومدى انعكاسها على المعنى، وتلاؤمها مع مقاصد الرسالة، وأغراضها.

كما اخترت لكل فكرة من أفكار الرسالة عنوانًا يناسبها، ويكشف أبرز الأساليب التي استخدمها الجاحظ، لتوضيح فكرته.

ومن ثم جاء البحث في: مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهارس.

أولًا: **المقدمة:** وضحت فيها أهمية الموضوع، وسبب اختياره، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطته.

ثانياً: **التمهيد:** ذكرت فيه نبذة مختصرة للتعريف بكاتب الرسالة–الجاحظ– ومنزلته، ثم بيان مفهوم النثر وأنواعه، ثم المراد بالرسائل باعتبارها لونًا من الألوان الأدبية النثرية، ثم المقصود بالحسد.

أما المباحث فجاءت كالتالي :

المبحث الأول: حسن ابتداء الجاحظ للرسالة، وبلاغته في بيان حقيقة الحسد، وعواقبه.

المبحث الثاني: من بلاغة تراكيب السرد القصصي في الرسالة، وحسن تقسيم الجاحظ للحساد.

المبحث الثالث: من بلاغة الجاحظ ونصائحه في معاملة الحسود.

المبحث الرابع : بلاغة الجاحظ في وصف نعيم الجنة جزاء ترك الحسد، وحسن ختام الجاحظ للرسالة٠

المبحث الخامس: سمات الرسالة وخصائصها البلاغية٠

ثم خاتمة البحث التي أعرض فيها بعض النتائج، والتوصيات، ثم ثبت المصادر التي استقيت منها المادة العلمية، ثم الفهارس٠

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير

د / مفيدة محمد حسن عبد الرحيم

تمهيد

أولاً : التعريف بالكاتب

نسب الجاحظ:

هو عمرو بْن بحر بْن محبوب، لقب بالجاحظ[١] والحدقي، لبروز عينيه، وكنيته أبو عثمان، كان من أهل البصرة، وأحد شيوخ المعتزلة، وقدم بغداد، فأقام بها مدة[٢]، وهو مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكناني، قال يموت بن المزرع: الجاحظ خال أمي. وكان جد الجاحظ أسود يقال له فزارة، وكان جمالا لعمرو بن قلع الكناني. وقال أبو القاسم البلخي: الجاحظ كناني من أهل البصرة[٣].

---

(١) معنى"الجِحاظُ: خُروج مُقْلة الْعَيْنِ وَظُهُورُهَا،...وَيُقَالُ: رَجُلٌ جاحِظُ العَيْنين إِذا كَانَتْ حدَقتاه خَارِجَتَيْنِ،... وَالرَّجُلُ جاحِظٌ وجَحْظَمٌ"، (لسان العرب: لابن منظور– (المتوفى: ٧١١هـ)، مادة (جحظ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

(٢) ينظر تاريخ بغداد: لأبي بكر البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، ١٢٤/١٤، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢ م.
وللجاحظ تراجم أخرى في: الفهرست: ٢٠٨ ، ونور القبس: ٢٣٠، ونزهة الألباء: ١٣٢ ، وآمالي المرتضى ١: ١٩٤ ، وابن خلكان ٣: ٤٧٠ ، وسير الذهبي ١١: ٥٢٦ ، وعبر الذهبي ١: ٤٥٦ ، وميزان الاعتدال ٣: ٢٤٧ ، والبداية والنهاية ١١: ١٩ ، ولسان الميزان ٤: ٣٥٥، وبغية الوعاة: ٢٦٥ وشذرات الذهب ٢: ١٢١، (إرشاد الأريب: للحموي ٢١٠١/٥).

(٣) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: لياقوت الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، ٢١٠١/٥، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م.

ميلاده ووفاته:

أورد المرزباني عن الجاحظ قوله: "أنا أسن من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة خمسين ومائة وولد في آخرها، ومات الجاحظ سنة خمس وخمسين ومائتين في خلافة المعتز وقد جاوز التسعين"(١).

أساتذته:

حرص الجاحظ على أخذ العلم من كبار علماء عصره فانتقل من البصرة إلى بغداد ليتصل بعلمائها ومفكريها، فسمع من أبي عبيدة، والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، وأخذ النحو عن الأخفش أبي الحسن ، وأخذ الكلام عن النظام، واطلع على الثقافة اليونانية من خلال سلمويه وحنين بن إسحاق، وارتاد البادية ليأخذ اللغة والأخبار، وزار دمشق وإنطاكية من أجل التعمق في الثقافة واللغة والأدب(٢).

منزلته وفضله:

للجاحظ منزلة عظيمة وفضل لا يدانى في شتى العلوم الدينية والدنيوية، حيث "كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره وعلا قدره واستغنى عن الوصف"(٣).

فقد وذاع صيته واشتهر في العالم الإسلامي، وتقاطر الناس لمشاهدته والسماع منه، فلا يمرّ أديب أو عالم بالبصرة إلاّ طلب أن يرى الجاحظ ويكلمه... وهو إمام الأدباء في العصر العبّاسي الثاني، وله أساليب ومذاهب،

---

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: للحموي ، ٢١٠١/٥.

(٢) ينظر مقدمة البخلاء: للجاحظ، ص٦، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٩ هـ.

(٣) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: لياقوت، ٢١٠١/٥.

وآراء في الأدب واللغة خاصة، واشتهر بطريقة في الإنشاء تنسب إليه، قلّده فيها الناس وعرفت باسمه، فهو قدوة المنشئين وإمامهم في هذا العصر، كما كان ابن المقفع إمامهم في العصر الأوّل، وكان الجاحظ من فضلاء المعتزلة، وكان علم الكلام قد نشأ على أثر نقل الفلسفة والتبحّر فيها، وطالع الجاحظ كثيرًا من كتب الفلاسفة، وانفرد عن سائر المعتزلة بمسائل تابعه بها جماعة عرفوا بالجاحظية [١]، وقال أبو الفضل بن العميد "ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس: أما الفقه فعلى أبي حنيفة، ... وأما الكلام فعلى أبي الهذيل، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة (المراد بها: البيان واللسن وقوة البديهة) فعلى أبي عثمان الجاحظ"[٢].

فلم يكن الجاحظ مجرد كاتب أو مؤلف، بل هو رمز من رموز الأدب، فهو عالم مدقق، وباحث محقق، وإمام فذّ، استحق أن يلقب أمير البيان العربي، بما له من إنتاج غزير، ومتنوع، يتسم بالموسوعية والإبداع، وكأنه دائرة معارف واسعة، فعقله الناضج، وذكاؤه اللماح، وشخصيته العبقرية، وتعدد اهتماماته، وما أحاط به من معارف وتجارب وخبرات، جعله غزير الإنتاجات، كثير التأليفات، والتصنيفات، والرّسائل، كما كان جامعا العلوم، والفنون المختلفة، حيث بلغ من الذكاء، وجودة القريحة، وقوة العارضة، والتفكير، ما جعله من كبار أئمة الأدب في البلاد العربية"[٣].

جاء في لسان الميزان بيان فضله "قال ابن النديم قال المبرد ما رأيت أحرص على العلم من ثلاثة الجاحظ، وإسمعيل القاضي، والفتح بن خاقان ...

---

(١) ينظر تاريخ أداب اللغة العربية، لجرجي زيدان ، ١٧١/٢، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، مصر.

(٢) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ٢١١٦/٥.

(٣) ينظر تاريخ أداب اللغة العربية،: لجرجي زيدان، ١٧٠/٢.

وقال ابن حزم في (الملل والنحل) ....فإنا ما رأينا له في كتبه تعمد كذبة يوردها مثبتا لها، وإن كان كثير الإيراد لكذب غيره، وكان أوتي بسطة في القول وبيانا عذبا في الخطاب ومجالا في الفنون"[١].

ومن أقواله الدالة على شغفه بالعلم " إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح"[٢].

ومن أهم ملامح شخصية الجاحظ عقله الناضج، وفضوله العلمي الذي جعله دائم القراءة والاطلاع، كما أعانه على تنمية موهبته طبيعة العصر الذي عاش فيه، والذي تميز بالانفتاح على العلوم والثقافات الأخرى، إلى جانب الحرية الفكرية، وتعدد المذاهب الكلامية، فكان له أثر كبير على سعة ثقافته، وغزارة علمه، وانتشار موهبته.

مؤلفاته:

نظرا لثقافة الجاحظ الواسعة، وكثرة اطلاعه، وبحثه وراء العلم، وأخذه من علماء وشيوخ اللغة وغيرهم، تنوعت مؤلفاته وكتبه، فقد كتب في علم الكلام، والأدب، والسياسية، والتاريخ، والأخلاق والنبات، والحيوان، والصناعة، وغيرها، وإن كان الحيوان، والبيان والتبيين، والبخلاء، والبغال، من أكثرها شهرة، إلى جانب الرسائل المتعددة الموضوعات، والمختلفة الأنواع، من سياسية، وأدبية، يقال عن مؤلفاته أنها تجاوزت السبعين بعد المئة، ويشير ابن حجر إلى إحصاء ابن النديم (صاحب الفهرست) عن آثار الجاحظ فيقول:" سرد ابن النديم كتبه وهي مائة ونيف وسبعون كتابا في فنون مختلفة"[٣]، كما قال المسعودي: "ولا يعلم أحد من الرواة، وأهل العلم، أكثر

---

(١) لسان الميزان: لابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)،٣٥٦/٤، المحقق: دائرة المعرف النظامية – الهند، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٣٩٠هـ /١٩٧١م.

(٢) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ٢١٠٣/٥.

(٣) لسان الميزان: لابن حجر العسقلاني، ٣٥٧/٤.

كتبًا منه، وكان له وراق خاص اسمه (ابن زكريا)[١] وقد ذكر ياقوت الحموي كثير منها مفصلة في كتابه (إرشاد الأريب)[٢].

ثانياً: مفهوم النثر:

المقصود بالنثر لغة: هو "مصدر نثر ينثر وينثر نثرا بِالتَّشْدِيدِ تنثيرا فانتثر وتنثر وتناثر وَمَعْنَاهُ رَمَاه مُتَفَرقًا"[٣]

و" النَّثْرُ نَثْرُكَ الشيءَ بِيَدِكَ تَرْمي بِهِ مُتَفَرِّقًا مثلَ نَثْرِ الجَوْزِ واللَّوْزِ والسُّكَّرِ، وَكَذَلِكَ نَثْرُ الحَبِّ إِذا بُذِرَ، وهو النِّثَارُ، وَخَصَّ اللِّحْيَانِيُّ بِهِ مَا يَنْتَثِرُ مِنَ الْمَائِدَةِ فَيُؤكل فَيُرْجَى فِيهِ الثوابُ. التَّهْذِيبُ: كِلاهُما: كثيرُ الْكَلَامِ، والأُنثى نَثِرَةٌ فَقَطْ. والنَّثْرَةُ: الخَيْشومُ وَمَا وَالَاهُ.."[٤].

من ذلك يتبين أن المقصود بالنثر: الشيء المبعثر، والمتفرق غير المنتظم، قال تعالى: ﴿**وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا**﴾[الإنسان: آية (١٩)] .

كما ذكر الزمخشري أنها تدل على الكلام بقوله" رجل نثر: مهذار ومذياع للأسرار،....ورأيته يناثره الدرّ إذا حاوره بكلام حسن"[٥].

---

(١) مروج الذهب: للمسعودي١٣٥/٣، والأمالي لأبي علي القالي، (المتوفى:٣٥٦هـ)، ٢٤٨/١، رتبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، الناشر: دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، ١٣٤٤هـ – ١٩٢٦م.

(٢) ينظر إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب : ٢١١٧/٥.

(٣) تحرير ألفاظ التنبيه: لأبي زكريا النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)ص ٢٥٨، المحقق: عبد الغني الدقر، الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

(٤) لسان العرب مادة (نثر).

(٥) أساس البلاغة: للزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، ٢٤٨/٢، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.

ثم دل لفظ النثر على نوع من الكتابة وهو أحد فرعي الأدب حيث جُعل "كلام العرب نوعان: منظوم ومنثور"[١]، وهو يختلف في طبيعته عن الشعر بسبب تحرره من الإيقاع الموسيقي المتمثل في الوزن والقافية، مع احتفاظه بحسن التنسيق وجودة التعبير، وسلامة اللغة ، فهدف النثر هو إيصال المعنى، إلى جانب الإمتاع والإفهام٠

ومن البين عدم عناية النقاد القدامى بالنثر، إذ لم يتحدثوا عنه باعتباره فنا قائما بذاته، بل كجزء من علم البلاغة أو البيان، في حين أنهم اهتموا بالشعر، واعتنوا به عناية كبيرة، وأمعنوا في البحث والتفصيل فيه٠

ومما يدل على ذلك أنه لا يوجد تعريف للنثر يوضح مقصوده، ويستوفى طرائقه وأشكاله، إذ إن ما ورد في حقه من تعريفات لدى القدامى لا تتعدى التقسيم والتصنيف، غير أن الشعر حظي بتعريفات كثيرة تتسم بالضبط والدقة والإحكام٠

ولا يقصد بالنثر هنا لغة التخاطب التي يراد بها الفهم أو الإفهام ، وإنما المقصود هو النثر الفني الذي يرتفع عن لغة التخاطب والأحاديث الجارية ويشتمل على الصور البيانية، ويوشى بالزخارف والصبغ البديعي، ليزيد من حسنه مادام القصد من ورائه الإثارة والغرض منه الإمتاع[٢]، فهو النثر الزاخر بالصور والمحسنات التي تزيد الكلام متعة وجلاء٠

---

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ٢/٤٠٠، المحقق: فؤاد علي منصور، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م٠

(٢) ينظر فن البلاغة : للدكتور عبد القادر حسين، ص١٦،١٧، دار غريب للطباعة والنشر٠

الفرق بين الشعر النثر:

يقول الكاتب ابن مسكويه: (فكذلك النظم والنثر يشتركان في الكلام الذي هو جنس لهما، ثم ينفصل النظم عن النثر بفضل الوزن الذي به صار المنظوم منظوما، ولما كان الوزن حلية زائدة وصور فاضلة على النثر صار الشعر أفضل من النثر من جهة الوزن، فإن اعتبرت المعاني، كانت المعاني مشتركة بين النظم والنثر، وليس من هذه الجهة تميز أحدهما من الآخر...)[١].

تلك النظرة للنثر انصرفت إلى الشكل دون اللُب، إلى الصورة دون الحقيقة، وهي التي حالت دون أن يأخذ النثر الفني حقه، أو أن يكون له مفهوما تاما وواضحا لدى النقاد.

وقد رأى أبو حيان أن "للنثر فضيلته الّتي لا تنكر، وللنَّظم شرفه الّذي لا يجحد ولا يستر، لأنّ مناقب النّثر في مقابلة مناقب النّظم، ومثالب النّظم في مقابلة مثالب النّثر، والذي لابدّ منه فيهما السّلامة والدّقّة، وتجنّب العويص، وما يحتاج إلى التأويل والتخليص، وقد قال بعض العرب: خير الكلام ما لم يحتج معه إلى كلام"[٢]، فذلك الوضوح هو مدار التفاضل بينهما، كما أن الشعر لا يختص وحده بالموسيقى والخيال، بل للنثر قدر كبير من ذلك، والفرق بينهما نسبي.

رأي الجاحظ في النثر:

يري الجاحظ للنثر أهمية كبيرة ويؤكد عليها بقوله: " والشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطّع نظمه، وبطل وزنه، وذهب

(١) الهوامل والشوامل: لأبي حيان التوحيدي، ص ٢٧٥ مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٩.
(٢) المرجع السابق: ٢٥٣.

حسنه وسقط موضع التعجب، لا كالكلام المنثور، والكلام المنثور المبتدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنثور الذي تحوّل من موزون الشعر٠

وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين، والحكم في الصناعات، وإلى كلّ ما أقام لهم المعاش وبوّب لهم أبواب الفطن، وعرّفهم وجوه المرافق؛ حديثهم كقديمهم، وأسودهم كأحمرهم، وبعيدهم كقريبهم، والحاجة إلى ذلك شاملة لهم٠

وقد نقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونانيّة، وحوّلت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسنا، وبعضها ما انتقص شيئا، ولو حوّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، مع أنّهم لو حوّلوها لم يجدوا في معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم، التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم، وقد نقلت هذه الكتب من أمّة إلى أمّة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنّا آخر من ورثها ونظر فيها، فقد صحّ أنّ الكتب أبلغ في تقييد المآثر، من البنيان والشعر"[١] ، ومن ذلك يتضح أهمية النثر، وأنه أبلغ، وأدق في تقييد المآثر، وما يحتاج إليه الناس من علم وحكمة٠

أنواع النثر:

يأتي النثر على أنواع متعددة منها النثر العلمي، والتاريخي، والفلسفي، والأدبي: الذي هو محط دراستنا اللغوية، حيث يشتمل على أنواع كثيرة منها: الخطب، والرسائل، والأمثال، والحكم، والوصايا، والمقامات، والقصص، والمسرحيات، ولكل نوع من هذه الأنواع سمات وخصائص تميزها، وهي مجال ثري للدراسات اللغوية، كما تعد الرسائل من الأجناس المهمة في تناول الموضوعات المختلفة، وعرضها بأسلوب أدبي يحقق غايته من الإمتاع والإقناع، ويؤثر في قارئه٠

(١) الحيوان: للجاحظ، ٥٣/١ ، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ دار الكتب العلمية – بيروت٠

الفرق بين الرسائل والخطب :

أما عن الفرق بين الرسائل والخطب فقد وضح أبو هلال العسكري الفرق بينهما بقوله:" واعلم أنّ الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل... ولا فرق بينهما إلّا أنّ الخطبة يشافه بها، والرسالة يكتب بها"(١).

فالرسائل وسيلة من وسائل التخاطب، ولكنها وسيلة مكتوبة وليست مسموعة، إذ إنها بديل عن الأقوال المسموعة التي يمكن أن يتبادلها المتخاطبون، فإذا كانت الخطبة جنسا أدبيا شفهيا يرى صاحبها بحيث يمكنه جذب انتباه سامعيه، إلى جانب استخدامه اللغة المسموعة، استخدام اللغة المرئية المتمثلة في لغة الإشارة والجسد، أما الرسالة فهي أدب مكتوب، غائب صاحبه عن حضرة القارئ، لذا يتعين على كاتبها أن تكون الرسالة واضحة الألفاظ، دقيقة المعاني، شيقة العبارات، محكمة التراكيب، حتى تصل إلى عقل القارئ وقلبه كما أرادها الكاتب، فيتحقق بها الإفهام، وتتم الإفادة.

تعريف الرسالة:

يطلق لفظ الرسالة في اللغة على: "مَا يُرْسل، وَالْخطاب، وَكتاب يشْتَمل على قَلِيل من الْمسَائِل تكون فِي مَوْضُوع وَاحِد"(٢)، كما يعرف الإرسال بـ "بالتَّوْجِيه، ...والاسْمُ: الرِّسَالَةُ"(٣).

---

(١) كتاب الصناعتين: لأبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)،ص ١٣٦، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩ هـ.

(٢) المعجم الوسيط: لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار) – مادة (رسل) ، الناشر: دار الدعوة.

(٣) تاج العروس: لمرتضى الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) مادة رسل، المحقق: مجموعة من المحققين ،الناشر: دار الهداية.

وقد بين القلقشندي المراد بالرسائل بقوله:" والمراد فيها أمور يرتّبها الكاتب: من حكاية حال من عدوّ، أو صيد، أو مدح وتقريظ، أو مفاخرة بين شيئين، أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى، وسمّيت رسائل من حيث إنّ الأديب المنشئ لها ربّما كتب بها إلى غيره، مخبرا فيها بصورة الحال، مفتتحة بما تفتتح به المكاتبات، ثم توسّع فيها فافتتحت بالخطب وغيره"(١).

كما "يطلق على فن الرسالة المكاتبات، وتعرف المكاتبة بأنها مخاطبة الغائب بلسان القلم، ويجب أن يراعى فيها أحوال الكاتب، والمكتوب إليه، ونوع العلاقة بينهما، وقد تنبه إلى ذلك القدماء وأوصوا به(٢).

ويعتبر فن الرسائل من الفنون النثرية القديمة التي ازدهر في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وهو فن نثري جميل يظهر مقدرة الكاتب، وموهبته الكتابية، ومدى استيعابه لمفردات اللغة وأساليبها، وقد كانت الرسائل ولا تزال لها دور كبير في تحقيق الغرض من إنشائها، وتوثيق التواصل بين الأفراد أو الجماعات.

تاريخ الرسالة:

قد "يظن البعض أن الرسالة فن لم يظهر إلا بعد الإسلام بفترة طويلة معتمدين على المقولة المشهورة: (بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد)(٣)، ولكن هذه المقولة تعني الرسالة المتميزة أدبيا، فقد عرفت الرسائل

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: للقلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ)، ١٥٧/١٤، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه المؤلف : محمد صالح الشنطين١٧٣،١٧٤، الناشر : دار الأندلس للنشر والتوزيع – السعودية / حائل الطبعة : الخامسة ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

(٣) راجع: يتيمة الدهر جـ٣ ص١٣٧.

منذ العصر الجاهلي، ثم الإسلامي، حيث كان الرسول ﷺ يكاتب الملوك والأمراء من معاصريه داعيًا إياهم إلى الإسلام، ثم بعد ذلك عرفت في وصايا الخلفاء، وفي الرسائل التي أرسلها خلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس إلى ولاتهم"[١]، فقد أنشأ خلفاء الدولة الإسلامية ديوان الرسائل، وكان يعنى بشؤون المكاتبات التي تصدر عن الخليفة إلى ولاته، وقادة جيشه، وملوك الدول الأخرى، وقد كان الخليفة في أول الأمر هو الذي يملي الرسائل على كاتبه، ثم أخذ الكتاب يستقلون بكتابتها، ثم تعرض على الخلفاء، وكان أسلوبها آنذاك تغلب عليه البساطة والوضوح، ويخلو من التأنق والتصنع، لكنه شهد نقلة كبيرة في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، عندما تولى مولاه سالم رئاسة ديوان الرسائل في عهده، ثم في عهد مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، الذي تولى أمر ديوانه عبد الحميد بن يحي الكاتب[٢]، وقد عرف بالبراعة في فن الترسل حتى غدت مكاتباته مضرب المثل في الجودة والإتقان ، فيعد بحق صاحب نهج جديد في الكتابة النثرية العربية، إذ يقال بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد[٣].

أسلوب الرسائل :

لقد مثلت الرسالة الديوانية عند ظهورها تطورا مهما في تاريخ النثر العربي، كما استمرت في أوائل الحكم العباسي على نظام كتابتها في أواخر

---

(١) التحرير الأدبي: المؤلف: د. حسين علي محمد حسين (المتوفى: ١٤٣١هـ) ص١٥١، الناشر: مكتبة العبيكان الطبعة: الخامسة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

(٢) ينظر المقال وتطوره في الأدب المعاصر: للسيد مرسي أبو ذكري ص ٢٠، الناشر: دار المعارف، الطبعة: ١٩٨٢م.

(٣) ينظر الفن ومذاهبه في النثر العربي: لشوقي ضيف (المتوفى: ١٤٢٦هـ) ص٢٠٨، الناشر: دار المعارف، الطبعة: الثالثة عشرة.

عصر بني أمية، "سالكة الطريقة التي سلكها عبد الحميد بن يحيى الكاتب[١] وابن المقفع والقاسم بن صبيح وعمارة بن حمزة ونظراؤهم، من العناية بجعل عبارتها جزلة، بليغة، متناسقة الموضوع والأسلوب، وبقيت كذلك بل زادت حسنًا وجمالًا ومراعاة لمقتضى الحال إلى أوائل القرن الرابع، ثم أخذت الصناعات اللفظية تغلب عليها تدريجيًا بتضاؤل ملكة البلاغة في الكتاب وتقاصر هممهم عن استيفاء أداتها، لتغلب الأعاجم من الديلم البويهيين والترك السلجوقيين على سلطان الخلفاء في الشرق، وتغلب البربر على شمالي أفريقية والأندلس في الغرب، فلم يعد في الملوك والأمراء من يعنيهم أمر العربية وبلاغتها، ومازالت كذلك حتى سقطت الدولة العباسية على أيدي الأعاجم من التتار ، فكان ذلك ابتداء اضمحلال الكتابة واللغة[٢].

أشهر الكتاب:

لقد اهتم خلفاء الدولة العباسية بكتابة الرسائل أكثر من سابقيهم، ولهذا السبب كثر الكتاب في عصرهم ونبغ كثير منهم في فن الترسل، وقد "بلغوا بحذقهم سياسة الملك ونبوغهم في البلاغة أن ارتقوا عند خلفاء العباسيين إلى مرتبة الوزارة، وأول كاتب منهم ارتقى إليها هو أبو سلمة الخلال، ومن أشهر كتاب هذا العصر في الشرق ابن المقفع، ويحيى بن خالد بن برمك وابناه، وإسماعيل بن صبيح، وعمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف، وابن الزيات،

(١) المقال وتطوره في الأدب المعاصر: ص٢٠.

(٢) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب: لمصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)١٦٣/٢، أشرفت على تحقيقه، وتصحيحه: لجنة من الجامعيين ، الناشر: مؤسسة المعارف، بيروت.

والحسن بن وهب وعلي بن الفرات، وابن مقلة، وابن العميد[١]، والصاحب بن عباد[٢]، وأبو بكر الخوارزمي، والبديع، والصابي، والعماد الكاتب، والقاضي الفاضل.

ومن أشهر كتابه في الأندلس ابن شهيد، وأبو المطرف بن عميرة، ولسان الدين بن الخطيب" [٣] .

وقد احتوى كتاب جمهرة رسائل العرب [٤] على طائفة من الرسائل التي مثلت عصورا مختلفة، وتبدو فيها التقاليد الفنية التي تَرَسَّمها المنشئون في ذلك الميدان.

مقومات الرسالة:

تتسم الرسالة الجيدة بجودة العبارة، والبعد عن التكلف، والزخرفة المتعمدة، مع وضوح المعاني وجلائها، فيخلو الكلام من الغموض، أو التعقيد الذي يخل بالفصاحة، وكذلك الحشو، والتطويل الذي لا طائل وراءه، إلى جانب مراعاة المقامات وأحوال المخاطبين.

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي: لشوقي ضيف ، ص٢٠٥ ، وجواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، مصطفى الهاشمي ١٦٦/٢.

(٢) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب: ١٦٨/٢.

(٣) المرجع السابق : ١٦٤/٢.

(٤) جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهية: أحمد زكي صفوت: مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة ط١٩٧١م. ويقع الكتاب في أربعة مجلدات يحتوي الأول منها على رسائل العصر الجاهلي وصدر الإسلام، والثاني على رسائل العصر الأموي، والثالث والرابع يختصان برسائل العصر العباسي الأول.

أنواع الرسائل:

وقد تنوعت الرسائل بين (إخوانية) أي شخصية، أو (ديوانية) وهي الرسائل الرسمية التي تختص بأمور الدولة، وهي "من أهم المصادر التاريخية في توثيق الخبر التاريخي"(١)، وقد كان لتلك الرسائل تقليدها ورسومها، وهي أنواع مختلفة، منها ما يسمى بالرسالة الإدارية، ومنها رسائل المناسبات.

ومنها الرسائل الأدبية، وهذ النوع من الرسائل يكون عادة متبادلًا بين الأدباء، ولا يخلو من بحث قضية أدبية أو الإشارة إلى مسألة نقدية أو علمية، وقد يكون الغرض منها التفكه والترويح عن النفس، أو المحبة بشكل عام.

ومن ذلك النوع تلك الرسائل التي نسبت للجاحظ، والتي جمعت في كتاب سمى بـ(الرسائل الأدبية)، وقد وصل عددها إلى إحدى وعشرين رسالة في موضوعات متنوعة، ولم تكن تلك الرسائل هي جميع ما كتب الجاحظ بل ضاع منها الكثير، وما بقي منها لم يكن كاملا إلا أقله.

ولم يكن إطلاق اسم (الرسائل الأدبية) عليها بالمعنى المفهوم للأدب اليوم، من حيث إنه ذلك الفن الجميل الذي يغلب عليه الخيال والعاطفة، ولكن بالمعنى الذي فهمه الجاحظ في قوله «والأدب إما خُلُقٌ وإما رواية، وقد أطلقوا له اسم المؤدب على العموم»، فالأدب يعني الأخلاق، كما يعني رواية العلم أو نقله بين الأجيال بواسطة المؤدب أو المعلم(٢).

وقد انتهج الجاحظ في تلك الرسائل منهجا علميا متخصصا، يعتمد على وحدة الموضوع،–خلافا لما عرف عنه من كثرة الاستطراد– حيث يعمد

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: للقلقشندي، ٣١/١.

(٢) ينظر: مقدمة كتاب الرسائل الأدبية: للجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، ص٥، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ .

في تلك الرسائل إلى أكثر الموضوعات أهمية في عصره، كاشفا أسبابها، ومظاهرها، وآثارها، فيدرسها دراسة مستفيضة وشاملة، تكشف خبراته، وتظهر ثقافته، بأسلوب أدبي بديع يثير الإعجاب، ويحقق الإقناع والإمتاع٠

فكل رسالة من رسائل الجاحظ تعد كتابا في ظاهرة أو موضوع معين، تظهر فكرته، وتستقصي جوانبها، فتوضحها، وتكشفها بدراسة مستفيضة وشاملة، مستشهدا بالأدلة والبراهين التي تدعم فكرته، وتثبت رأيه٠

ورسالة الحاسد والمحسود هي مثال واضح لذلك النوع من الرسائل التي تظهر سلبية من سلبيات المجتمع ينبغي تجنبها، والبعد عمن يتصف بها؛ لما لها من ضرر جسيم؛ وخطر عظيم على الفرد والجماعة، فيعرضها الجاحظ عرضا أدبيا رائعا، وكأنه لم ير في حياته إلا حساد؛ لما استقصاه، وعرضه من صور الحسد وآثاره، مستدلا على ذلك بكل ما يحقق مقصده٠

وقد انتهج الجاحظُ في عرض موضوعه منهجا علميا دقيقا وشاملا، من حيث استقراء جوانبه، وحصرها في عدد من الأسئلة التي يبحث السائل في إيجاد جواب، يفسر غامضها، ويزيل إبهامها٠

ثالثاً: المقصود بالحسد:

الحسد فعل فكري، ومرض قلبي، وداء عضال، أشد فتكا من الأمراض البدنية المستعصية، يغلب على من ضعف إيمانه، وتبع شيطانه، وهو بداية كل الذنوب، وسبب لكل الآثام، ومفتاح لكل باب من أبواب الشر، ممقوت من عرف به في الدنيا، محبط عمله في الآخرة، شاع وانتشر بين الناس، فكان ولا يزال متفشيا ومنتشرا في سائر المجتمعات، والأزمان منذ بدء الخليقة وحتى نهاية الحياة على الأرض، فلا تخلو منه جماعة عالمة كانت أم جاهلة، ولا يخلو زمان ولا مكان من أصحاب الضمائر الخبيثة، والنفوس الضعيفة التي

تكره ما ترى مِنْ نعم مَنَّ بها المولى –عز وجل– على من أراد من عباده، فيسقط في بحر من الذنوب والمعاصي.

ومما ورد في الحسد قول ابن المبارك:

كل العَدَاوةِ قــدْ تُرجَـى إِمــاتـتُهَا ∴ الاَّ عَداوةَ من عَادكَ من حَسَدِ

فإنَّ فِي القَلْبِ مِنْهَا عُقْدَةً عُقِدَتْ ∴ ولَيْسَ يَفْتَحُـــهَا رَاقٍ إلى الأَبَدِ

إلاَّ الإلَهُ فَإنْ يَــرْحَـــمْ تَحِـلَّ بِـهِ ∴ وإنْ أبَاهُ فَلَا تَرجُــوهُ مِنْ أَحدِ[(١)]

من أجل ذلك حث الإسلام على سلامة القلوب وطهارتها، وجعلها سببا للنجاة يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [سورة الشعراء: الآيات (٨٨، ٨٩)]؛ ولأن القلب هو محل نظر المولى –سبحانه وتعالى–، قال رسول الله ﷺ " إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" [(٢)] مؤكدا على وجوب سلامة القلوب والأعمال من كل ما يفسدها.

ولما كان الحسد بلاء عظيم، وباب من أبواب الشيطان ينفذ منه لإفساد حياة بني آدم، فقد أمر المولى –سبحانه– بالاستعاذة بالله من الحاسد وشره، قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ [الفلق: الآيات (١–٥)]، وفيها " قال ابن السماك: إن الله تعالى

---

(١) إرشاد العباد في كشف مثالب الحسد والحساد: لعلي محمد سلمان العبيدي ص ٥–٦، دار النوارس للدعاية والنشر.

(٢) المسند الصحيح: للإمام مسلم (المتوفى: ٢٦١هـ)، ١٩٨٧/٤، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي.

أنزل سورة جعلها عوذة لخلقه من صنوف الشر، فلما انتهى إلى الإعاذة من الحسد جعلها خاتما، إذ لم يكن بعده في الشر نهاية"[١].

وكما حث المولى –سبحانه– على المحبة الخالصة بين المسلمين، حث النبي ﷺ أيضا على توثيق أواصر الصلة والمودة بينهم، عن طريق وجوب حرص المسلم على سلامة أخيه المسلم، بقوله: ﴿ المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ﴾ [٢].

وأكد على عدم اكتمال إيمانه إلا إذا أحب لأخيه من المنافع والخير ما أحب لنفسه ، قال عليه الصلاة والسلام: ﴿ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ﴾ [٣].

وإلى جانب دعوته ﷺ إلى السلامة والمحبة، نهى عن الأمراض التي تفتت المجتمع، وتضعف الأمة، فقال: "لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا" [٤].

من أجل ذلك وجب على المسلم العمل على سلامة قلبه من كل ما يمرضه، وسلامة عمله من كل ما يحبطه، وأن ينشر الود والإخاء في سائر مجتمعه، نابذًا الحقد، والكره، والضغينة، والنفاق، والغش والحسد، وكل ما من

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، ٣١٢/١،الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.

(٢) صحيح البخاري: ١١/١، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٣) المرجع السابق: ١٢/١.

(٤) المسند الصحيح :للإمام مسلم ،١٩٨٦/٤.

شأنه تفتيت المجتمع، ونشر الضغائن والأحقاد، حتى يكتمل إيمانه، ويرقى مجتمعه، وينال رضا المولى –سبحانه– فيفوز بعطائه ونعمه٠

من أجل هذا وذاك عمد الجاحظ في هذه الرسالة وهي من رسائله المشهورة إلى بيان مضارِّ الحسد، ومثالبه على الفرد والمجتمع، للتنفير منه، والتحذير من خطر الوقوع فيه٠

* * * * * *

نص رسالة
" في الحاسد والمحسود" للجاحظ

فاتحة الرسالة:

يقول الجاحظ في نص رسالته(١):

[وهبَ الله لك السلامة، وأدام لك الكرامة، ورزقكَ الاستقامة، ورفع عنك النّدامة.

كتبت إليّ- أيّدكَ الله- تسألني عن الحسد ما هو؟ ومن أين هو- وما دليله وأفعاله؟ وكيف تعرف أمورهُ وأحواله، وبم يعرف ظاهره ومكتومه، وكيف يعلم مجهوله ومعلومه، ولم صار في العلماءِ أكثر منه في الجهلاء؟ ولم كثر في الأقرباء، وقلّ في البعداء؟ وكيف دب في الصّالحين أكثر منه في الفاسقين؟ وكيف خُصّ به الجيران من بين جميع أهل الأوطان.

١- تعريف الحسد:

والحسد- أبقاك الله- داء ينهك الجسد، ويفسد الودّ، علاجه عسر، وصاحبهُ ضجر. وهو باب غامض وأمر متعذّر، وما ظهر منه فلا يُداوى، وما بطن منه فمداويهِ في عَنَاء. ولذلك قال النبي ﷺ: " دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ " ، وقال بعضُ الناسِ لجلسائه: أيّ الناس أقلّ غفلة؟ فقال بعضهم: صاحبُ ليل، إنّما همّه أن يصبح. فقال: إنّه لكذا وليس كذا. وقال بعضهم: المسافر، إنّما همّهُ أن يقطع سفره. فقال: إنه لكذا وليس كذا. فقالوا له: فأخبرنا بأقلِّ النّاس غفلة. فقال: الحاسد، إنّما همّه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها، فلا يَغْفلُ أبدا.

---

(١) الرسائل الأدبية: للجاحظ،(المتوفى: ٢٥٥هـ)، ص من ١١٥إلى ١٢٥، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ.

٢- أسباب الحسد:

ويروى عن الحسن أنه قال: الحسدُ أسرعُ في الدّينِ من النارِ في الحطب اليابس.

وما أتي المحسود من حاسده إلّا من قبل فضل الله عنده ونعمه عليه قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آَتَيْنَا آَلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا** ﴾.

والحسد عقيدُ الكفر، وحليفُ الباطل، وضدُّ الحقّ، وحربُ البيان، فقد ذمّ الله أهل الكتابِ به فقال: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**﴾.

٣- عواقب الحسد:

منه تتولدُ العداوة، وهو سببُ كلّ قطيعة، ومنتج كلّ وحشة، ومفرّقُ كلِّ جماعة، وقاطع كلّ رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرّق بين القُرناء، وملقح الشرّ بين الخلطاء، يكمن في الصدر كمونَ النّارِ في الحجر.

ولو لم يدخل على الحاسد بعد تراكم المغموم على قلبه، واستمكان الحزن في جوفه، وكثرة مضضه ووسواس ضميره، وتنغّص عمره وكدر نفسه وكد عيشه، إلّا استصغاره نعمة الله عليه، وسخطه على سيّده بما أفاد غيره، وتمنّيه عليه أن يرجع في هبته إيّاه، وأن لا يرزق أحدا سواه، لكان عند ذوي العقول مرحوما، وكان لديهم في القياس مظلوما، وقد قال بعض الأعراب: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحساد: نفس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم، والحاسد مخذول وموزور، والمحسود محبوب ومنصور، والحاسد مغموم ومهجور، والمحسود مغشيّ ومزور.

٤- حسد إبليس ، وابن آدم:

والحسد– رحمك الله– أول خطيئة ظهرت في السّموات، وأوّل معصية حدثت في الأرض، خصّ به أفضل الملائكة فعصى ربّه، وقايسه في خلقه، واستكبر عليه فقال: ﴿**خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ فلعنه وجعله إبليسا، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيسا، وشوّه خلقه تشويها، وموّه على نبيّه تمويها نسي به عزم ربّه، فواقع الخطيئة، فارتدع المحسود وتاب عليه وهدى، ومضى اللعين الحاسد في حسده فشقي وغوى.

وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدهما أخاه، فعصى ربّه وأثكل أباه. وبالحسد طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين.

لقد حمله الحسد على غاية القسوة، وبلغ به أقصى حدود العقوق، فأنساه من رحمه جميع الحقوق، إذ ألقى الحجر عليه شادخا وأصبح عليه نادما صارخا.

٥- رأي الحاسد في المحسود:

ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيّا أن يوبّخه على المال فيقول: جمعه حراما ومنعه أثاما. وألّب عليه محاويج أقاربه فتركهم له خصماء، وأعانهم في الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر وقال له: لقد كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمّك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون. وإن وجد له خصما أعانه عليه ظلما، وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشّه، أو تفضّل عليه بمعروف كفره، أو دعاه إلى نصرّ خذله، وإن حضر مدحه ذمّه وإن سئل عنه همزه، وإن كانت عنده شهادة كتمها، وإن كانت منه إليه زلّة عظّمها، وقال: إنّه يحب أن يعاد ولا يعود، ويرى عليه العقود.

وإن كان المحسود عالما قال: مبتدع، ولرأيه متّبع، حاطب ليل ومبتغى نيل، لا يدرى ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل. قد أقبل بوجوه النّاس إليه، وما أحمقهم إذ انثالوا عليه. فقبحه الله من عالم ما أعظم بليّته، وأقلّ رعته، وأسوأ طعمته.

وإن كان المحسود ذا دين قال: متصنّع يغزو ليوصى إليه، ويحجّ ليثنى بشيء عليه، ويصوم لتقبل شهادته، ويظهر النّسك ليودع المال بيته، ويقرأ في المسجد ليزوّجه جاره ابنته، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته.

وما لقيت حاسدا قطّ إلّا تبيّن لك مكنونه بتغيّر لونه وتخوّص عينه وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك والإعراض عنك، والاستثقال لحديثك، والخلاف لرأيك.

٦- حسد عبد الله ابن أُبَي لِبَنِي هاشم:

وكان عبد الله بن أُبَي قبل نفاقه نسيج وحده لجودة رأيه وبعد همّته، ونبل شيمته، وانقياد العشيرة له بالسّيادة، وإذعانهم له بالرّياسة. وما استوجب ذلك إلّا بعدما استجمع له لبّه، وتبيّن لهم عقله، وافتقدوا منه جهله، ورأوه لذلك أهلا، لمّا أطاق له حملا. فلما بعث الله نبيّه ﷺ وقدم المدينة، ورأى هو عزّ رسولﷺ شمخ بأنفه فهدم إسلامه لحسده، وأظهر نفاقه، وما صار منافقا حتّى كان حسودا، ولا صار حسودا حتّى صار حقودا. فحمق بعد اللّبّ، وجهل بعد العقل، وتبوّأ النّار بعد الجنّة.

ولقد خطب النبي ﷺ بالمدينة فشكاه إلى الأنصار، فقالوا: يا رسول الله لا تلمه فإنا كنا عقدنا له الخرز قبل قدومك لنتوّجه، ولو سلم المخذول قلبه في الحسد لكان من الإسلام بمكان، ومن السؤدد في ارتفاع، فوضعه الله لحسده، وأظهر نفاقه، ولذلك قال القائل:

طالتْ عَلَى الحَاسِدِ أحزَانه ∴ فَاصْفَرّ مِنْ كَثْرَةِ أَحْزَانِه
دَعْهُ فقدْ أشْعلتَ في جَوْفِهِ ∴ ما هاجَ في حرِّ نِيرانِه
العَيْبُ أَشْهى عِنـــدَه لَذَّة ∴ مِنْ لـــذةِ المَالِ لِخَزَّانِه
فَارْمِ عَلَى غَـــارِبِهِ حَبْلَه ∴ تسْلَمْ مِـــنْ كثرةِ بُهْتَانِه

٧- حسد الجيران:

فصل منه: وذلك أنّ الجيران- يرحمك الله- طلائع عليك، وعيونهم نواظر إليك، فمتى كنت بينهم معدما فأيسرت، فبذلت وأعطيت، وكسوت وأطعمت، وكانوا في مثل حالك فاتّضعوا، وسلبوا النعمة وألبستها أنت، فعظمت عليهم بليّة الحسد، وصاروا منه في تنغيص آخر الأبد. ولولا أن المحسود بنصر الله إيّاه مستور، وهو بصنعه محجوب لم يأت عليه يوم إلّا كان مقهورا، ولم تأت ليلة إلا وكان عن منافعه مقصورا. ولم يمس إلّا وماله مسلوب، ودمه مسفوك، وعرضه بالضّرب منهوك.

٨- الحسود لا يستطيع كتمان حسده:

فصل منه: وأنا أقول حقا: ما خالط الحسد قلبا إلّا لم يمكنه ضبطه ولا قدر على تسجينه وكتمانه، حتى يتمرّد عليه بظهوره وإعلانه، فيستعبده ويستمليه، ويستنطقه لظهوره عليه فهو أغلب على صاحبه من السيّد على عبده، ومن السّلطان على رعيّته، ومن الرّجل على زوجته ومن الآسر على أسيره.

وكان ابن الزّبير بالصبر موصوفا، وبالدّهاء معروفا، وبالعقل موسوما، وبالمداراة منهوما، فأظهر بلسانه حسدا كان أضبّ عليه أربعين سنة لبني هاشم، فما اتّسع قلبه لكتمانه، ولا صبر على اكتتامه، لمّا طالت في قلبه طائلته أظهره وأعلنه، مع صبره على المكاره، وحمله نفسه على حتفها، وقلة

اكتراثه والتفاته لأحجار المجانيق التي كانت تمرّ عليه فتذهب بطائفة من قومه ما يلتفت إليها.

حدّثت بذلك عن عليّ بن مسهر عن الأعمش، عن صالح بن حبّاب، عن سعيد بن جبير قال: قدت ابن عباس حتّى أدخلته على ابن الزّبير، قال: أنت الذي تؤنّبني؟ قال: نعم، لأنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ليسَ بمؤمن من باتَ شبعانًا وجاره طاو﴾، فقال له ابن الزّبير: لمن قلت ذلك؟ إنّي لأكتم بغضكم أهل البيت مذ أربعين سنة. فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنّهما عسيبا نخل، ثم قال لابن الزبير: نعم فليبلغ ذاك منك، ما عرفتك.

ولقد أجلت الرأي ظهرا لبطن وفكرّت في جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسد فلم أجده، وكانت وخزة في قلبه فلم يبدها، وفروع بني هاشم حول الحرم باسقة، وعروق دوحاتهم بين أطباقها راسية، ومجالسهم من أعاليها عامرة، وبحورها بأرزاق العباد زاخرة، وأنجمها بالهدى زاهرة، فلمّا خلت البطحاء من صناديدها استقبله بما أكنّ في نفسه.

والحاسد لا يغفل عن فرصته إلى أن يأتي الموت على رمّته، وما استقبل ابن عبّاس بذلك إلّا لمّا رأى عمر قدّمه على أهل القدم، ونظر إليه وقد أطاف به أهل الحرم، فأوسعهم حكما، وثقبوا منه رأيا وفهما، وأشبعهم علما وحلما.

٩- حسد إخوة يوسف :

فصل منه: وكيف يصبر من استكنّ الحسد في قلبه على أمانيه. ولقد كان إخوة يوسف حلماء، وأجلّة علماء، ولدهم الأنبياء، فلم يغفلوا عمّا قدم في قلوبهم من الحسد ليوسف، حتّى أعطوا أباهم المواثيق المؤكّدة، والعهود المقلّدة، والأيمان المغلّظة، إنّهم له لحافظون، وهو شقيقهم وبضعة منهم.

فخالفوا العهود ووثبوا عليه بالظلم، وألقوه في غيابة الجبّ، وجاءوا على قميصه بدم كذب، فبظلمهم يوسف ظلموا أباهم، طمعا أن يخلو لهم وجه أبيهم وينفردوا بحبه، وظنوا أن الأيام تسليه، وحبه لهم من بعد غمه يلهيه، فأسالوا عبرته وأحرقوا قلبه، وكيف تقر أعين المحسودين بعد يوسف؟ وقد ملكه الله خزائن الأرض بصبره على أذى حساده، ومقابلته إياهم بالعفو والمكافأة وحسن العشرة والمؤاخاة، بعد إمكانه منهم كما أتوه محتارين رفدهم عليه خائفين وهم له منكرون، فأحسن رفدهم، وأكرم قراهم، فأقروا له لما عرفوه بالإذعان، وسألوه بعد ذلك الغفران، وخروا له سجدا لما وردوا عليه وفدا.

١٠- معاملة الصديق الحسود:

فإذا أحسست– رحمك الله– من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته، فإنّه أعون الأشياء لك على مسالمته. وحصّن سرّك منه تسلم من شرّه، وعوائق ضرّه، وإيّاك والرغبة في مشاورته، ولا يغرنّك خدع ملقه، وبيان ذلقه، فإنّ ذلك من حبائل نفاقه.

فإن أردت أن تعرف آية مصداقه فأدنين إليه من يهينك عنده، ويذمّك بحضرته، فإنّه سيظهر من شأنه لك ما أنت به جاهل، ومن خلاف المودّة ما أنت عنه غافل، وهو ألحّ في حسده لك من الذّباب، وأسرع في تهريقك من السّيل إلى الحدور.

وما أحبّ أن تكون عن حاسدك غبيّا، وعن وهمك بما في ضميره نسيّا. إلّا أن تكون للذلّ محتملا، وعلى الدناءة مشتملا، ولأخلاق الكرام مجانبا، وعن محمود شيمهم ذاهبا، أو تكون بك إليه حاجة قد صيّرتك لسهام الرّماة هدفا، وعرضك لمن أراد غرضا.، وقد قيل على وجه الدّهر: «الحرّة تجوع ولا تأكل بثديها»٠

وربّما كان الحسود للمصطنع إليه المعروف أكفر له وأشدّ احتقادًا، وأكثر تصغيرا له من أعدائه.

١١- لا خير يرتجى من حسود:

فصل منه: ومتى رأيت حاسدا يصوّب لك رأيا إن كنت مصيبا، أو يرشدك إلى صواب إن كنت مخطئا، أو أفصح لك بالخير في غيبته عنك أو قصّر من غيبته لك؟

فهو الكلب الكلب، والنّمر النّمر والسّمّ القشب، والفحل القطم، والسّيل العرم. إن ملك قتل وسبى، وإن ملك عصى وبغى، حياتك موته، وموتك عرسه وسروره. يصدّق عليك كلّ شاهد زور، ويكذّب فيك كلّ عدل مرضيّ، لا يحبّ من النّاس إلّا من يبغضك، ولا يبغض إلّا من يحبّك، عدوّك بطانة وصديقك علانية.

وقلت: إنّك ربّما غلطت في أمره لما يظهر لك من برّه. ولو كنت تعرف الجليل من الرأي، والدقيق من المعنى، وكنت في مذاهبك فطنا نقابا، ولم تك في عيب من ظهر لك عيبه مرتابا، لاستغنيت بالرّمز عن الإشارة، وبالإشارة عن الكلام، وبالسّرّ عن الجهر، وبالخفض عن الرفع، وبالاختصار عن التطويل، وبالجمل عن التفصيل، وأرحتنا من طلب التحصيل ولكني أخاف عليك أنّ قلبك لصديقك غير مستقيم، وأن ضمير قلبك له غير سليم، وإن رفعت القذى عن لحيته، وسوّيت عليه ثوبه فوق مركبه، وقبّلت صبيّه بحضرته، ولبست له ثوب الاستكانة عند رؤيته، واغتفرت له الزّلّة، واستحسنت كلّ ما يقبح من جهته، وصدّقته على كذبه، وأعنته على فجزته، فما هذا العناء! كأنّك لم تقرأ المعوّذة، ولم تسمع مخاطبته نبيّه ﷺ، في التّقدمة إليه بالاستعاذة من شرّ حاسد إذا حسد.

أتطلب ويحك أثرا بعد عين، أو عطرا بعد عروس، أو تريد أن تجتني عنبا من شوك، أو تلتمس حَلْبَ لبن من حائل. إنّك إذا أعيا من باقل، وأحمق من الضبع، وأغفل من هرم.

إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك، وتعوجّ بعدما قوّمناك، وتبلّد بعدما ثقّفناك، وتضلّ إذ هديناك، وتنسى إذ ذكّرناك، فأنت كمن أضلّه الله على علم فبطلت عنده المواعظ، وعمي عن المنافع، فختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة. فنعوذ بالله من الخذلان.

إنّه لا يأتيك ولكن يناديك ولا يحاكيك ولكن يوازيك. أحسن ما تكون عنده حالا أقلّ ما تكون مالا، وأكثر ما تكون عيالا، وأعظم ما تكون ضلالا. وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهدا، وأبعد ما تكون من الناس حمدا، فإذا كان الأمر على هذا فمجاورة الموتى، ومخالطة الزّمنى، والاجتنان بالجدران، ومصر المصران، وأكل القردان، أهون من معاشرته، والاتّصال بحبله.

والغلّ نتيج الحسد، وهو رضيعه، وغصن من أغصانه، وعون من أعوانه، وشعبة من شعبه، وفعل من أفعاله، كما أنّه ليس فرع إلّا له أصل، ولا مولود إلّا له مولد، ولا نبات إلّا من أرض، ولا رضيع إلّا من مرضع، وإن تغيّر اسمه، فإنّه صفة من صفاته، ونبت من نباته، ونعت من نعوته.

١٢- الجنة حيث لا حسد:

ورأيت الله جل جلاله ذكر الجنّة في كتابه فحلّاها بأحسن حلية، وزيّنها بأحسن زينة، وجعلها دار أوليائه ومحلّ أنبيائه، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فذكر في كتابه ما منّ به عليهم من السّرور والكرامة عندما دخلوها وبوّأها لهم فقال:﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ** ﴾.

فما أنزلهم دار كرامته إلّا بعد ما نزع الغلّ والحسد من قلوبهم، فتهنّوا بالجنّة، وقابلوا إخوانهم على السّرر، وتلذّذوا بالنظر في مقابلة الوجوه لسلامة

صدورهم. ونزع الغلّ من قلوبهم. ولو لم ينزع ذلك من صدورهم ويخرجه من قلوبهم، لافتقدوا لذاذة الجنّة، وتدابروا وتقاطعوا وتحاسدوا، وواقعوا الخطيئة، ولمسّهم فيها النّصب، وأعقبوا منها الخروج، لأنّه عزّ وجلّ فضّل بينهم في المنازل، ورفع درجات بعضهم فوق بعض في الكرامات، وسنيّ العطيات، فلمّا نزع الغلّ والحسد من قلوبهم ظنّ أدناهم منزلة فيها، وأقربهم بدخول الجنّة عهدا، أنّه أفضلهم منزلة، وأكرمهم درجة، وأوسعهم دارا بسلامة قلبه، ونزع الغلّ من صدره، فقرّت عينه وطاب أكله. ولو كان غير ذلك لصاروا إلى التنغيص في النظر بالعيون، والاهتمام بالقلوب، ولحدثت العيوب والذّنوب.

١٣- السلامة في الابتعاد عن الحسود:

وما أرى السّلامة إلّا في قطع الحاسد، ولا السّرور إلّا في افتقاد وجهه، ولا الرّاحة إلّا في صرم مداراته. ولا الرّبح إلّا في ترك مصافاته، فإذا فعلت ذلك فكل هنيّا مريّا، ونم رضيّا ، وعش في السّرور مليّا

ونحن نسأل الله الجليل أن يصفّي كدر قلوبنا، ويجنّبنا وإياك دناءة الأخلاق، ويرزقنا وإيّاك حسن الألفة والاتّفاق ويحسن توفيقك وتسديدك، والسّلام(١).

* * * * * *

(١) الرسائل الأدبية: للجاحظ، ص ١٢٥.

المبحث الأول

حسن ابتداء الجاحظ للرسالة

وبلاغته في بيان حقيقة الحسد وعواقبه

أولًا: بلاغة المطلع وبيان الجاحظ لحقيقة الحسد:

يقول الجاحظ في مطلع الرسالة مبينًا حقيقة الحسد وصفته:

[وهب الله لك السلامة، وأدام لك الكرامة، ورزقك الاستقامة، ورفع عنك النّدامة.

كتبت إليّ- أيّدك الله- تسألني عن الحسد ما هو؟ ومن أين هو؟ وما دليله وأفعاله؟ وكيف تعرف أموره وأحواله؟، وبم يعرف ظاهره ومكتومه؟، وكيف يعلم مجهوله، ومعلومه؟، ولِمَ صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء؟ ولِمَ كثرَ في الأقرباء، وقلّ في البعداء؟ وكيف دب في الصّالحين أكثر منه في الفاسقين؟ وكيف خصّ به الجيران من بين جميع أهل الأوطان؟].

والحسد- أبقاك الله- داء ينهك الجسد، ويفسد الودّ، علاجه عسر، وصاحبه ضجر. وهو باب غامض وأمر متعذّر، وما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه في عناء، ولذلك قال النبيّ ﷺ: {دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ}، وقال بعض الناس لجلسائه: أيّ الناس أقلّ غفلة؟ فقال بعضهم: صاحب ليل، إنّما همّه أن يصبح. فقال: إنّه لكذا وليس كذا، وقال بعضهم: المسافر، إنّما همّه أن يقطع سفره، فقال: إنه لكذا وليس كذا، فقالوا له: فأخبرنا بأقلّ النّاس غفلة، فقال: الحاسد، إنّما همّه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها، فلا يغفل أبدا، ويروى عن الحسن أنه قال: الحسد أسرع في الدّين من النار في الحطب اليابس][1].

(١) الرسائل الأدبية :للجاحظ ، ص ١١٥.

يكشف الجاحظ في مطلع الرسالة عن موضوعها، والغرض منها، كما يظهر عنايته بالحسد، وإدراكه لخطره، ويستهلها بالدعاء بقوله: (وهب الله لك السلامة، وأدام لك الكرامة، ورزقك الاستقامة، ورفع عنك النّدامة)، وجاء بالدعاء وهو إنشاء في صورة الخبر، ووضعه موضعه، لحرصه على تحققه عن طريق المجاز، فهو إما مجازٌ مرسلٌ من استعمال الفعل الماضي في الطلب، وهو مستقبل، لعلاقة الضدية، أو مجاز بالاستعارة لتشبيه غير الحاصل بالحاصل(١).

واستهلال الجاحظ الرسالة بالدعاء جاء لاستمالة القارئ وجذب انتباهه، خاصة وأن ما يتحدث عنه أمر له خطره، فقوله: (وهب الله لك السلامة)، تشير إلى أن ما سيتحدث عنه، مرض خبيث، وداء عضال، يُطْلَب السلامة منه؛ لذا كان أول كلامه هو الدعاء بسلامة المخاطب، وهو تعبير يلائم الحديث عن الأمراض سواء كانت نفسية أو بدنية، وأطلق البلاغيون على هذا الأسلوب "حسن الابتداء"(٢)؛ لدلالته على الغرض الذي يأتي بعده، وهو ما حث عليه العلماء واستحسنوه في كل من الشعر، والنثر، حيث جعله ابن الأثير أحد الأركان البلاغية بقوله:" أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من هذا الكلام"(٣)، وذكر ابن المقفع أنه:

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: للخطيب القزويني (المتوفى: ٧٣٩هـ)، ٩٢/٣، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة٠

(٢) "ويقول الحلبي: وحسن الابتداء تسمية ابن المعتز وأراد بها ابتداء القصائد، وقد فرع المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال. ولكن ابن المعتز هو الذي سبق إلى هذه التسمية"، (البديع في البديع :لابن المعتز (المتوفى: ٢٩٦هـ)، ص٤٢، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م)٠

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لضياء الدين بن الأثير، (المتوفى: ٦٣٧هـ)، ٩٦/٣، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة٠

"يجب أن يكون في صدر كلامك دليل على حاجتك"[١]، وأكد غيرهم من البلاغيين على أن أحسن الابتداء ما ناسب المقصود، ووضح الغرض، بحيث يكون فيه إشارة إلى ما سيق الكلام لأجله[٢]، حيث " يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه ببيت أو قرينة تدلّ على مراده في القصيدة أو الرسالة أو معظم مراده، والكاتب أشدّ ضرورة إلى ذلك من غيره؛ ليبتني كلامه على نسق واحد دلّ عليه من أوّل؛ ليعلم بها مقصده"[٣]؛ لذلك كان الجاحظ موفقا في الاستهلال بهذا الدعاء، الملائم لموضوعه، والمنبئ عن غرضه٠

كما عطف الجاحظ علي الدعاء بالسلامة دعاءً آخر بواسطة (الواو) بقوله: (وأدام لك الكرامة)، حيث تدوم بتجنب الوقوع في الحسد أو الإصابة به، وأتبعه بـ(ورزقك الاستقامة)، فمن رزقها استقام أمره ولم يقع في معصية، وناسبه ختم دعاءه بقوله: (ورفع عنك النّدامة)، فمن رزق الاستقامة، كفاه الله شر الندامة، وهو نتيجة لها٠

ومن البين ملاءمة كل فعل من الأفعال (وهب –أدام– رزق– رفع)، لموضعه الذي سيق لأجله في الجملة، فالسلامة هي هبة من المولى –سبحانه وتعالى– يهبها لمن أراد من عباده، أما الكرامة فلا يظهر أثرها وفضلها إلا بدوامها، واستمرارها، وكذلك الاستقامة هي رزق من الله – سبحانه– يعطيه من ارتضى من عباده، أما الندامة فإنما يحتاج الإنسان لرفعها، حتى يدوم الرضا، وتتحقق السعادة، وهو أعظم المنن وأجلها، فكل لفظ من تلك الألفاظ واقع موقعه، ملائم لسياقه، معبر عن غرضه بكل دقة٠

---

(١) البديع في البديع: لابن المعتز، ص ٤٣.

(٢) براعة الاستهلال :ينظر المطول للتفتازاني: ٤٧٩,٤٧٨ المكتبة الازهرية للتراث٠

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب: لشهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)،١٣٣/٧، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ٠

كما وصل الجاحظ بين تلك الجمل الدعائية، للتوسط بين الكمالين، مع عدم المانع من الوصل، فهي خبرية لفظا إنشائية معنى، وربط بينها بـ(الواو) العاطفة؛ لدلالتها على "مطلق الجمع"[(١)]، فهي تربط الكلام بسابقه، وتصله بلاحقه، لاستكمال صورته، وتوضيح غرضه، مع وجود المناسبة بينها، حيث يتحد فيها المسند إليه، ويتلاءم المسند، يقول الإمام عبد القاهر مؤكدا على لزوم مراعاة المناسبة بين الجمل عند عطفها، أنها "لا تجيءُ حتى يكونَ المَعْنى في هذِهِ الجملة لَفْقاً للمعنى في الأخرى ومُضَامَّاً له"[(٢)].

وهنا تآزر كل من الدعاء والوصل مع تقديم ضمير المفعول (لك)، على تأكيد حرص الجاحظ على سلامة المخاطب من الوقوع في شرك ذلك الداء الخبيث ومضاره.

كما ختم الجاحظ فواصل تلك الجمل بالسجع المتوازي، وهو وإن بدا مقصودا، إلا أنه جاء ملائما للمقام، مؤكدا للغرض، قاصدا لمعنى كل لفظة فيه، فكل من ألفاظ (السلامة– الكرامة– الاستقامة– الندامة)، ملائمة للحديث عن الحسد، وما ينجم عنه من مساوئ وأضرار، بما يستلزم الدعاء بالسلامة منه، والاستقامة بعدم الوقوع فيه، إلى جانب ما في السجع من موسيقى ظاهرة تجذب الأسماع، وتطرب الآذان، وهو مما يستحب في الاستهلالات، وفواتح

---

(١) الجنى الداني في حروف المعاني: للمرادي (المتوفى: ٧٤٩هـ) ص ١٦٢، المحقق: د فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م.

(٢) دلائل الإعجاز: للإمام عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ) ، ٢٢٥/١، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

الحديث، بشرط عدم الكلفة أو الاستكراه ، فالأديب الحـاذق العليم بصناعة الكلام وأحوال المخاطبين، هو من يأتي بما يحقق الغرض، وعلى قدر المقام٠

ثم يأتي الجاحظ بعد ذلك الاستهلال الحسن بمضمون الرسالة، والغرض من كتابتها، والذي يدور حول تفسيره لما طرح عليه من أسئلة، تطلب معرفة ماهية الحسد، وأحواله، وصور الحاسد، وصفاته، بقوله: (كتبت إليّ- أيّدك الله- تسألني عن الحسد ما هو؟ ومن أين هو؟ وما دليله وأفعاله؟ وكيف تعرف أموره وأحواله؟، وبم يعرف ظاهره ومكتومه؟، وكيف يعلم مجهوله ومعلومه؟ ولم صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء؟ ولم كثر في الأقرباء وقلّ في البعداء؟ وكيف دب في الصّالحين أكثر منه في الفاسقين؟ وكيف خصّ به الجيران من بين جميع أهل الأوطان؟)٠

ولم يذكر الجاحظ اسم السائل ولم يشر إليه، إما لعدم تعلق غرض بذكره، أو لأن شغله الأهم هو السؤال، أو أنه يقصد كل من يهتم بذلك الأمر ويود معرفته، فيخاطبه داعيًا له بقوله: (أيّدك الله)، والاعتراض بهذا الدعاء يظهر دقة الجاحظ في اختيار الأدعية الملائمة للسياق، والمناسبة للغرض، وهو هنا تأييد المولى -سبحانه- بصواب الرأي وكل ما يحقق بغيته وطلبه، وتكرار الدعاء عن طريق الاعتراض، يظهر حرص الجاحظ على كل ما يدفع عن مخاطبه الضر، ويجلب له الخير٠

وقد افتتح الجاحظ حديثه عن الحسد بالأسلوب الإنشائي بطريق الاستفهام، بتوالي الأسئلة وتتابعها، حيث تشمل كل ما من شأنه كشف ذلك الداء المسمى بالحسد، في جميع صوره، وأحواله، مع توشية ذلك الأسلوب الإنشائي بالسجع الذي أتى سلسًا مقبولا غير مستكره٠

وقد عمد الجاحظ إلى تكرار المستفهم عنه وهو: بيان حقيقة الحسد، وأحواله، وفيمن يكثر، بغرض الكشف عن خطره، وتوضيح صوره، وهو من

قبيل الإجمال لما يريد تفسيره وتوضيحه من مقاصد، والتي فصَّلها وكشف عنها أثناء الرسالة، فهو إجمال مشوق، جاء بعده تفصيل وتوضيح، وهي صورة من صور الاطناب التي يستخدمها الأديب، عندما يطلبها السياق، ويستدعيها الغرض.

وإذا كان محور حديث الجاحظ هو (الحاسد والمحسود) فقد عمل على تجسيد كل منهما، وتصويره بأساليب متنوعة، وصور مختلفة، تكشف أحوالهما بشمول ودقة.

وبتأمل تلك الفقرة نجد ذلك الترابط المعنوي، بين ما تم طرحه من أسئلة عن طريق الضمائر التي ترجع جميعها إلى الحسد، الذي ذكر مطلع الرسالة، والإيجاز اللفظي، الذي نشأ بسبب توالي الضمائر وتتابعها بين جمل الاستفهام حيث كانت تلك الضمائر رابطا معنويا أدى إلى الإيجاز، وعدم إطالة الجمل.

وبملاحظة هذا الإيجاز، وذاك الإطناب، يتضح لنا بلاغة الجاحظ، وبراعته في التعبير، حيث مكنته مقدرته اللغوية على الدمج بينهما في فقرة واحدة، كما تآزر كل منهما مع الآخر في كشف مقصود الكاتب وهدفه من الرسالة.

كما أن توالي أدوات الاستفهام وتعددها في مطلع الرسالة، جاء بمنزلة توطئة وتمهيد للحديث عن موضوع الحسد بالتفصيل، حيث تبرز فيه كل جزئية من جزئياته، وتكشف عما يريد بيانه والتحدث عنه، فهي من الابتداءات الحسنة التي توضح الغرض بدقة وجلاء، كما تشير إلى منهج بحثي فعال يقوم على إثارة المشكلة أولًا، ثم البحث عن تفسير يوضحها ويكشف غامضها.

وقد قام الجاحظ ببسط الحديث أثناء تناول عناصر موضوعه، وتوضيحه لأبعاده، وصوره المختلفة، وأقصد ببسط الحديث هنا، تفصيل

المعنى المقصود وتقليبه، على جميع صوره؛ لاستيفائه واستقصاء جوانبه، مع توضيح الصورة وكشف خوافيها، حتى تبرز واضحة جلية، فتستقر في القلب، وتتمكن من النفس كما أرادها، وقد أشار الإمام عبد القاهر إلى ذلك حيث جعل "أنس القلوب أن تخرجها من خفي إلى جلي"(١)، بما يوضح الغرض، ويكشف المعنى.

وقد كان الجاحظ بارعًا في تفصيل ما أجمل، وكشف ما أراد، إذ بدأ حديثه عن الحسد بالسؤال عن ماهيته ما هو؟ ومن أين هو؟

ومما ورد في بيان معناه في كتب اللغة ما ذكره ابن منظور، يقال:" حَسَدَه إذا تَمَنَّى أَن تَتَحَوَّلَ إليه نِعْمَتُهُ وَفَضِيلَتُهُ أَو يُسْلَبَهُمَا هُوَ"(٢).

كما فُسِّر بأنه "ثوَران النفس لغير الحق، وحقد دفين في الصدور، وغلٌّ كامن في دواخل النفس، ولؤم مستور في القلب، كلها سهام مصوَّبة نحو الفضيلة، التي تستحيل على الحاسد أن ينالها، أو يرقى إلى محاسنها، أو يتحلَّى ببعض صفاتها، فهو انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمنِّي زوالها، وسواء أَتْبَع الحاسد هذا الانفعال بسعيٍ منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ، أو وقف عند حدِّ الانفعال النفسي، فإن شرًّا يمكن أن يَعقُب هذا الانفعال"(٣).

وقد أورد الجاحظ له تعريفًا آخر يكشف طبيعته ويبين أثره، فهو عنده "داء ينهك الجسد، ويفسد الودّ، علاجه عسر، وصاحبه ضجر، وهو باب غامض وأمر متعذّر، وما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه في

(١) أسرار البلاغة : للإمام عبد القاهر الجرجاني، ص ١٢١، تحقيق شاكر ،ط الاولى ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

(٢) لسان العرب: لابن منظور ، مادة : (حسد).

(٣) إرشاد العباد في كشف مثالب الحسد والحساد : لعلي محمد سلمان العبيدي ص ٩.

عناء"، فالحسد داء خبيث، يجمع كل خلق ذميم، وأمر قبيح، فهو أخس الطباع وأشدها ضررًا، شبهه بالداء في قوله: "داء ينهك الجسد، ويفسد الودّ"، وهو تشبيه بليغ [١] يوضح أثر الحسد وما يسببه من أذى بدني ونفسي، فلا يصح معه بدن، ولا يُبقي ودّ لصاحب أو قريب، وهنا حذفت الأداة وأتى "التشبيه بغير كاف ولا شيء من أخوتها، فجاء كأنه إيجاب وتحقيق"[٢]، وفائدته تكمن في" تقريب المشبه من فهم السامع، وإيضاحه له"[٣]، حتى يعلم حقيقته وتتضح صفته، وكل من فعلي المضارعة (يُنْهك) و(يُفْسد) يشيران إلى تجدد تلك الأحوال واستمرارها٠

كما أخبر عن الحسد وصاحبه بأن (علاجه عسر، وصاحبه ضجر)؛ لأنه داء عضال لا يقدر عليه إلا صاحب همة عالية، ورغبة صادقة قوية، ووصف صاحبه بأنه (ضجر)؛ لأنه لا راحة لنفسه ولا صحة لبدنه، والجملة الاسمية دلت على ثبوت الصفة ودوامها، فالحاسد دائم الضجر لا يصفو أبدا، كما ختم الجاحظ القرينة الأولى بلفظي (الجسد– الود)، وهو من السجع المطرف، لتشابه الفاصلتين في الحرف الأخير، وختم الثانية بلفظي (عسر–

(١) " إطلاق وصف البليغ على التشبيه الذي حذفت منه الأداة طريقة لبعضهم، وذهب آخرون إلى أن التشبيه البليغ هو ما كان بعيدًا غريبًا، ذكرت الأداة فيه أو لم تذكر" (المنهاج الواضح للبلاغة: المؤلف: حامد عونى:٩٣/١،الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث) بدون تاريخ٠

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني (المتوفى: ٤٦٣ هـ)،٢٩٢/١، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م٠

(٣) المرجع السابق : ٢٩٠/١.

ضجر) وهو من المتوازي، لتوافقهما في الوزن والروي معا، وهو تنويع يجذب الانتباه ويبعد الملل عن المخاطب.

ومن صفات الحسد التي ذكرها الجاحظ أيضًا قوله: (وهو باب غامض وأمر متعذّر، وما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه في عناء)، فيقرر عن طريق الأسلوب الخبري غموض ذلك الداء، والمشقة في فهم طبيعته، على الرغم من تجاربه الكثيرة، وخبرته الواسعة، وحذف المسند إليه من الجملة الثانية، والتقدير (وهو أمر متعذر) لدلالة ما قبله عليه، مع الاحتراز عن العبث والتطويل، وبين كل من لفظي (غامض– متعذر) مراعاة نظير تؤكد خفاءه وعدم وضوح أمره، والطباق بين (ما ظهر– وما بطن)؛ يثبت تعذر مداواته في جميع حالاته، فظاهره ميؤوس منه، وباطنه يعاني مداويه، ولفظ (العناء) يكشف مقدار ما يجد من يبطن الحسد من مشقة في مداواته، أو مداراته، وتكرار (من) البيانية وإضافتها لضمير الحسد، لتأكيد تعذر مداواته في جميع حالاته، وقد وصل الجاحظ بين تلك الجمل (بالواو)؛ للتوسط بين الكمالين؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى، وعدم المانع من الوصل.

وقد استشهد الجاحظ لإثبات رأيه هذا بنصين، أحدهما حديث النبي ﷺ حيث قال:" دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ"(١)، بما يوضح الثقافة الدينية التي يتحلى بها الجاحظ، ومدى انعكاسها على فكره وأدبه، وقد ورد الحديث بالأسلوب الخبري لتقرير الفكرة وإثبات مضمونها، ولفظ (دَبَّ) يوحي

(١) تكملة لحديث قوله ﷺ "هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"، (تم تخريجه مسند الإمام أحمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م).

بطبيعة ذلك المرض الخبيث الذي يتسلَّل إلى قلب الحاسد، فيتمكن منه من غير أن يشعر به، يقال: "(دَبَّ) النَّمْلُ وغَيْرُه ...أَي (مَشَى على هِينَتِهِ) وَلم يُسْرِعْ"(١).

وقدم الجار والمجرور (إليكم) للعناية، والدلالة على أنه المقصود الأهم، وإضافة الداء إلى للأمم السابقة للإشارة إلى أنه غير مختص بأمة دون أخرى، ولا بزمان دون آخر، فهو داء كل الأمم، ومرض كل الأزمان، والتعبير بالماضي (دَبَّ) لإثبات وحصوله بينهم، وفصل جملة (الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ) عما قبلها للاستئناف البياني؛ لكونها جوابا عن سؤال فهم من الجملة الأولى تفسيره: وما هو؟ أو وما ذاك؟ وحذف المسند إليه –هو– للإسراع إلى المقصود من الخبر، وعطف عليه (البغضاء) لمشاركته الحكم، مع الإيجاز في العبارة.

كما استدل الجاحظ على إثبات رأيه أيضاً بقول أحد العارفين: (قال بعض الناس لجلسائه: أيّ الناس أقلّ غفلة؟ فقال بعضهم: صاحب ليل، إنّما همّه أن يصبح. فقال: إنّه لكذا وليس كذا. وقال بعضهم: المسافر، إنّما همّه أن يقطع سفره، فقال: إنه لكذا وليس كذا. فقالوا له: فأخبرنا بأقلّ النّاس غفلة. فقال: الحاسد، إنّما همّه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها، فلا يغفل أبدا).

والاستفهام في " أيّ الناس أقلّ غفلة؟"؛ لحث السامعين على التفكر والبحث؛ لمعرفة أقلهم غفلة، حتى يتضح لهم مَنْ يكون، وما صفته؟

وقد تعددت الأجوبة في ذلك كل حسب خبرته وعلمه، فمنهم من قال أنه " صاحب ليل، إنّما همّه أن يصبح. فقال: إنّه لكذا وليس كذا"، وحذف

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، مادة (دبب) .

المسند إليه وتقديره "هو" أو "أقل الناس غفلة"؛ للاختصار والاحتراز عن العبث للعلم به[١]، وكنى بـ(صاحب ليل) عن المسهد المهموم الذي تراكمت همومه، وتكدست أفكاره، فجافاه النوم، وهو دليل على كثرة ما أصابه من هم أضناه، جعل ليله يطول، وفكره لا يزول إلا بزواله، لذا قصر همه على زوال الليل وظهور ضوء النهار، مستخدمًا القصر بـ(إنما) فقال: (إنما همه أن يصبح) وهو من قصر الموصوف على الصفة قصرًا حقيقيا ادعائيا، يؤكد على أن صاحب الهم ليس له رجاء سوى زوال ليله؛ لانكشاف همه، وطابق بين لفظي (ليل–ويصبح) للدلالة على اختلاف الحال في كل منهما، فالليل محل للظلام وتراكم الهموم، فكل ما فيه معتم، أما النهار فهو وقت الإشراق والنور فيزيل بضوئه السواد ويكشف الهموم، ويشعر بالأمن والأمل٠

ولكن السائل هنا لا يرى ما أجابوه موافقا لقصده، فقال– (إنه لكذا، وليس كذا)، معبرا عن ذلك بخبرين، أحدهما مثبت مؤكد بكل من (إن، واللام، والجملة الاسمية)، مبينا صفته، والآخر ينفي أن يكون من يقصده، وهو كناية عن خطئهم، وأنه غيره٠

ثم يأتي برأي آخر بقوله: (وقال بعضهم: المسافر، إنّما همّه أن يقطع سفره، فقال: إنه لكذا وليس كذا)، وفي الجملة ما في سابقتها من حذف المسند إليه، والقصر بـ(إنما)، والإخبار بأنه غيره، أما وقد عجزوا عن معرفته (فقالوا له: فأخبرنا بأقلّ النّاس غفلة)، والفاء للتعقيب، والأمر للالتماس٠

(١) الإيضاح في علوم البلاغة: للخطيب القزويني، ٤/٢، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي٠

فأجابهم: (فقال: الحاسد، إنّما همّه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها، فلا يغفل أبدا)، والفاء تدل على سرعة الإجابة، وحذف المسند إليه؛ للإسراع إلى معرفة المقصود، والتقدير: (هو الحاسد)، ويوضح سبب كونه (أقلهم غفلة) عن طريق القصر بـ(إنما)، إذ ليس للحاسد هم سوى أن ينزع الله –سبحانه– النعمة التي أعطاها للمحسود فلا يغفل عنها أبدًا حتى تزول، ولا تزول إلا بأمر الله وإرادته، لا بحرص الحاسد ورغبته، لذا هو دائم الانتباه لها، لا يغفل عنها أبدا ما بقيت بصاحبها، فالمقصود بعدم الغفلة هنا دوام المراقبة، والمتابعة لنعمة المحسود، بما يعكس شعور الحاسد، ويصور ما في نفسه، ورغبته الملحة في زوال النعمة عن المحسود، فهو شديد الانتباه لها، دائم المراقبة، غير غافل عنها، تستحوذ على عقله وقلبه، لا يغفل عنها حتى ينالها، ولن ينالها، لذا كان (أقل) الناس غفلة بصيغة (أفعل) الدالة على التفضيل.

وعبر عن هذا المعنى بالقصر بطريق (إنما)؛ لجلائه وظهوره، فقد ذكر الإمام السكاكي في كتابه أن "الأصل في إنما أن تستعمل في حكم لا يعوزك تحقيقه، إما لأنه في نفس الأمر جلي، أو لأنك تدعيه جليا"(١).

وتكرار نفي الغفلة للتأكيد، والتعبير بـ(أبدًا) للدلالة على استمرارها، كما أن لفظ (النزع) يوحي بتمكن النعمة وشدة التصاقها بصاحبها، لذا كان فاعل

(١) مفتاح العلوم: لأبي يعقوب السكاكي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، ص٢٩٤، علق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

ذلك هو الله–سبحانه– فقال (ينزع الله)، فهو وحده القادر على النزع أو الإعطاء.

ثم يذكر الجاحظ رواية للحسن البصري يوضح فيها إفساد الحسد للدين عن طريق التشبيه التمثيلي، بقوله: (يروى عن الحسن أنه قال: الحسد أسرع في الدّين من النار في الحطبِ اليابس)، حيث يصور سرعة إفساد الحسد للدين، بسرعة انتشار النار في الحطب اليابس، وفيه إيجاز بحذف الصفة، والتقدير: (من إسراع النار في الحطب) و(مِن) هنا بيانية، وصيغة التفضيل (أسرع) تبين مقدار الصفة، ووصف الحطب بـ (اليابس)، لجعله أشد سرعة وأكثر انتشارا، وهو إيغال[١] حسن به التشبيه لما فيه من البيان، إذ زاد به المعنى تأكيدًا ووضوحًا؛ لأن تصويرَ المعنى الخفي غير المحسوس بالظاهر المحسوس يزيد من وضوح الصورة وبيان مقدارها، " فيكون حسن هذا لأجل إيضاح المعنى وبيان مقصوده، أو يمثل الشيء بما هو أعظم وأبلغ منه، فيكون حسن ذلك لأجل الغلو والمبالغة"[٢].

وبعد أن وضح الجاحظ للمخاطب حقيقة الحسد وصفته، مستخدما كل الأساليب والألفاظ التي تكشف صورته، وتقربها للأذهان، أخذ في كشف سبب الحسد والدافع إليه.

---

(١) الإيغال: "هو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه؛ ثم يأتى بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحا وتوكيدا وحسنا"، (كتاب الصناعتين: لأبي هلال العسكري ، ص ٣٨٠ .

(٢) سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: ٤٦٦هـ)، ص ٢٤٦، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م.

ثانياً: **سبب الحسد**:

يقول الجاحظ مبينا السبب الدافع إلى الحسد: [وما أتي المحسود من حاسده إلّا من قبل فضل الله عنده ونعمه عليه، قال الله عزّ وجلّ: **﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آَتَيْنَا آَلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾**.

والحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل، وضدّ الحقّ، وحرب البيان، فقد ذمّ الله أهل الكتاب به فقال: **﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾** [(١)].

وهنا يقرر الجاحظ سبب الحسد وصفته، مستخدما طريق القصر بالنفي والاستثناء بقوله: (وما أتي المحسود من حاسده إلّا من قبل فضل الله عنده ونعمه عليه)، فهو لا يري للحسد سوى سبب واحد، هو ما أفاض الله- سبحانه- على المحسود من فضل، ومَنَّ عليه مِنْ نعم، ضاق بها صدر الحاسد فَكَرِه وجودها، وتمنى زوالها، مؤكدًا معناه بطريق النفي والاستثناء؛ لأنه أقوى طرق القصر، و"لأن القصر من أسباب التأكيد، ولما كان النفي صريحًا في "الاستثناء" كان التأكيد أقوى"[(٢)]، وعلل الإمام عبد القاهر تلك الدلالة بقوله:" وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: "ما هذا إلا كذا"، و "إن هو إلا كذا"، فيكون لما يُنْكِرهُ المخاطَبُ ويَشُكُّ فيه"[(٣)]، فهو يأتي في مقام الإنكار

(١) الرسائل الأدبية: ص١١٦،١١٧.

(٢) المنهاج الواضح للبلاغة: لحامد عوني، ٨١/٢، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث

(٣) انظر دلائل الإعجاز: للإمام عبد القاهر، ص٣٣٢.

أو الشك الذي يحتاج إلى زيادة التأكيد، سواء كان ذلك من المخاطب، أو بسبب رغبة المتكلم زيادة التأكيد، لقوة المعنى في نفسه، ولذلك نجد الجاحظ زاد معناه إثباتا بذكر كل من الظرف (عنده)، والجار والمجرور(عليه)، واشتمال كل منهما على ضمير المحسود، ليؤكد اختصاصه بتلك النعم التي هي سبب حسده.

كما استدل الجاحظ على إثبات معناه أيضًا بقول الله عزّ وجلّ: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا** ﴾[النساء: آية (٥٤)]، فقد وضحت الآية الكريمة أن عطاء الله وفضله على من اختصه من العباد، هو سبب لحسد ذوى النفوس الخبيثة والإيمان الضعيف، الذين لا يشعرون بما هم فيه من نعمة، فقد آتاهم الله نعمًا غفلت عنها قلوبهم، ولم تدركها أبصارهم.

وقد ذكرهم المولى –سبحانه وتعالى– بها، حتى ينصرفوا عن حسد غيرهم؛ لأن النفس تغفل عن نعمها، ولا تغفل عن نعم غيرها، فأمرهم بتفكر نعم الله عليهم.

ويفسر ابن عاشور ذلك بقوله: " الْحِسَّ هُوَ أَصْلُ الْمَعْلُومَاتِ فَإِذَا رَأَى الْحَاسِدُ نِعَمَ الْغَيْرِ نَسِيَ أَنَّهُ أَيْضًا فِي نِعْمَةٍ، فَإِذَا أُرِيدَ صَرْفُهُ عَنِ الْحَسَدِ ذُكِّرَ بِنِعَمِهِ حَتَّى يَخِفَّ حَسَدُهُ، فَإِنَّ حَسَدَهُمْ هُوَ الَّذِي حَالَ دُونَ تَصْدِيقِهِمْ بِهِ"(١).

ومما ورد في معنى الآية ما ذكره الطبري "عن قتادة قال: هم اليهود، لما بعث الله نبيه محمداﷺ فرأوا أنه بعث من غيرهم، كفروا به – حسدا

(١) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، ٤٥٢/١، الناشر: الدار التونسية للنشر – سنة،النشر ١٩٨٤هـ.

للعرب – وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ، يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة"[١]، والآية تعريض ببني إسرائيل بأنهم حاسدون للنبي والعرب فيما آتاهم الله من الكتاب والحكمة، ببعثة سيدنا محمد ﷺ وانتقال النبوة من بني إسرائيل إلى العرب، وهو إنكار لحسدهم وتهكم بهم٠

وقيل :" يعني به النبي ﷺ كانت اليهود قد حسدته على ما آتاه اللَّه من النبوة، وهم قد علموا أن النبَوةَ في آل إبراهيم، فقيل لهم: أتحسدون النبي ﷺ وقد كانت النبوة في آله وهم آل إبراهيم (عليهما السلام)"[٢]٠

وجاء التعبير الكريم بلفظ (الناس) وهو لفظ عام يشمل جميع ولد آدم والمقصود مخصوص وهم العرب، أو شخص النبي ﷺ، على طريق المجاز المرسل، والعلاقة العموم، حيث أطلق العام وأراد الخاص، والقرينة حالية، ولأن اليهود "إذا كرهوا ما أنزل على النبي ﷺ فقد حسدوا الناس بما أولاهم كمال الإنسانية، وفيه تنبيه أنهم خارجون عن جملتهم، ونبّه أنه كما آتاهم الفضل فقد آتى آل إبراهيم –عليه السلام–ما ذكره، وأنه لو كان ما آتى محمدًا ﷺ يقتضي أن يحسد عليه، فما آتى آل إبراهيم أولى بذلك، فيكون الكتاب والحكمة راجعًا إلى ما أوتي موسى وعيسى –عليهما السلام – وغيرهما"[٣]، وتعريف (الكتاب) في الآية للجنس ، حيث يشمل جنس ما أنزل من الكتب على الأنبياء والرسل٠

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: لابن جرير الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، ٣٤٤/٢، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م٠

(٢) معاني القرآن وإعرابه: لأبي إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١)٦٤/٢، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨، ١٩٨٨م .

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني، (المتوفى: ٥٠٢هـ):٣/ ١٢٧٦، ١٢٧٧، تحقيق ودراسة: د. عادل بن علي الشِّدِي الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م، دار النشر: دار الوطن – الرياض٠

وهذا النوع من الحسد ذمَّه المولى- سبحانه وتعالى- " وَإِنَّمَا كَانَ مَذْمُومًا؛ لِأَنَّ فِيهِ تَسْفِيهٌ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-، وَأَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ"(١).

ثم ينتقل الجاحظ إلى وصف الحسد بالعديد من الصفات الموضحة والكاشفة، لحقيقته بواسطة الأسلوب الخبري الذي يقرر الفكرة، بقوله: (والحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل، وضدّ الحقّ، وحرب البيان، فقد ذم الله به أهل الكتاب) وهنا اكتفي الكاتب بذكر المسند إليه في أول الكلام، ثم حذفه من بقية الجمل، لدلالة السياق، والتقدير (والحسد حليف الباطل.....الخ)، فالحذف لكراهة التكرار، مع الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر.

وبالنظر إلى تلك الجمل نجد الجاحظ قد صور الحسد بالعديد من الصور التي توضح صفته وتكشف ماهيته بدقة، حيث جعله عن طريق الاستعارة المكنية (عقيد الكفر)،"والعَقِيدُ: الحَلِيفُ؛ قَالَ أَبو خِرَاشٍ الْهُذْلِيُّ:

كَمْ مِن عَقِيدٍ وجارٍ حَلَّ عِنْدَهُمُ ∴ ومِن مُجارٍ بِعَهْدِ اللهِ قَدْ قَتَلُوا(٢)

"يقال: "فُلَان عَقيد بني فلَان، إِذا كَانَ حليفهم"(٣)، صورت الاستعارة الحسد وهو شيء معنوي وأخرجته في صورة حسية، تكشف حقيقته، وتبين صفته، حيث جعلت كُلًّا من الحسد والكفر أشخاصًا، عُقِد بينهم حلف أو اتفاق، وأكده بقوله : (حليف الباطل)، فجمع بين الحسد والكفر والباطل في التحالف على إهلاك الإنسان في الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير القرطبي:٢/٧١,٧٠ تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار المصرية، القاهرة، ط : الثانية ، ١٣٨هـ- ١٩٦٤م.

(٢)لسان العرب: مادة (عقد).

(٣) جمهرة اللغة: لابن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، ط: الأولى، ١٩٨٧م، مادة (عقد).

"قَالَ ابْنُ الأَثير: أَصل الحِلْفِ المُعاقدةُ والمُعاهَدَةُ عَلَى التَّعاضُدِ و التساعُدِ والاتِّفاقِ،"[١]، و"كلُّ شَيْءٍ لَزِمَ سَبَباً فَلم يُفَارِقْهُ فَهُوَ حَلِيفُهُ، حَتَّى يُقَالَ: فُلانٌ حَلِيفُ الجَودِ، وحَلِيفُ الإِكْثَارِ، وحَلِيفُ الإِقْلالِ، وأَنْشَدَ قَوْلَ الأَعْشَى:

وشَرِيكَيْنِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَا ... لِ وَكَانَا مُحَالِفَيْ إِقْلاَلِ"[٢]

وجعله الجاحظ مع الكفر عقيدا لشدة ما بينهما من الامتزاج والاختلاط، أما مع الباطل فهو حليفه، والكفر أشد ضررا٠

ومن الصفات التي أقرها الجاحظ ووصف بها الحسد أيضًا أنه (ضد الحق)، و" الضِّدُّ : كلّ شيءٍ ضادَّ شيئًا ليغلبَه"[٣]، "والمتضادان: شيئان لا يجتمعان كالليل والنهار"[٤]، فلا يجتمع الحق والحسد ألبتّة، فلكل منهما طريق وهدف٠

وقال (ضد الحق) ولم يقل (نقيضه)، "لأَن التَّنَاقُض يكون فِي الْأَقْوَال، والتضاد يكون فِي الْأَفْعَال، يُقَال الفعلان متضادان، وَلَا يُقَال: متناقضان، فَإِذا جعل مع القول اسْتعْمل فِيهِ التضاد فَقيل: (فعل زيد يُضاد قَوْله) وَقد يُوجد النقيضان من القَوْل، وَلَا يُوجد الضدان من الْفِعْل"[٥]٠

---

(١) اللسان: مادة (حلف)٠

(٢) تاج العروس: مادة (حلف) ٠

(٣)كتاب العين: للخليل بن أحمد (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار الهلال، مادة (ضد)٠

(٤) مجمل اللغة : لابن فارس (المتوفى: ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م ، مادة (ضد).

(٥) الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، ص ٤٤، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر٠

كما صور الحسد أيضًا بأنه (حرب البيان) وهي استعارة مكنية، جعلت كلًا من الحسد والبيان أعداءً متحاربين، ليس بينهما ود أو اتفاق، يقال:" فُلَانٌ حَرْبٌ لِفُلَانٍ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا تَبَاعُدٌ"(١)، وهي تكشف طبيعة الحسد وصفته، حيث يحمل الحاسد على الكذب أو النفاق، ويجعله يفصح عكس ما يضمر، فقد يظهر للمحسود المحبة والنصح، ويضمر الحقد والكره، وبلاغة الاستعارة تكمن في الإيجاز في التعبير عن المقصود، وهو غَرَضٌ من أغراضها، يقول الإمام عبد القاهر موضحا تلك الفائدة "ألا ترى أنك تُفيد بالاسمِ الواحدِ الموصوفَ، والصفةَ، والتشبيهَ، والمبالغةَ"(٢)، إلى جانب دلالته على كذب الحاسد ونفاقه، وقد وصل الجاحظ بين تلك الجمل (بالواو) للتوسط بين الكمالين، لاتحادهما في الخبرية والاسمية، وعدم المانع٠

ثم يستشهد الجاحظ بآية أخرى من القرآن الكريم في ذمّ أهل الكتاب، لحسدهم المؤمنين على ما منَّ الله عليهم من الإيمان في قوله سبحانه: **﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾**[البقرة آية (١٠٩)]، والآية تتحدث عن حسد اليهود، ورغبتهم رَدِّ من أسلم عن إسلامه٠

والمراد بـ: (**لَوْ يَرُدُّونَكُمْ**) أن يردوكم، فإن (لو) تنوب عن (أن) في المعنى دون اللفظ: **﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ﴾**مرتدين، وهو حال من ضمير المخاطبين، و(حَسَدًا) علة (وَدَّ)٠

(١) اللسان: مادة (حرب)٠

(٢) أسرار البلاغة: لعبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ)، ص٢٣٩ ٠

وقوله: **(مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ)** يجوز أن يتعلق بودَّ، أي تمنوا ذلك من عند أنفسهم وتشهيهم، لا من قبل التدين والميل مع الحق، أو حسداً بالغاً منبعثاً من أصل نفوسهم، مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ بالمعجزات والنعوت المذكورة في التوراة"[(١)]، وهو ما أكده بمن الابتدائية وكلمة (عند) الدالة على التمكن والاستقرار، لكونها ظرف مكان[(٢)].

وتكرار استدلال الجاحظ بالكتاب الكريم يؤكد حرصه على تضمين أدبه الآيات التي تثبت فكرته، وتقوي حجته.

وبعد أن ذكر الجاحظ سبب الحسد مستدلا على صحته بآيات من الكتاب الكريم، شرع في بيان ما ينتج عنه من عواقب وآثار.

ثالثاً: عواقب الحسد وآثاره:

يقول الجاحظ مبينا ذلك: [منه تتولد العداوة، وهو سبب كلّ قطيعة، ومنتج كلّ وحشة، ومفرّق كلّ جماعة، وقاطع كلّ رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرّق بين القرناء، وملقح الشرّ بين الخلطاء، يكمن في الصدر كمون النّار في الحجر.

ولو لم يدخل على الحاسد بعد تراكم الغموم على قلبه، واستمكان الحزن في جوفه، وكثرة مضضه ووسواس ضميره، وتنغّص عمره، وكدر نفسه، وكد عيشه، إلّا استصغاره نعمة الله عليه، وسخطه على سيّده بما أفاد غيره، وتمنّيه عليه أن يرجع في هبته إيّاه، وأن لا يرزق أحدا سواه، لكان عند ذوي

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للبيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، ص ١٠٠، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ.

(٢) الأصول في النحو: لابن السراج (المتوفى: ٣١٦هـ)، ٢٩٢/٢، المحقق: عبد الحسين الفتلي، نشر: مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت.

العقول مرحوما، وكان لديهم في القياس مظلوما، وقد قال بعض الأعراب: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد: نفس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم، والحاسد مخذول وموزور، والمحسود محبوب ومنصور، والحاسد مغموم ومهجور، والمحسود مغشيّ ومزور][(١)].

وهنا يبدأ الجاحظ حديثه بالأسلوب الخبري الذي يقرر عواقب الحسد وأثاره على كل من الحاسد والمحسود، يقول: (منه تتولد العداوة) و الضمير يعود إلى الحسد، وهو معلوم لتقدم ذكره، وقدم مع حرف الجر لإفادة الحصر مبالغة، فهو من القصر الحقيقي الادعائي، وكأن الحسد هو الأصل الذي تنبع منه كل العداوات والأحقاد، و(اللام) في (العداوة) (لام) الحقيقة أو الجنس[(٢)]، والتعبير استعارة مكنية، تصور الحسد وهو معنى بمن يأتي منه الولادة، في بيان ما ينتج عنه، وقال (تتولد) ولم يقل (تولد) للدلالة على التكرار والكثرة، فقد ورد عن علماء اللغة أن زيادة المبنى تدل على زياد المعنى، فقولهم "والتبيان كما قاله الخطابي أبلغ من البيان؛ لأنه بيان مع دليل وبرهان، فهو جار على الأصل من زيادة المعنى لزيادة المبنى"[(٣)]، و"قال ابن جني: كل حرف زيد في كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى"[(٤)].

---

(١) الرسائل الأدبية:ص١١٦،١١٧.

(٢)" ولام الحقيقة: هي التي يراد بمدخولها الحقيقة من حيث هي... وتسمى لام الجنس والطبيعة.... والمراد من الحقيقة هنا ما يفهم من اللفظ" شرح: د/ محمد عبد المنعم خفاجي على (الإيضاح)،٢/٣٠ .

(٣) حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك،: ١/٤، لأبي العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (المتوفى: ١٢٠٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ –١٩٩٧م٠

(٤) الجنى الداني في حروف المعاني: للمرادي (المتوفى: ٧٤٩هـ)، ص٨٨ ٠

كما عرفه بالضمير في قوله: (وهو سبب لكلّ قطيعة)؛ لتأكيد اختصاصه بما بعده من أخبار، ولفظ (كل) مع تنكير (قطيعة) للدلالة على العموم، فلا تخلوا قطيعة من حسد، كما شخصه عن طريق الاستعارة بالكناية فجعله (منتج كلّ وحشة، ومفرّق كلّ جماعة، وقاطع كلّ رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرّق بين القرناء، وملقح الشرّ بين الخلطاء)، وكأن الحسد في ذلك وهو معنى، شخص طبع على إحداث التفرقة، وإثارة والعداوة بين الناس، وخص كل من (الأقرباء، والقرناء، والخلطاء)، لقوة الصلة بينهم، وعبر بصيغة الاسم (قاطع، ومحدث، وملقح)، للدلالة على ثبوت تلك الصفات ودوامها، وتكرار (كل) لتأكيد العموم، فلا تحدث تفرقة أو قطيعة إلا كان الحسد دافعًا لها، وسببًا فيها، وهي مبالغة من الجاحظ، غرضها التنبيه على خطورة الحسد على الروابط والصلات بين الأفراد والجماعات.

كما صوره بصورة أخرى، أكثر وضوحا، وأشد تأثيرًا، عن طريق التشبيه التمثيلي بقوله: (يكمن في الصدر كمون النّار في الحجر)، فشبه الحسد وما يفعل بالحاسد من حقد وغيظ يجعل قلبه يشتعل نارًا لا تهدأ، بالحجر الموقد في النار الحمئة، الذي تمكث فيه النار زمنًا طويلا، فيتأذى كل من لامسه وهو لا يدرى شأنه، وفائدة التشبيه تكمن في "أنك إذا مثلت الشيء بالشيء، فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو معناه، وذلك أوكد في الترغيب فيه، أو التنفير منه"[(١)]، ووصل الجاحظ بين تلك الجمل (بالواو) لاتفاقها في الخبرية لفظا ومعنى، مع تنوع المعطوف بها.

وقد استخدم الجاحظ في تلك الفقرة كل من الألفاظ المعبرة، والأساليب الموحية بما أراد من معانٍ وصورٍ في كل من: (تتولد ، العداوة ، قطيعة،

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لضياء الدين بن الأثير ٢/٩٩ .

وحشة، مفرق، قاطع ، محدث التفرقة، ملقح الشر، كمون النار، الحجر) فجميعها تؤكد مقصوده، وتثبت فكرته، بما يوضح حقيقة الحسد، وأثره على الفرد والجماعة.

وقد بنى الجاحظ تلك الفقرة على كل من الاستعارة المكنية، والتشبيه، والوصل بين الجمل، مع التخصيص بالتقديم.

ثم يبين الجاحظ سبب كراهة الحاسد ما يراه من نعم على المحسود بقوله: (ولو لم يدخل على الحاسد بعد تراكم الغموم على قلبه، واستمكان الحزن في جوفه، وكثرة مضضه، ووسواس ضميره، وتنغّص عمره، وكدر نفسه، وكد عيشه، إلّا استصغاره نعمة الله عليه، وسخطه على سيّده بما أفاد غيره، وتمنّيه عليه أن يرجع في هبته إيّاه، وأن لا يرزق أحدا سواه)، فيوضح فعل الحسد وسببه بجملة من الكنايات، التي تبين كراهية الحاسد للنعمة التي اختص بها المولى –سبحانه– المحسود، وتمنيه زوالها، أو استئثاره بها دونه، وتلك أخبث الصفات وأحطها، لذا جعلها الجاحظ (عقيد الكفر)، لعدم رضا الحاسد بما قسم الله له ولغيره.

كما دمج الكاتب بين أسلوبي الشرط والقصر في قوله: (ولو لم يدخل على الحاسد ....إلّا استصغاره نعمة الله عليه....لكان عند ذوي العقول مرحوما، وكان لديهم في القياس مظلوما،) فـ(لو) أداة شرط[١] تفيد "تعليق حصول مضمون الجزاء بحصول مضمون الشرط فرضًا"[٢]، وأتى بطريق

---

(١)"(لو) للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط فيلزم انتفاء الجزاء....ولذلك قيل هي لامتناع الشيء لامتناع غيره، ويلزم كون جملتيها فعليتين وكون الفعل ماضيًا، فدخولها على المضارع في نحو قوله تعالى: {لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّم} ، لقصد استمرار الفعل فيا مضى وقتًا فوقتا"، (الإيضاح في علوم البلاغة: ١٢٦,١٢٥/٢ للخطيب القزويني).

(٢) حاشية الإيضاح في علوم البلاغة: ١٢٥/٢، للخطيب القزويني.

النفي والاستثناء؛ لأن المقام مقام سخط، يستلزم الزجر بنبرة عنيفة وقوية، يقول السكاكي[١] في المفتاح: "ما من موضع يأتي فيه النفي والاستثناء إلا والمخاطب عند المتكلم مرتكب للخطأ مع إصرار، إما تحقيقا إذا أخرج الكلام على مقتضى الظاهر، وإما تقديرا إذا أخرج لا على مقتضى الظاهر، كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ** ﴾ [فاطر: الآية (٢٢،٢٣)]٠

وأتى بجملة من الكنايات عن صفة في كل من قوله: (تراكم الغموم على قلبه[٢]) فهي كناية عن كثرتها وثقلها، و(استمكان الحزن في جوفه)،كناية عن سيطرته، وتغلبه علي صاحبه، والتعبير بلفظ (الاستمكان) بزيادة (الألف والسين والتاء) وهي للطلب، لتأكيد تمكن الحزن من الحاسد، وكأنه بغيته وطلبه٠

كما كنى بـ (كثرة مضضه[٣]) عن حسرته وحرقة قلبه، وبـ (ووسواس ضميره) عن سوء ظنه وخبث نفسه فـ"أصل الوسوسة الصَّوْت الْخَفي"[٤] وهو "مَرَضٌ يَحْدُثُ مِنْ غَلَبَةِ السَّوْدَاءِ يَخْتَلِطُ مَعَهُ الذِّهْنُ وَيُقَالُ لِمَا يَخْطُرُ بِالْقَلْبِ

(١) مفتاح العلوم: للسكاكي ، ص٢٩٤.

(٢)"غَمَّهُ: غَطَّاهُ وَمِنْهُ قِيلَ لِلْحُزْنِ غَمٌّ لِأَنَّهُ يُغَطِّي السُّرُورَ" (المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: لأبي العباس الحموي، (المتوفى:٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، مادة (غمم) ٠

(٣) "المَضُّ: الحُرْقةُ. مَضَّني الهَمُّ والحُزْنُ وَالْقَوْلُ... وأَمَضَّني: أَحْرَقَني وَشَقَّ عَلَيَّ"(لسان العرب :(مادة مضض))٠

(٤) الفروق اللغوية: ص ٦٧.

مِنْ شَرٍّ وَلِمَا لَا خَيْرَ فِيهِ"[١]، وكنى بكل من (تنغّص[٢] عمره، وكدر[٣] نفسه، وكد [٤]عيشه) عن شقائه وعدم رضاه٠

وقد قصر الجاحظ سبب ذلك كله على: (استصغاره نعمة الله عليه، وسخطه على سيِّده بما أفاد غيره)، وهو من قصر الموصوف على الصفة ادعاء، للمبالغة في عدم رضا الحاسد بما قسم الله له من عطاء، فهو بفعله هذا منكر لنعم الله عليه، جاحد لها، مسيء للأدب مع الله –سبحانه–، وفيه يقول الشاعر[٥]:

أَيَا حَاسِدًا لِي عَلَى نِعْمَتِي ∴ أَتَدْرِي عَلَى منْ أَسَأْتَ الأَدَبْ
أَسَأْتَ على اللهِ في حُكمِهِ ∴ لأنكَ لـــمْ تَرضَ لِي مَا وهَبْ
فأَخْزَاكَ ربّي بِـــأَنْ زَادَني ∴ وسَدَّ عـــليكَ وجُوهَ الطلبْ[٦]

---

(١) المصباح المنير: مادة (وسوس)٠

(٢) يقال "تنّغص عليه عيشه إذا قطع عليه مراده" (أساس البلاغة: الزمخشري، مادة (نغص) ٠

(٣) "الكَدَرُ: نقيض الصَّفاء"، (تهذيب اللغة: لأبي منصور الهروي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م٠ مادة: (كدر)).

(٤)"الكدّ: الشدَّة فِي الْعَمَل، وَطلب الْكسْب...، والكد: الإلحاح فِي الطّلب"، تهذيب اللغة مادة(كد)٠

(٥) نسبت الأبيات إلى "منصور الفقيه" في (مجاني الأدب في حدائق العرب: لرزق الله بن يعقوب شيخو (المتوفى: ١٣٤٦هـ)،٤٦/١، ط ١٩١٣ م، كما نسب إلى "المعافي بن زكريا النهرواني" في (غرر الخصائص الواضحة: لأبي إسحق الوطواط (المتوفى: ٧١٨هـ) ،٦٠٣، ضبط ابراهيم شمس الدين، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م٠

(٦) المستطرف: ص ٢٢٢، لأبي الفتح الأبشيهي (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩م٠

وقوله: (وتمنّيه عليه أن يرجع في هبته إيّاه، وأن لا يرزق أحدا سواه) أسلوب خبري يوضح رغبة الحاسد وما يتعلق به قلبه، حيث لا يرزق غيره، وهي كناية تكشف ما في نفس الحاسد من أنانية وحقد، وقد ربط الجاحظ بين أجزاء تلك الفقرة بالضمير، مستغنيًا به عن الاسم الظاهر، للإيجاز، وسبق ذكره٠

وجواب الشرط (لكان عند ذوي العقول مرحوما، وكان لديهم في القياس مظلوما)، يدل على عظم الضرر الواقع على الحاسد بسبب حسده، وتخصيص (ذوي العقول) بذلك لتبصرهم بحقائق الأمور، ومقاييسها[١]، ومنه ما ذكره عمر –رضي الله عنه– "يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك"[٢]٠

كما استخدم الجاحظ كل من الألفاظ الموحية، والتعبيرات المؤثرة، التي تصور ما يجيش في نفس الحاسد من (غم، وحزن، ومضض، ووسواس، وكدر، وتنغص، واستصغار، وسخط)، بما يكشف خبث نفسه، وما يحيك فيها من شر يؤذيه قبل إيذائه المحسود، كما يوضح مقدار ما يصيبه من ذلك الأذى بكل من (تراكم – واستمكان– وكثرة)٠

ويستشهد الجاحظ على ذلك بقول بعض الأعراب: (ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد: نفس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم)، فجعل الحاسد ظالما يشبه المظلوم، في تضرر كل منهما، وأن سبب ذلك هو ما يكون عليه الحاسد من (نفس دائم لا ينقطع، وقلب هائم لا يهتدي، وحزن لازم لا يزول)، وهو تعليل لجعله شبيهًا بالمظلوم، وفصل تلك الجمل عما قبلها للاستئناف البياني؛ لكونها جوابا عن سؤال أثاره التشبيه السابق، تقديره: كيف ذلك؟

---

(١) يقال "(قَاس) الشَّيْء على غَيره ...قدره على مِثَاله " (المعجم الوسيط: لمجمع اللغة العربية بالقاهرة) ، مادة (قاس) .

(٢) السابق نفس الصفحة٠

فأجاب بأن له (نفس دائم ، وقلب هائم، وحزن لازم)، ووصل بين تلك الجمل للتوسط بين الكمالين، لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى، وعدم المانع، والنفي بـ(ما)، وتنكير كل من (نفس– وقلب) للتعميم فيشمل كل حاسد، والتعبير كناية عن تنغص عيش الحاسد، فهو لا يهنا بحال، ولا يستريح له بال، كما لا ترضى له نفس، ولا يطيب له خاطر، "قال أبو الليث السمرقندي: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود: أولاها: غمٌّ لا ينقطع. الثانية: مصيبة لا يُؤجر عليها. الثالثة: مذمَّة لا يُحمد عليها. الرابعة: سخط الرب. الخامسة: يغلق عنه باب التوفيق"[١].

ثم يوضح الجاحظ صفات كل من الحاسد والمحسود عن طريق المقابلة بقوله: (والحاسد مخذول وموزور، والمحسود محبوب ومنصور، والحاسد مغموم ومهجور، والمحسود مغشيّ ومزور)، حيث قابل بين كل من: (الحاسد مخذول وموزور[٢]،– والمحسود محبوب ومنصور) "وَالْخَذْلُ: ضِدُّ النُّصْرَةِ"[٣]، والموزور يكون مكروها لما يقترف من آثام، فيقابله المحبوب، فهو من مقابلة ثلاثة بثلاثة بإضافة المقابلة بين الحاسد والمحسود إليهما٠

كما قابل بين (الحاسد مغموم[٤] ومهجور، والمحسود مغشيّ[٥] ومزور)، فالحاسد مثقل بالغم، مهجور من الناس لا يوصل، أما المحسود فهو غافل

---

(١) المستطرف: ص ٢٢١.

(٢) والوِزْرُ: الحِمْلُ الثّقيل من الإثم"،" كتاب العين: مادة (وزر)٠

(٣) غريب الحديث:٣/٩٧٤، لأبي إسحاق (ت١٩٨ – ٢٨٥)، المحقق: د. سليمان إبراهيم محمد العايد الناشر: جامعة أم القرى – مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ.

(٤) "ورجلٌ مغمُومٌ ومُغْتَمٌّ: ذو غَمٍّ" (العين : مادة (غمّ))٠

(٥) "(الْغِشَاءُ) الْغِطَاءُ" مختار الصحاح مادة (غ ش ا)، " مَغْشِيٌّ عَلَيْهِ إذَا أُغْمِي عَلَيْهِ" النهاية في غريب الحديث والأثر: للجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي٠مادة (غَشَا)٠

عمن حسده، كثير الزيارة والصلة، و" الهجر: ضد الْوَصْل"[١] وهو من مقابلة ثلاثة بثلاثة أيضا، وهنا تظهر المقابلة اختلاف الشأن وتباين الحال، بين كل منهما٠

وهنا كشف الجاحظ عن صفات كل من الحاسد والمحسود عن طريق تلك المقابلة اللطيفة، والكاشفة، فالحاسد: موزور، ومخذول، ومهجور، ومغموم، أما المحسود فهو: منصور، ومحبوب، ومزور، وغافل الحاسد لا يدري من فعل حاسده شيئًا٠

كما جمع الجاحظ في الحاسد كلا من صفتي (وموزور، ومغموم) لما بينهما من مراعاة نظير، تبين شقائه بما يكابد من غم ووزر، فالحاسد لا تهنأ دنياه، ولا تسعد أخراه، وختم تلك القرائن بالسجع المتوازي الذي أضفى عليها جرسا موسيقيا لطيفًا وممتعًا جذابًا٠

من خلال هذا المبحث يتضح:

حسن الابتداء وجمال المطلع، حيث كان الجاحظ موفقًا في اختيار الألفاظ الدقيقة، والأدعية المنبئة عن موضوعه، والكاشفة لغرضه٠

كما انتهج في مطلع الرسالة منهجا علميا دقيقا، يبدأ بعرض القضية مجملة، ثم توضيحها، وكشف أبعادها، وهو من المناهج المستحسنة في عرض الموضوعات وطرح الأفكار٠

وقد استعان الجاحظ بكل من: الدعاء، والتقديم، والفصل والوصل والاستفهام، والخبر، والتشبيه، والحذف والطباق، والإيجاز، والقصر، والتفضيل، والتكرار، والسجع، لتوضيح حقيقة الحسد وبيان صفته، كما كانت وسيلة لتحقيق الإمتاع والإقناع، في إيصال الفكرة، وتوضيح الصورة، إلى

(١) جمهرة اللغة: مادة (هجر)٠

جانب حرص الجاحظ على إثبات رأيه، ودعم فكره، سواء كان ذلك بالصورة الكاشفة ،والموضحة، أو الاستدلال عليها وإثباتها بكل ما علمه، أو سمعه من القرآن الكريم، أو حديث النبي ﷺ، أو كلام العارفين، وهو منهج الجاحظ وطريقته في عرض أفكاره والاستدلال على صحتها، إلى جانب عنايته بالسجع المطبوع، غير المتكلف، وحسن توظيفه للأدعية، والجمل المعترضة، في مواقعها الملائمة من العبارة٠

* * * * * *

المبحث الثاني
من بلاغة تراكيب السرد القصصي في الرسالة
وحسن تقسيم الجاحظ للحساد

النص:

أورد الجاحظ في رسالته قصصا متعددة للحسد منها ما ذكره في هذا الموضع بقوله:[والحسد- رحمك الله- أول خطيئة ظهرت في السّموات، وأوّل معصية حدثت في الأرض، خصّ به أفضل الملائكة فعصى ربّه، وقايسه في خلقه، واستكبر عليه فقال: ﴿ **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾، فلعنه وجعله إبليسا، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيسا، وشوّه خلقه تشويها، وموّه على نبيّه تمويها نسي به عزم ربّه، فواقع الخطيئة، فارتدع المحسود وتاب عليه وهدى، ومضى اللعين الحاسد في حسده فشقي وغوى.

وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدهما أخاه، فعصى ربّه وأثكل أباه. وبالحسد طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين.

لقد حمله الحسد على غاية القسوة، وبلغ به أقصى حدود العقوق، فأنساه من رحمه جميع الحقوق، إذ ألقى الحجر عليه شادخا وأصبح عليه نادما صارخا][1].

ينتقل الجاحظ في هذه الفقرة إلى ذكر أول ما وقع من الحسد في كل من السموات والأرض، ووصفهما بقوله: (والحسد- رحمك الله- أول خطيئة ظهرت في السّموات، وأوّل معصية حدثت في الأرض)، وهو أسلوب خبري خلا من التأكيد لشهرته، وعدم إنكاره، وكني بـ (أول خطيئة ظهرت في السّموات)، عن عصيان إبليس، ورفضه السجود لآدم-عليه السلام- وبـ (أوّل معصية حدثت في الأرض) عن قتل قابيل لأخيه هابيل، فعندما بعث آدم -

(١) الرسائل الأدبية :ص ١١٧.

عليه السلام- إلى أولاده كانوا مسلمين مطيعين، ولم يحدث بينهم اختلاف في الدين، إلى أن قتل قابيل هابيل بسبب الحسد، كما طابق بين السموات والأرض، لبيان حدوث الحسد في كليهما، وهو إجمال ذُكِرَ بعد مفصلا٠

وقد جعل الجاحظ الحسد في السموات خطيئة[١]، و"الخطيئة: السيئة الكبيرة"[٢]، لأنها مسكن الملائكة، وقد خلقوا فيها للطاعة، ولا يجوز عليهم العصيان، فإن حدث كما هو شأن إبليس، فهي خطيئة؛ لذلك كان جزاؤه اللعن والطرد٠

أما في الأرض فقد جعل الحسد معصية؛ لأنها مستقر بني آدم، وهم غير معصومين، فقد تقع المعصية ويغفرها المولى -سبحانه- برحمته وفضله إذا أخلص صاحبها التوبة؛ لأن الأرض دار طاعة وعصيان، فـ" تَرْكَ الْوَاجِبِ مَعْصِيَةٌ وَفِعْلَ الْمَنْهِيِّ مَعْصِيَةٌ"[٣]، و"المُرْجِئَة،... وَهُمْ فِرقة مِنْ فِرَقِ الإِسلامِ يَعْتَقِدُونَ أَنه لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمان مَعْصِية كَمَا أَنه لَا ينْفعُ مَعَ الكُفْرِ طَاعَةٌ"[٤]٠

ولفظ (الظهور) يوحى باستحداثه، يقال: "ظَهَرَ الشَّيْءُ يَظْهَرُ ظُهُورًا بَرَزَ بَعْدَ الْخَفَاءِ"[٥]، اذ لم تكن من خلال الملائكة، أما (الحدث) فهو "الأَمْرُ الحادِثُ المُنْكَرُ الَّذِي لَيْسَ بمعتادٍ "[٦]، وقد ابتدعه قابيل من ولد آدم، وسار

---

(١) "والخِطْءُ: الذَّنْبُ وَالْإِثْمُ، وأَخْطَأَ يُخْطِئُ. إِذَا سَلَك سَبيلَ الخَطَإِ عَمْدا أَوْ سَهْوا... وَقِيلَ خَطِئَ إِذَا تَعَمَّد، وأَخْطَأَ إِذَا لَمْ يَتَعَمَّد" (النهاية في غريب الحديث والأثر:٢/٤٤)٠

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٢٢٢ ٠

(٣) شرح حدود ابن عرفة: للرصاع التونسي المالكي (المتوفى: ٨٩٤هـ)، ص ٤٥٢، الناشر: المكتبة العلمية الطبعة: الأولى، ١٣٥٠هـ٠

(٤) لسان العرب: مادة (رجأ)٠

(٥) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: مادة (ظهر)٠

(٦) لسان العرب مادة (حدث)٠

على نهجه الكثير منهم، فسن بذلك في الأرض سنة منكرة كان الحسد سببًا أصيلًا فيها، وقد فَصَّلَ الجاحظُ هاتين القصتين فذكر:

أولًا: **حسد إبليس**:

النص:

ويفصل الجاحظ أولًا: خطيئة السماء بقوله: [خصّ به أفضل الملائكة فعصى ربّه، وقايسه في خلقه، واستكبر عليه فقال: ﴿ **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾، فلعنه وجعله إبليسا، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيسا، وشوّه خلقه تشويها، وموّه على نبيّه تمويها نسي به عزم ربّه، فواقع الخطيئة، فارتدع المحسود، وتاب عليه وهدى، ومضى اللعين الحاسد في حسده فشقي وغوى]٠

تلك قصة إبليس مع آدم –عليه السلام – ذكرت في القرآن الكريم، وساقها الجاحظ مستدلا بها على ظهور الحسد في السماوات، وأنه كان سببًا لمعصية مَلَك من الملائكة، وعرض أسباب ذلك ونتائجه مفصلة٠

فقد خلق الله –جل وعلا– آدم –عليه السلام– وشرفه وكرمه، وأمر الملائكة بالسجود له، "سجود تعظيم وتحية"[(١)]، ولكن إبليس تكبر وبغى، وحسد آدم على تلك المنزلة ، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾ ، [الأعراف : الآيات (١١ ،١٢)]٠

---

(١) توفيق الرحمن في دروس القرآن: لفيصل النجدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، ١/ ١٢٠، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل محمد الناشر: دار العاصمة، المملكة العربية السعودية – الرياض، دار العليان للنشر والتوزيع، القصيم – بريدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م٠

قال قتادة: "حَسَدَ عَدُوُّ اللَّهِ إِبْلِيسُ آدَمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- عَلَى مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَهَذَا طِينِيٌّ، وَكَانَ بَدْءُ الذُّنُوبِ الْكِبْرَ، اسْتَكْبَرَ عَدُوُّ الله أن يسجد لآدم -عليه السلام، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»[(١)]، وَقَدْ كَانَ فِي قَلْبِ إِبْلِيسَ مِنَ الْكِبْرِ، وَالْكُفْرِ وَالْعِنَادِ مَا اقْتَضَى طَرْدَهُ وَإِبْعَادَهُ عَنْ جَنَابِ الرَّحْمَةِ وَحَضْرَةِ الْقُدْسِ، قَالَ بَعْضُ الْمُعْرِبِينَ ﴿**وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾: أَيْ وَصَارَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِسَبَبِ امْتِنَاعِهِ "[(٢)].

وقال ابن عطية "إن أول ما عُصِيَ الله بالحسد، وظهر ذلك من إبليس، من قوله أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ"[(٣)]، ومن شدة حسد إبليس أنه لما تبين مقت الله وغضبه عليه، أراد أن يغوي بني آدم؛ ليشاركوه المقت والغضب، وقد ذكر المولى سبحانه حال إبليس هذا بقوله: ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾، [الأعراف: الآيات (١٦، ١٧)]، وذكر ابن القيم "أن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه؛ لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس،

---

(١) الحديث في سنن أبي داود: (المتوفى: ٢٧٥هـ)، ٥٩/٤، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: (اختصار وتحقيق) محمد علي الصابوني، ٥٢/١، الناشر: دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨١ م.

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، ٣/ ٤٦٩، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.

وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسدا. فالحاسد من جند إبليس"[١].

وقد كنى الجاحظ عنه بقوله: (خصّ به أفضل الملائكة فعصى ربّه)، كناية عن موصوف، أراد الجاحظ عن طريقها بيان صفة إبليس قبل حسده، وعصيانه لربه، فقد كان له مكانة بين الملائكة حرمها بذلك العصيان، وقدم الجار والمجرور(به)؛ لتأكيد اختصاصه بتلك الصفة دون سائر الملائكة، قصر حقيقي تحقيقي، طريقه التقديم، وهو طريق اصطلاحي، زاده تأكيدًا لفظ (خص) غير الاصطلاحي، وأتى بـ(الفاء) العاطفة لدلالتها على سرعة معصيته، وعدم تردده فيها.

ثم يبين علة حسده بأن (قايسه[٢] في خلقه، واستكبر عليه فقال: ﴿ **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾ ، و (المقايسة في الخلق)، كناية عن ظنه أنه خير من آدم – عليه السلام– بالقياس على أصل الخلقة، وأنه خلق من النار التي رأى خيريّتها على الطين، ولذا كان تكبره تعليل[٣] "لذلك القياس الذي أجراه بينه وبين آدم –عليه السلام– فهو تعليل لاستكباره، باعتبار أن

---

(١) تفسير القرآن الكريم :لابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ص(٦٤٣)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٠ هـ.

(٢) القياس هو "حمل الشيء على الشيء وإجراء حكمه عليه لشبه بينهما عند الحامل"، (معجم الفروق اللغوية : ٤٣٨).

(٣) و"التَّعْلِيل: بَيَان عِلّة الشَّيْء وَتَقْرِير ثُبُوت الْمُؤثر لإِثْبَات الْأَثر...التَّعْلِيل فِي معرض النَّص: مَا يكون الحكم بِمُوجب تِلْكَ الْعلَّة مُخَالفا للنَّص كَقَوْل إِبْلِيس عَلَيْهِ اللَّعْنَة ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ بعد قَوْله تَعَالَى﴿**اسْجُدُوا لِآدَمَ**﴾" (دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: ٢٢١/١، للقاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (المتوفى: ق ١٢هـ)، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ –٢٠٠٠م.

"النار تغلب الطين"[١]، وسر بلاغة الكناية تكمن في الإيجاز، مع الإتيان بالمعنى مصحوبا بالدليل، فهي أبلغ وأوجز من التصريح.

وذكر أبو حيان أن " هَذَا لَيْسَ بِجَوَابٍ مُطَابِقٍ لِلسُّؤَالِ لَكِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْجَوَابَ إِذْ مَعْنَاهُ مَنَعَنِي فَضْلِي عَلَيْهِ لِشَرَفِ عُنْصُرِي عَلَى عُنْصُرِهِ وَهَذَا يَقْتَضِي عِنْدَهُ أَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ، وإذا كان كذلك فالناشئ مِنَ الْأَفْضَلِ لَا يَسْجُدُ للمفضول"[٢].

"وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَخْطَأَ فَمَنْ قَاسَ الدِّينَ بِرَأْيِهِ قَرَنَهُ اللَّهُ مَعَ إِبْلِيسَ"[٣].

"لأن مخالفة الله تعالى عظيمة يُتَعَجَبُ منها ويُسْأَلُ عن الداعي إليها... إنما سأله للتوبيخ والتقريع له ولإظهار معاندته، وكفره، وافتخاره بأصله، وحسده لآدم –عليه السلام– ولذلك لم يتب الله عليه، قالَ يعني قال إبليس مجيبا لله تعالى عما سأله عنه (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)...فجهل عدو الله وجه الحق، وأخطأ طريق الصواب"[٤].

وذكر الجاحظ جزاء عصيانه بقوله: (فلعنه وجعله إبليسا، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيسا، وشوّه خلقه تشويها)، والفاء للتعقيب، لدلالتها على

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (المتوفى: ١٥٠هـ)، ٣٠/٢، المحقق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٣هـ.

(٢) انظر البحر المحيط حيث ذكر فضل الطين على النار مفصلا ، البحر المحيط في التفسير: لأبي حيان الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، ١٧/٥، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

(٣) البحر المحيط :١٨/٥.

(٤) لباب التأويل في معاني التنزيل: لأبي الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ)،١٨٥/٢، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ.

سرعة الجزاء، وهو اللعن، وعطف عليه أن (جعله إبليسا) أي يائسا من رحمته–سبحانه– "زعم قوم من أهل اللُّغَة أَن اشتقاق إِبْلِيس من الإبلاس كَأَنَّهُ أبلس أَي يئس من رَحْمَة الله"(١)، كما (أنزله من جواره بعد أن كان أنيسا) و (الْأَنِيسُ) الْمُؤَانِسُ(٢)، وهو كناية عن طرده الى الأرض، وصيغة الماضي (أنزله) لتحقق ذلك وثبوته٠

كما ذكر من نتائج عصيانه أيضًا أن (شوّه(٣) خلقه تشويها) كناية عن قبحه، وسوء خِلْقَتِه مخبره، و"المُشَوَّهُ: القَبِيحُ العَقْلِ"(٤)، وأثبته بكل من الفعل الماضي (شوَّه) والمفعول المطلق (تشويها)؛ لتأكيد قبحه٠

وقوله (وموّه على نبيّه تمويها نسي به عزم ربّه) كناية عن إغوائه و خداعه لآدم –عليه السلام–، يقال "للمُخادِع: مُموَّه وَقد مَوَّه عليّ الْبَاطِل إِذا لَبَّسَه، وأراهُ فِي صُورَة الْحق"(٥)، و (تمويها) مفعول مطلق مؤكد للفعل، والذي نتج عنه أن (نسي به عزم ربّه)، وقدم الجار والمجرور لتأكيد السبب، وهو التمويه والخداع، والتعبير بـ (النسيان) لعدم تعمده المعصية، وقد نتج عنه أن (واقع الخطيئة)، ثم لم يلبث أن رجع وتاب بقوله (فارتدع المحسود وتاب عليه وهدى)، والفاء للدلالة على سرعة توبة آدم–عليه السلام– وقبولها، وهدايته له – سبحانه– لنجاته وصلاح شأنه٠

---

(١) جمهرة اللغة: مادة (بلس)٠

(٢) مختار الصحاح: للرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م . مادة (أنس)٠

(٣) يقال شَوِهَ "إذا قَبُح في الوَجْه والخِلْقة". كتاب العين: مادة (شوه)٠

(٤) تاج العروس: مادة (شوه)٠

(٥) تهذيب اللغة: مادة (موه)٠

ثم ينهى الجاحظ حديثه عن حسد إبليس ببيان نتيجته، وهو الشقاء واللعن، يقول: (ومضى اللعين الحاسد في حسده فشقي وغوى)، و"الشقوة: خلاف السعادة"(١)، أما الغَواية فهي: "الانهماك فِي الغَيِّ"(٢)، والفاء للدلالة على تعقيب الشقاء، والغي الحسد من غير مهلة، فلم يجني إبليس من وراء حسده هذا سوى اللعن والضلال، وجعله (ماضيًا في حسده) استعارة تبعية في الحرف (في) حيث جعل الحسد وهو معنى لا يصلح للظرفية، ظرفا يشتمل على الحاسد ويتلبس به، وهي توحي بمدى تمكن الحسد من إبليس حتى أصبح مُستَقَرا له ومُشتمِلا عليه٠

ثانيا: **حسد ابن آدم** :

النص:

وهنا يفصل الجاحظ ما أجمل في السابق من قصة أول معصية في الأرض، والتي كان الحسد دافعًا لها بقوله: [وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدهما أخاه، فعصى ربّه وأثكل أباه، وبالحسد طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين، لقد حمله الحسد على غاية القسوة، وبلغ به أقصى حدود العقوق، فأنساه من رحمه جميع الحقوق، إذ ألقى الحجر عليه شادخا وأصبح عليه نادما صارخا]٠

فقوله (وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدهما أخاه، فعصى ربّه وأثكل أباه)، أتى بـ (الواو) لعطف قصة على قصة، وربطها بسابقتها، حيث

(١) مجمل اللغة لابن فارس: مادة (شقى)٠

(٢) تهذيب اللغة: مادة (غوي)٠

يجمعهما شيء واحد وهو الحسد، و(أما) للتفصيل[١]، وقد ربط الجاحظ بين القصتين بكل من (الواو، وأما، والفاء)، والإضافة في (ابنا آدم) للتعريف بهما[٢]، والتعبير بالماضي (قتل) لتحقق حدوثه، وإضافة الضمير إلى كل من لفظي (أحدهما) لتحقير القاتل، وإلى (أخاه) لتعظيم جرمه، فإذا كان قتل النفس جرم عظيم، فهو للأخ أعظم، والفاء في (فعصى) للترتيب، إذ ترتب على القتل عصيان، وإضافة ضميره إلى اسم (الربّ) للتوبيخ والتقريع، لما يوحي به لفظ الرب من التعهد بالتربية والعناية الربانية التي تمنعه من ذلك الإثم العظيم، الذي لا يحل له، ولا ينبغي أن يحدث، والتعبير بـ (أثكل أباه) كناية عن شدة الحزن، والوصل بـ (بالواو) للتوسط بين الكمالين؛ لاتفاق الجملتين في الخبرية٠

ويؤكد الجاحظ على سببية الحسد في ذلك الفعل الشنيع مقدما ذكره بقوله: (وبالحسد طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) فـ(الباء) في (بالحسد) للسببية، وتقديمها مع المجرور لقصر القتل على سببه وهو الحسد، فهو الدافع إليه، وبسببه سُنَّ القتل على الأرض، وقوله "﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ**﴾ أي تَابَعَتْهُ "[٣]، فخسر حسناته، والتعبير كناية عن ضعف نفسه،

---

(١) " أمَّا: حرف فيه معنى الشرط والتوكيد دائمًا والتفصيل غالبًا"، (فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه: لمحمد صالح الشنطي، ص١٠٣، الناشر : دار الأندلس للنشر والتوزيع – السعودية / حائل، الطبعة : الخامسة ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م٠

(٢) "إذا كان المضاف إليه نكرة أفادت تخصيصا وإلا فتعريفا لا محالة" (مفتاح العلوم: ص ١٢٨).

(٣) معاني القرآن وإعرابه: للزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، ١٦٧/٢، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م٠

وتمكن الحسد منها، وهو اقتباس من قول المولى –سبحانه – في كتابه العزيز: ﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [المائدة: آية (٣٠)].

ذكر ابن عاشور: أن الفاء في فطوعت دلت على التفريع والتعقيب، كما دل لفظ (طَوَّعَ) على حدوث تردد في نفس قابيل ومغالبة بين دافع الحسد الذي ملأ قلبه لأخيه، ودافع الخشية، والخوف من المعصية، فدل ذلك على أن المفرع عنه محذوف تقديره: فتردَّد مَلِيًّا، أو فترصد له فُرَصًا، فقد قيل: إنه بقي زمانًا يتربص بأخيه، ولفظ (وَطَوَّعَ) معناه جعله طائعا، ومكنه من المطوع، وهو ضد الإكراه، وفي التعبير استعارة تمثيلية، حيث شبه قتل قابيل لأخيه هابيل بشيء متعاص متعذر لا يطيعه، بسبب معارضة التعقل والخشية له، كما شبه داعية القتل في نفس قابيل بشخص يعينه ويزلل له ذلك القتل المتعاصي المحرم، فقد طاوعته نفسه، وسولت له قتل أخيه بعد التردد والممانعة، وقد سُلِكَ في الآية مسلك الإطناب، وكان مقتضى الإيجاز أن يحذف قوله: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، ويقتصر على قوله ﴿**فَقَتَلَهُ**﴾ لكن عدل عنه، لقصد تفظيع حالة القاتل في تصوير خواطره الشريرة وقساوة قلبه، الذي حدثه بقتل مَنْ مِنْ شأنه الرحمة به والرفق بحاله، والنفس الخبيثة التي طاوعته في ذلك، فكان الإطناب هنا أوقع وأدل على الغرض.

أما لفظ (الخسارة) في قوله: ﴿ **فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾فقد يقصد بها خسارة الآخرة، أي فخسر بسبب ذلك الآخرة، أو خسارة الدنيا والمراد بها ما يبدوا على الجاني من الاضطراب، وسوء الحالة وخيبة الرجاء بسبب سوء ما فعل[1].

(١) التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، ٦/١٧٣-١٧٢، (بتصرف).

ويوضح الجاحظ سببية الحسد في ذلك بقوله: (لقد حمله[١] الحسد على غاية القسوة، وبلغ به أقصى حدود العقوق، فأنساه من رحمه جميع الحقوق، إذ ألقى الحجر عليه شادخا وأصبح عليه نادما صارخا)٠

فصور الحسد عن طريق المكنية بإنسان يجتهد في إغرائه، ويدفعه إلى قتل من هو أولى بحمايته والدفاع عنه حتى بلغ به ما أراد، وكان نتيجته أن امتدت يده إلى أخيه بأنكر الأفعال وأشنعها، وأكده بكل من (اللام، وقد، والفعل الماضي)، حيث دخلت اللام على قد الدالة على التحقيق، والفعل الماضي٠

وكذلك تقديم الجار والمجرور (به)، وما يوحي به لفظ (أقصى) من بلوغ نهاية درجات القسوة والجفاء، وبين كلمتي (القسوة ،والعقوق) مراعاة نظير، تشير إلى اتصافه بأسوأ الطباع وأرذل الأخلاق، بعد أن نسي حقوق رحمه وواجباتها، وجانس بين كل من (العقوق والحقوق) جناس مضارع[٢]، مع ما بينهما من سجع متوازٍ زاد الجمل تلاؤما واتساقا، فـ"الجزآن متوازنان متعادلان، لا يزيد أحدهما على الآخر، مع اتفاق الفواصل"[٣]٠

---

(١) "وحَمَلَه عَلَى الأَمر: أَغْراه بِهِ" لسان العرب مادة (حمل)٠

(٢) الجناس المضارع :ما كان الاختلاف فيه أنواع الحروف وكان واقعا بين حرفين متقاربين في المخرج، بشرط ألا يقع الاختلاف بأكثر من حرف،٦٤٥/٤، (ينظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة)، المؤلف: عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ)، الناشر: مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م٠

(٣)كتاب الصناعتين : لأبي هلال العسكري : ص ٢٦٢.

و(حقوق الرحم) كناية عن واجباتها من صلة، وإحسان، و قد صور نتيجة نسيانها بقوله: (إذ ألقى الحجر عليه شادخًا[١] وأصبح عليه نادمًا صارخًا)، وهو كناية عن ندمه عن قتل من يلزمه حمايته، ولذا أكده بلفظ (صارخا)؛ لإظهار شعور الندم الذي انتابه بعد اقترافه أعظم ذنب، إلى جانب دلالة كل من (إذ)، وصيغتي الماضي (ألقى–وأصبح) على تحقق الفعل وثبوته٠

وفي تلك الفقرة نجد تفصيل الجاحظ لما أجمل من قصص الحسد التي وقعت في السموات والأرض، مقتبسا إياها من قصص القرآن الكريم، وقد عبر عنها بأساليب واضحة، وألفاظ دقيقة، كاشفة، بينت حقيقة أول ظهور للحسد، سواء كان في السماوات أو في الأرض، ونتيجة ذلك وأثره، فقد لعن إبليس وطرد من رحمة الله، كما انتشر الحسد بين ولد آدم، وأخذ صورا وأشكال متنوعة، فصلها الجاحظ وبين أنواعها وأشكالها في الفقرة التالية :–

ثالثاً: **حسن تقسيم الجاحظ للحاسد والمحسود**:

النص:

يقول الجاحظ:[ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيّا أن يوبّخه على المال فيقول: جمعه حرامًا ومنعه أثاما، وألّب عليه محاويج أقاربه فتركهم له خصماء، وأعانهم في الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر، وقال له: لقد كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمّك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون، وإن وجد له خصما أعانه عليه ظلما، وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشّه، أو تفضّل عليه بمعروف كَفَرَهُ، أو دعاه إلى نصرّ خذله، وإن حضر مدحه ذمّه، وإن سئل عنه همزه، وإن كانت عنده شهادة كتمها،

(١) "الشَّدْخُ: كسر الشيء الأجوف كالرأس ونحوه "،كتاب العين (مادة شدخ)٠

وإن كانت منه إليه زلّة عظّمها، وقال: إنّه يحب أن يعاد ولا يعود، ويرى عليه العقود.

وإن كان المحسود عالما قال: مبتدع، ولرأيه متّبع، حاطب ليل و مبتغي نيل، لا يدرى ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل، قد أقبل بوجوه النّاس إليه، وما أحمقهم إذ انثالوا عليه، فقبحه الله من عالم ما أعظم بليّته، وأقلّ رعته، وأسوأ طعمته.

وإن كان المحسود ذا دين قال: متصنّع يغزو ليوصى إليه، ويحجّ ليثنى بشيء عليه، ويصوم لتقبل شهادته، ويظهر النّسك ليودع المال بيته، ويقرأ في المسجد ليزوّجه جاره ابنته، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته.

وما لقيت حاسدا قطّ إلّا تبيّن لك مكنونه بتغيّر لونه، وتخوّص عينه، وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك والإعراض عنك، والاستثقال لحديثك، والخلاف لرأيك][1].

***

(أ) قول الحاسد في المحسود إن كان غنياً:

وهنا يوضح الجاحظ أقوال الحساد وأحكامهم على من يحسدونهم، إن كانوا من المعاشرين المخالطين، أو كانوا ممن أنعم الله عليهم من العباد بنعم المال، أو العلم، أو الدين، حيث تكشف أقوالهم وآراؤهم ضمائرهم وما يكنون، ويبدأ الجاحظ حديثه في بيان أقوال الحاسد في المحسود إن كان غنيًا؛ لأن الغنى أكثر النعم الظاهرة التي يراها الحاسد، فتجذب انتباهه، وتسيطر على قلبه، وتجعله أقل غفلة، قد يكون ذلك لحاجتها إليه لكونه أهم سبل العيش، وقد يكون بسبب الحب الفطري للمال وشغف النفوس به، لذا كان صاحب

(١) الرسائل الأدبية: ص ١١٧، ١١٨.

المال أكثر الناس إصابة بالحسد، يقول الجاحظ موضحا ذلك عن طريق أسلوب الشرط، مستخدما (إن) الشرطية[١]، لتفصيل صفات مَن يُحْسَد مِن الناس: [ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيّا أن يوبّخه على المال فيقول: جمعه حراما ومنعه أثاما]، فيوضح علامة حسده وهي توبيخ المحسود على ما لديه من مال، وأن سبب توبيخه هو البخل به، وعدم تحري الحلال فيه، وكنى عنه بقوله:(جمعه حراما ومنعه أثاما)، و"الإثْمُ: الذنْبُ... والأَثَامُ: جزاء الإثْم"[٢]، مع ما بين لفظي (حرام- وآثام) من مراعاة نظير تظهر رقة دينه، بعدم اكتراثه بحلية ماله، أو إخراج حقه٠

كما يبين نكاية الحاسد بالمحسود عن طريق الأسلوب الخبري بقوله: (وألّب عليه محاويج أقاربه فتركهم له خصماء)، فيخبرنا عما يقوم الحاسد بفعله بشكل عملي، وليس فقط التمني أو القول، إذ يعمد إلى (محاويج أقاربه) ومن يعاونه على عداوته، فيؤلبهم عليه ويحملهم على خصومته، فينقلب الجميع حسادًا، و(الفاء) تشير إلى سرعة استجابتهم وتحولهم إلى خصومته، كما أن ضمير الجمع يدل على كثرة من استجاب له٠

---

(١) والأصل أن يكون فعل الشرط معها مضارعا، وقد يأتي ماضياً لفظاً، إلاَّ أنّ معناه بأداة الشرط ينقلب إلى الاستقبال،...وقد تستعمل"إنْ" في غير الاستقبال لفظاً ومعنىً، قياساً مُطَّرِداً في موضعين: أحدهما أن يكون فعل الشرط لفظ (كان)، (ينظر البلاغة العربية: للميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ص١/٤٧٥).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: للفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م مادة (أثم) ٠

ثم يوضح فعله على كلا الجانبين بقوله: (أعانهم في الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر)، فهو يزكي العداوة، ويؤجج نارها، فيعين من جعلهم بوشايته حسادا على العداوة في الباطن، ويحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر، وقابل بين كل من (أعان – وحمل، وفي –وعلى، والظاهر– والباطن)، ليوضح ما يتصف به الحاسد من نفاق وخبث، وقوله: (وحمل المحسود على قطيعتهم) إجمال فصله بـ (قال له: لقد كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمّك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون)، وأكد ذلك بكل من (اللام، وقد، والفعل الماضي، وإن)؛ ليدفع إنكار المخاطب أو شكه، ويكون أدعى لقبول قوله ، يقول الإمام عبد القاهر مبينا حاجة الأسلوب إلى التأكيد بـ(إن) : " وإنما تحتاجُ إليها إذا كاَن له ظَنٌّ في الخلاف، وعقد قلب على نفي ما ثبت أو إثبات ما ننفي، ولذلك تَراها تزدادُ حُسْناً إذا كان الخبرُ بأمرٍ يَبْعُدُ مثْلُه في الظنِّ، وبشيءٍ قد جرتْ عادةُ الناسِ بخلافِهِ"[١]، فهو يرى أنه إنما يحسن التأكيد إذا كان للمخاطب ظن على خلاف حكمك، أي تأكيد الحكم بمؤكد فأكثر، وقيل بأكثر من مؤكدة فرقًا بينه وبين التوكيد المستحسن"[٢] و(كَفْر المعروف، وإظهار الذم) كناية عما هم عليه من لؤم وخسة، وكذلك الطباق بين (كفروا، وأظهروا) فهو يؤكد خبث الطباع وسوء النية، بإخفائهم العطايا، وإظهارهم العيوب، وقال: (أظهروا في الناس) ولم يقل: (للناس)، للإشارة إلى العمل على انتشارها وشيوعها، بالرغم من أنها لم تكن مطلب للناس بل هي قصد الحاسد وهدفه٠

(١) دلائل الإعجاز: ٣٣٥/١.

(٢) ينظر: حاشية الإيضاح : ٧٠/١.

وقوله: (فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون) (الفاء) هنا للسببية؛ "لأنها تجعل ما بعدها مع ما قبلها في حكم جملة واحدة، لإشعارها بالسببية"(١)، وقد دخلت على خبر منفي، فهم ليسوا أهلا للعطاء أو الصلة، وعلل ذلك بعدم شكرهم، وأكده بالجملة الاسمية المنفية، و (إن)، والتعبير بـ (أمثالهم) كناية عن المتحدث عنهم، فهم، ومن في مثل حالهم من نكران النعمة والفضل، ليسوا أهلا للوصال أو الود، ولفظ المثل هنا أريد به "الضمير الذي أضيف إليه، ودلالته عليه دلالة التزامية، ولهذا كان كناية"(٢) ولا يقصد به التعريض بشخص آخر٠

كما يبين الجاحظ أن الحاسد لا يقف عند إثارة العداوات بين المحسود وذويه، بل (إن وجد له خصما أعانه عليه ظلما)، وتقييد الشرط بـ(إن) دون (إذ)؛ لأن "الأصل في (إن) ألا يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه"(٣)، للشك في وجود خصم له غير الحاسد، فإن وجده أعانه، ولذا أتى بلفظ (الخصم) مفردًا، وجعل إعانته له (ظلمًا) احتراس عن أن تكون إعانته عن حق، فهو لا يعينه إلا عدوانًا وظلما، وصيغة الماضي المضافة إلى ضمير الخصم في (أعانه) تؤكد تحقق إعانته من غير تردد٠

****

(١) شرح الكافية الشافية: لأبي عبد الله، جمال الدين الطائي، (المتوفى: ٦٧٢هـ)، ١٢٠٧/٣، المحقق: عبد المنعم أحمد هريدي، الناشر: جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة، والدراسات الإسلامية مكة المكرمة، الطبعة: الأولى٠

(٢) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني: ص ٢٣٤، للشيخ محمد محمد أبو موسى٠

(٣) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: لعبد المتعال الصعيدي١/ ١٦٩.

(ب) حال الحاسد مع المحسود إن كان ممن يعاشره:

ثم ينتقل الجاحظ ليصور حال الحاسد مع المحسود إن كان معاشرا له، معتمدا في ذلك على (إن) الشرطية، بقوله: (وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشّه، أو تفضّل عليه بمعروف كفره، أو دعاه إلى نصر خذله، وإن حضر مدحه ذمّه، وإن سئل عنه همزه، وإن كانت عنده شهادة كتمها، وإن كانت منه إليه زلّة عظّمها، وقال: إنّه يحب أن يعاد ولا يعود، ويرى عليه العقود)٠

وهنا يذكر الجاحظ أفعال الحاسد الذميمة تجاه المحسود، والتي تدل على نفس خبيثة تملؤها الضغينة والحقد، معتمدا في ذلك على الشرط بـ(إن) وتكرارها لتنوع ما دلت عليه من صفات، كما عطف عددا من الجمل المتنوعة المعاني و الدلالات، مستخدما كل من (الفاء، وأو، والواو)، وأتى بـ (الفاء) في حال الاستشارة؛ لمخالطته المحسود ومعاشرته إياه ، فهو أول من يستشيره لقربه منه، ولذا ناسبه (الفاء) لدلالتها على "الترتيب التعقيبي"[١]٠

و"الغِشُّ: نَقِيضُ النُّصْح "[٢]، ومقصوده أنه "لَمْ يَمْحَضْه النَّصيحة"[٣]، ولم يشر إليه بما ينفعه، وهو كناية عن خداع الحاسد ونفاقه٠

ثم يعطف عليه وصفا آخر أشد سوءا بقوله: (أو تفضّل عليه بمعروف كفره)، وهو تفصيل[٤] لصفات الحاسد المعاشر، وأتى بحرف العطف (أو)

---

(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك:،لابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، ١٨٤/١، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: بدون.

(٢) تهذيب اللغة: مادة (غشّ)٠

(٣) اللسان مادة غشش٠

(٤) ينظر: النحو الوافي: المؤلف: عباس حسن (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، ٦٠٦/٣، الناشر: دار المعارف، الطبعة: الطبعة الخامسة عشرة٠

لقصد الإخبار أنه "يفعل واحدا منها لا بعينه"[١]، "والكُفرُ: نقيض الشكر"[٢]، ولفظ (التفضل) يشير إلى أن ما صنعه من معروف غير مُلِزم، فإذا أبخسه حقه ولم يشكره، فهو كناية عن دناءته وخسة طبعه، وتقديم الجار والمجرور (عليه)؛ لتخصيصه بذلك٠

ومن أوصافه التي أوضحها أيضًا قوله: (أو دعاه إلى نصرّ خذله)، و"الخذلان: ترك المعونة"[٣]، يقصد حمله على الخسارة والفشل، وهو كناية عما يضمر له من كره وبغض٠

ثم ينتقل الجاحظ إلى عطف جمل الشرط بـ(الواو) بقوله: (وإن حضر مدحه ذمّه وإن سئل عنه همزه، وإن كانت عنده شهادة كتمها، وإن كانت منه إليه زلّة عظّمها، وقال: إنّه يحب أن يعاد ولا يعود، ويرى عليه العقود)٠

وقد وصل بين تلك الجمل بـ(الواو)؛ لتنوع دلالتها، مع اتحادها في الخبرية لفظًا ومعنًى، وعدم المانع من العطف، فبها يعرف مكنون الحاسد وما يضمر للمحسود من كره، وأكده بالطباق في (إن حضر مدحه، وذمه)، و تكرار الشرط بقوله (وإن سئل عنه همزه، وإن كانت عنده شهادة كتمها، وإن كانت منه إليه زلّة عظّمها،)، "وَالْهَمَّازُ: الْعَيَّابُ"[٤]، فالحاسد لا يذكر محسوده بخير، فهو يكثر من عيبه، ويعظم من زلته، ويكتم فيه شهادته، بما يؤكد حسده، ويثبت عداوته، فكل فعل من تلك الأفعال دليل على ما يكن ويضمر، فهو كناية عن صفة٠

---

(١) بغية الإيضاح: لعبد المتعال الصعيدي، ٢٨٢/٢، م

(٢) كتاب العين: مادة (كفر)٠

(٣) مجمل اللغة لابن فارس: مادة (خذل)٠

(٤) مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مادة (همز)٠

كما يؤكد تلك العداوة مستخدما طباق السلب بقوله: (إنّه يحب أن يعاد ولا يعود)، كناية عن كبره، وكذلك قوله (ويرى عليه العقود)[١] كناية عن رياسته، وزاده تأكيدًا بكل من الجناس الاشتقاقي بين (يعاد– ويعود)، وتقديم الجار والمجرور(عليه)، كما عرض الجاحظ تلك المعاني جميعا بواسطة السجع المطبوع الذي أبرزها بأسلوب لطيف و مؤثر، فهو من السجع المحمود الذي ذكره ابن سنان بقوله " أن السجع يكون محمودا إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه، دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأجله، وورد ليصير وصلة إليه"[٢]، وهنا تعانق كل من الشرط الطباق مع السجع والجناس في توضيح صورة الحاسد، وبيان أفعاله مع المحسود.

*****

(ج) قول الحاسد في المحسود إن كان عالما:

ثم يذكر الجاحظ رأي الحاسد في المحسود العالم، ومجيبًا على سائله: لما صار الحسد في العلماء أكثر من الجهلاء؟ وكيف دب في الصالحين أكثر منه في الفاسقين؟

يقول [وإن كان المحسود عالما قال: مبتدع، ولرأيه متّبع، حاطب ليل ومبتغي نيل، لا يدرى ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل، قد أقبل بوجوه النّاس إليه، وما أحمقهم إذ انثالوا عليه، فقبحه الله من عالم ما أعظم بليّته، وأقلّ رعته، وأسوأ طعمته]، وهنا يكشف الجاحظ عن الحسد بين العلماء، مفصلًا رأي الحاسد بالعديد من الكنايات، منها أنه (مبتدع)، و"المبتدع: من

(١) "العقود: جمع عقد وهو خيط من الخرز يعقد للرؤساء." (الرسائل الأدبية:ص ١٧٢).

(٢) سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي ، ص١٧١ .

يخالف السنة أو يأتي بجديد لم يعرفه السلف"[١]، يقال أمر مبتدع، أي: "مختلف لم يعرف"[٢]، كناية عن استحداثه في الدين الجديد الذي لا سند له ولا قبول، و(لرأيه متّبع)، كناية عن عدم قبول رأي غيره، وتمسكه برأيه، وإن لم يكن صائبًا، كما وصفه بأنه (حاطب ليل) كناية عن جهله وعدم تبصره أو رسوخ علمه، حيث يجمع العلم من غير انتقاء ولا تمحيص، وفي ذلك ما فيه من ضرر على العالم والمتعلم معا٠

وقوله (مبتغى نيل) كناية عن تكسبه بعلمه، فهدفه المال، وليس خدمة العلم، ويدلل على جهله أيضًا بعدم عمله بعلمه، يقول: (لا يدرى ما حمل، قد ترك العمل)، وفصل الجملة الثانية للاستئناف البياني؛ فهي جواب عن سؤال تقديره وما دليل عدم درايته؟ جوابه (قد ترك العمل)، وأكده بـ (قد- والفعل الماضي)؛ ليدل على تحققه، كما دل المضارع المنفي (لا يدري)؛ على استمرار عدم الدراية، مع ما بين لفظي (حمل- والعمل) من جناس مضارع وسجع مطرف، تآزرا في توضيح صورة من يدعي العلم، ولا يظهر في معاملاته وأفعاله، فحاله تلك تشبه حال اليهود في قول المولى سبحانه: **﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾**[الجمعة: آية (٥)]٠

كما كني عن نفاقه وإتقان خداعه بقوله: (أقبل على الحيل، قد أقبل بوجوه النّاس إليه، وما أحمقهم إذ انثالوا عليه)، ووجوه الناس كناية عن أشرافهم، و(انثيالهم) كناية عن كثرتهم، "يُقَالُ: انْثَال عَلَيْهِ الناسُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ

(١) الرسائل الأدبية : ص ١٢٧.

(٢) كتاب العين : مادة (بدع)٠

أَي انْصَبُّوا"[١] و"عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ، قَالَ: تَقُولُ: انْثَالَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ،... إِذَا أَتَوْهُ وَتَتَابَعُوا عَلَيْهِ، وَتَهَافَتُوا"[٢]، ووصفهم بالحمق حال انثيالهم، كناية عن جهلهم بحقيقته، والإقبال يكون للذات كلها، وعبر بالوجه، من باب المجاز المرسل لعلاقة الجزئية؛ لأن الوجه موضع المواجهة عند اللقاء، وبه يعرف الإنسان، وعليه تظهر علامات الفرح والحزن، والرضا والغضب، فهو واجهته وعنوانه٠

ثم يختم رأيه بالدعاء عليه بقوله: (فقبحه الله من عالم، ما أعظم بليّته، وأقلّ رعته[٣]، وأسوأ طعمته)، فيعجب من عظم بلائه، وقلة ورعه، وسوء طعامه، مع إظهار التقوى والعلم، بما يدل على عظم ما هو عليه من بلاء، وقلة ورع، "يقال: فلان سَيِءُ الرِّعةِ أَي قَلِيلُ الورَعِ"[٤]، أو الخوف من الله، والفزع من عقابه[٥]، وهو كناية عن سوء حفظه لأمور دينه، "يُقَال رَاعى الْأَمر راقب مصيره، وَنظر فِي عواقبه وَحفظه وَأبقى عَلَيْهِ"[٦]، وصيغة أفعل (أعظم،

---

(١) لسان العرب مادة (ثول)٠

(٢) الدلائل في غريب الحديث:٣٩١/١، ابن حزم السرقسطي (المتوفى: ٣٠٢هـ)، تحقيق: د. محمد بن عبد الله القناص، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م٠

(٣) الورَعُ فِي الأَصل: الكَفّ عَنِ المَحارِمِ والتحَرُّجُ مِنْهُ وتَوَرَّعَ مِنْ كَذَا، ثُمَّ اسْتُعِيرَ لِلْكَفِّ عَنِ الْمُبَاحِ وَالْحَلَالِ. الأَصمعي: الرِّعةُ الهَدْيُ وحُسْنُ الهيئةِ أَو سُوء الْهَيْئَةِ. يُقَالُ: قَوْمٌ حَسَنةٌ رِعَتُهم أَي شأْنُهم وأَمْرُهم وأَدَبُهم، وأَصله مِنَ الوَرَعِ وَهُوَ الكَفّ عَنِ الْقَبِيحِ... يُقَالُ: وَرِعَ يَرِعُ رِعةً، مِثْلُ وَثِقَ يَثِقُ ثِقَةً" اللسان مادة (ورع)٠
و"(راعاه) مُرَاعَاة ورعاء لاحظه وراقبه"، المعجم الوسيط مادة (رعا)٠

(٤) اللسان: مادة (ورع)٠

(٥) قيل "قَوْلك رعته فارتاع إِذا أَفزعته" ، المعجم الوسيط: مادة (رعا)٠

(٦) السابق٠

وأقل، وأسوأ) " معناه المبالغة والتفضيل"[١]، وأتى بالدعاء بصيغة الماضي في (فقبحه)، وهو من التعبير بالخبر في موضع الإنشاء؛ لتأكيد ما هو عليه من بلية، وكأن تقبيح الله له واقع موجود، وقد تآزر كل من الدعاء والتعجب، وهما من الإنشاء غير الطلبي؛ لتأكيد حرص الحاسد على التقليل من شأن المحسود وعلمه٠

*****

(د) أحكام الحاسد على المحسود صاحب الدين:

وهنا يصور الجاحظ حنق الحاسد وأحكامه التي يصدرها على المحسود بقوله: (وإن كان المحسود ذا دين قال: متصنّع، يغزو ليوصى إليه، ويحجّ ليثنى بشيء عليه، ويصوم لتقبل شهادته، ويظهر النّسك ليودع المال بيته، ويقرأ في المسجد ليزوّجه جاره ابنته، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته)٠

فيصور رأي الحاسد في المحسود صاحب الدين، بجملة من الكنايات التي تصفه بالرياء والنفاق، يقول: (وإن كان المحسود ذا دين قال: متصنّع، يغزو ليوصى إليه)، وقد بنى كلام الحاسد على حذف المسند إليه والتقدير: (هو متصنع) اختصارًا، وقد يكون لكراهة ذكر اسمه بسبب ما يشعر به الحاسد من ضيق بسبب حسده، فقال: (متصنع)، يظهر التدين ويخفي خلافه، كناية عن نفاقه وعدم إخلاص عمله، وعبر بالاسم لثبوت الصفة، وبصيغة المضارعة للدلالة على تجدد الفعل منه رياء و سمعة، حتى يعلم الناس تقواه، (ليوصوا إليه)، و(اللام) للتعليل، وكذلك في قوله: (يحجّ ليثنى بشيء عليه، ويصوم لتقبل شهادته) فهو تعليل لإظهار الورع على غير الحقيقة، وخص كل من (الغزو، والحج، والصوم)، لما فيها من المكابدة والمشقة التي تنبئ عن

(١) الأصول في النحو: لابن السراج ، ١/١٠٥.

متدين ورع، كما كنى بكل من (قبول الشهادة) عن عدالته، و(إظهار النّسك)، عن أمانته، (والقراءة في المسجد)، عن تعمد إظهار الصلاح والتقوى، وخص الجار هنا لملاصقته إياه واطلاعه على أكثر أحواله.

وكونه (ويحضر الجنائز) كناية عن حرصه على تشييعها، بقصد شهرته، وخص الجنائز، لتجمع الناس فيها؛ لعظم أجرها، حيث يكون فيهم ظاهر الصفة معلوم الذات.

وقد ربط الجاحظ بين تلك الجمل بالضمير العائد على المحسود لسبق ذكره صريحا في بداية الفقرة، وعبر عن معانيه بصيغة المضارعة، للدلالة على تجدد الصفة، واستحضار صورتها، فقال:(يغزو-يوصى- يحجّ-يثنى- يصوم- تقبل-يظهر-يودع- يقرأ-يزوّجه-يحضر- تعرف)، وبيان أن هذا دأبه وديدنه، فهو أمر متجدد، يحدث منه آنا إثر آن، غير منقطع؛ ولأن الفعل في أصله "موضوع لإفادة التجدد، ودخول الزمان الذي من شأنه التغير في مفهومه مؤذن بذلك"(١).

****

(هـ) علامات الحاسد عند الجاحظ:

يقول الجاحظ في بيان صفة الحاسد وما يظهر عليه من علامات: [وما لقيت حاسدا قطّ إلّا تبيّن لك مكنونه بتغيّر لونه، وتخوّص عينه، وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك، والإعراض عنك، والاستثقال لحديثك، والخلاف لرأيك].

الخطاب هنا عام يشمل كل مخاطب يلقى حاسدا أو يجالسه، حيث يرى فيه كل ما ذكر من صفات، تكشف مكنون نفسه، وهي كناية عما يضمر من

(١) مفتاح العلوم: للسكاكي ، ص٢١٨.

بغض وما يكن حسد، وعبر عنه بأسلوب القصر، مستخدما طريق النفي والاستثناء بقوله: (إلّا تبيّن لك مكنونه)؛ لتأكيد وضوح تلك الصفات عليه، وهو إجمال فصله بما أتى بعده من صفات وأحوال، وهي (تغيّر لونه – وتخوّص عينه – وإخفاء سلامه– والإقبال على غيرك – والإعراض عنك – والاستثقال لحديثك – والخلاف لرأيك)، فجميعها دليل يشير إلى ما يخفي من حسد حقد، كما دل بلفظي (قط – وتبين) على ظهور تلك العلامات على كل حاسد، وعبر بالجمل الاسمية للدلالة على ثبوتها، وعدم انفكاكها عن شخص الحاسد وطبعه٠

وقد فصل الجاحظ تلك الصفات عن جملة القصر للاستئناف البياني، حيث جاءت جوابا عن سؤال تقديره: وكيف يعرف؟ قال: (بتغيّر لونه وتخوّص عينه وإخفاء....الخ، كما وصل بين تلك الجمل؛ للتوسط بين الكمالين، لاتفاقها في الخبرية، والمضارعة، ووجود الجهة الجامعة، وعدم المانع من العطف، إلى جانب بناء قرائنها على السجع المطرف غير المتكلف بحرفي (الهاء، والكاف)، فهو للتنويع، وجذب السمع٠

وبعد هذا الاستطراد الذي ذكر فيه الجاحظ أحوال الحاسد، وأقواله في المحسود، عاد إلى سرد قصصًا واقعية أخرى للحسد، تكشف مدي تملك الحسد للحاسد، وتحكمه في أقواله وأفعاله٠

****

رابعاً: **قصة حسد عبد الله بن أبيّ**:

النص:

وهنا ساق الجاحظ قصة ظاهرة للحسد حدثت في عهد النبي ﷺ، توضح مدى تأثير الحسد على الحاسد، وكيف جعل العاقل أحمقا، والكيس جاهلا، يقول: [وكان عبد الله بن أبيّ[١]، قبل نفاقه، نسيج وحده لجودة رأيه وبعد همّته، ونبل شيمته، وانقياد العشيرة له بالسّيادة، واذعانهم له بالرّياسة. وما استوجب ذلك إلّا بعدما استجمع له لبّه، وتبيّن لهم عقله، وافتقدوا منه جهله، ورأوه لذلك أهلا، لمّا أطاق له حملا، فلما بعث الله نبيّه ﷺ وقدم المدينة، ورأى هو عزّ رسول الله ﷺ شمخ بأنفه، فهدم إسلامه لحسده، وأظهر نفاقه، وما صار منافقا حتّى كان حسودا، ولا صار حسودا حتّى صار حقودا، فحمق بعد اللّبّ، وجهل بعد العقل، وتبوّأ النّار بعد الجنّة.

ولقد خطب النبي ﷺ بالمدينة فشكاه إلى الأنصار، فقالوا: يا رسول الله لا تلمه فإنا كنا عقدنا له الخرز قبل قدومك لنتوّجه، ولو سلم المخذول قلبه في الحسد لكان من الإسلام بمكان، ومن السؤدد في ارتفاع، فوضعه الله لحسده وأظهر نفاقه؛ ولذلك قال القائل[٢]:

طَالَتْ علىَ الحَاسِدِ أَحْزَانه ∴ فاصْفَرَّ مِنْ كَثْرَةِ أَحْزانـه

دَعْهُ فقدْ أَشْعَلت في جوفِهِ ∴ مَا هَاجَ في حَرِّ نِيرَانِـه

العَيْبُ أَشْهَى عِنْدَه لَـــذَّة ∴ مِنْ لذَّة المَالِ لخزَّانِــه

فَارِمِ عَلىَ غَارِبِـــهِ حَبْلَــهُ ∴ تَسْلَمْ مــن كَثْرَةِ بُهْتَانِـه] [٣]

---

(١) عبد الله بن أبيّ الخزرجي عرف بنفاقه وعاش في عهد الرسول.(الرسائل الأدبية : ص ١٨٢).

(٢) لم أعثر على نسبة لقائلها.

(٣) الرسائل الأدبية : ص ١١٨،١١٩.

وهنا يأتي الجاحظ بصورة واقعية مشاهدة للحاسد الحاقد ظهرت في عصر النبي ﷺ ، توضح كيف صيَّر الحسد من كان يتميز بالعقل والكياسة إلى حاقد متكبر، أعمى عن الحق، أسير للشيطان، ليس لشيء سوى ما أكن في قلبه من حسد وحقد على النبي ﷺ ، وكره لدعوته، فالحسد حبل قوي من حبائل الشيطان، إذ دخل إلى نفسه المريضة الأمارة بالسوء، فوسوس إليه، وسيطر عليه ، وأخرجه من قوة العقل إلى ضعف الجهل، ومن جمال الرضا إلى قبح الغضب، فعبَّد له طريق النفاق، وجمَّل له الفعل غير المحمود حتى عادت علية العاقبة بالسوء ٠

بنى الجاحظ كلامه في تلك الفقرة على الأسلوب الخبري الذي أعانه على السرد، حيث تمكن من خلاله سرد قصة ذلك المنافق، بتفصيل كشف أحواله، وبين صفاته التي كان عليها، قبل استمكان الحسد من قلبه وبعده٠

ووضح الجاحظ صورة هذا المنافق وما كان عليه عن طريق التشبيه بقوله: (كان نسيج وحده)،حيث شبهه بثوب نسج منفردا، ولم ينسج غيره ، لجودة صنعه ونفاسته، وهو مدح بتفرده في الخصال الشريفة التي لا نظير له فيها، "يُقَالُ: فِي الْمَدْحِ هُوَ (نَسِيجُ وَحْدِهِ) بِالْإِضَافَةِ أَيْ مُنْفَرِدٌ بِخِصَالٍ مَحْمُودَةٍ لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ كَمَا أَنَّ الثَّوْبَ النَّفِيسَ لَا يُنْسَجُ عَلَى مِنْوَالِهِ غَيْرُهُ أَيْ لَا يُشْرَكُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي السَّدَى، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ نَفِيسًا فَقَدْ يُنْسَجُ هُوَ، وَغَيْرُهُ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْوَالِ"[١].

(١) المصباح المنير: مادة (نسج)٠

و"الوَحَدُ: المُنْفَرِدُ [١]،"لَيْسَ لَهُ شبه فِي رَأْيه وَجَمِيع أمره"[٢]، فهو صلب الرأي مجرب، يقال للرجل الذي لا شبه له في علم أو غيره "قيل ذَلِك لكل من أَرَادوا الْمُبَالغَة فِي مدحه،... :أي رجل لَا يُضاهي فِي دينه"[٣]، وعلل تلك المنزلة التي وصل إليها بالعديد من الكنايات، مستخدما في ذلك (لام) التعليل، فقوله: (لجودة رأيه) كناية عن فطنته، ورجاحة عقله، فالرأي الجيد هو "الجَزْل، الحَصِيف ،بَعِيد الْغَوْرِ"[٤] الذي يؤهل صاحبه أن يكون قائدا٠

(وبعد همّته، ونبل شيمته) كناية عن عظمهما، يقال: "بعيد الهمة وكبير الْعَزِيمَة...وَحَقِيقَة ذَلِك أَنه يهتم بالأمور الْكِبَار"[٥]، كما أن "النَبَلَ يَدُلُّ عَلَى فَضْلٍ وَكِبَر"[٦]٠

---

(١) "ينَصْبُ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَيُذْكَرُ عَلَى وَجْهِ الْإِضَافَةِ وَالْهَاءُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ يُقَالُ فُلَانٌ نَسِيجُ وَحْدِهِ ....وَجُحَيْشُ وَحْدِهِ وَعُيَيْرُ وَحْدِهِ تَصْغِيرُ جَحْشٍ وَهُوَ وَلَدُ الْأَتَانِ وَعُيَيْرٌ تَصْغِيرُ عَيْرٍ وَهُوَ الْحِمَارُ الْوَحْشِيُّ وَهُمَا ذَمٌّ يَهْتَمُّ بِأَمْرِ نَفْسِهِ أي دون غيره" (طلبة الطلبة): نجم الدين النسفي (المتوفى: ٥٣٧هـ) ص ١٢٥، الناشر: المطبعة العامرة، مكتبة المثنى ببغداد، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٣١١هـ٠

(٢) غريب الحديث: للقاسم بن سلاّم البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، ٢٢٥/٣، المحقق: د. محمد عبد المعيد خان، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، الطبعة: الأولى، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م٠

(٣) الفائق في غريب الحديث والأثر:٤٢٦/٣، لجار الله الزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة - لبنان، الطبعة: الثانية٠

(٤) نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد:٩٦/٢، لليَازِجِيّ الْحِمْصِيّ (المتوفى: ١٣٢٤هـ)، الناشر: مطبعة المعارف، مصر، عام النشر: ١٩٠٥ م٠

(٥) الفروق اللغوية: ص١٢٧ ٠

(٦) معجم مقاييس اللغة: مادة (نبل).

(وانقياد العشيرة له بالسّيادة، وإذعانهم له بالرّياسة) كناية عن علو منزلته، وعظم مكانته، وخصصه بذلك دون غيره، عن طريق تقديم الجار والمجرور (له)، وتكراره، لزيادة التأكيد، فهو من قصر الصفة على الموصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا، فقد كانت له تلك المنزلة قبل قدوم النبي ﷺ ، وفقدها بسبب حسده، وعبر بكل من (الانقياد، والإذعان) للدلالة على كمال الرضا والاستسلام، لما في الانقياد من الخُضوع طواعية، والإذعان هو "الْإِسْرَاع فِي الطَّاعَة، وَلَيْسَ هُوَ من الذل والهون فِي شَيْء"(١).

كما يؤكد استحقاقه لتلك المنزلة –في السابق– عن طريق القصر (بما وإلا) حيث يقول: (وما استوجب ذلك إلّا بعدما استجمع له لبّه، وتبيّن لهم عقله، وافتقدوا منه جهله، ورأوه لذلك أهلا، لمّا أطاق له حملا)، يقال "اسْتَوْجَبَه: اسْتَحَقَّهُ"(٢) وكان أهلا له.

(واستجماع اللُّب) كناية عن اكتماله، يقال "اجْتَمَعَ الرَّجُلُ: إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ"(٣)، وأكده بقوله: (وتبيّن لهم عقله) أي ظهرت حنكته وجودة رأيه، وقدم الجار والمجرور في كل من (له–ولهم) للتخصيص، مع ما بينهما من طباق، وبين (لبه وعقله) من ترادف، وسجع بين الفقرات، حسن وقعه ولطف موقعه.

و(افتقاد جهله) كناية عن علمه بكل ما يعرض عليه، بما يوضح أحقيته لتقلد الرياسة والإمساك بزمامها، ولهذا وذاك (رأوه لذلك أهلا، لمّا أطاق له حملا)، يقال: "هُوَ فِي (طَوْقِهِ) أَيْ: فِي وُسْعِه"(٤)، و"لِأَنَّهُ إِذَا أَطَاقَهُ فَكَأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَدَارَ بِهِ مِنْ جَوَانِبِهِ"(٥)، بما يدل على تبصره ومعرفته بكل أحواله.

---

(١) الفروق اللغوية: ٢٥١.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس: مادة (وجب).

(٣) السابق: مادة (جمع).

(٤) مختار الصحاح: مادة (طوق).

(٥) مقاييس اللغة: مادة (طوق).

فكل ذلك جعله لرياستهم أهلًا، أما وقد قَدُم نبيّ الأمة، خير البشر وأعظم البرية ﷺ ، فقد اختفت أي منزلة، وخفت ضوؤها كما يخفت ضوء الكواكب بظهور نور الشمس المشرقة، وهو ما بدل شأنه، وأفقده صوابه، وصيره حاقدا حاسدا، فقد زال ما كان له من رياسة، وما تقلد من زعامة، وصيره الحسد إلى أخس الصفات وأرذلها وهو النفاق، بعد أعظمها وأكرمها، وصور الجاحظ ذلك بقوله:

(فلما بعث الله نبيّه ﷺ وقدم المدينة، ورأى هو عزّ رسول الله ﷺ شمخ بأنفه فهدم إسلامه لحسده، وأظهر نفاقه)، وذكر الضمير (هو) لتقرير ما صار إليه بعد رؤيته مكانة رسول الله ﷺ ، ومنزلته الشريفة بين المهاجرين والأنصار، والذي نتج عنه أن تجبر فـ (شمخ بأنفه فهدم إسلامه لحسده، وأظهر نفاقه) كناية عن تكبره الذي صيره منافقًا فأفقده دينه ودنياه٠

وقوله (هدم إسلامه) استعارة مكنية، تصور الدين بناء قويا، يحمي من يلوذ به، ويحتمي بأركانه، ولكن هذا المنافق بسبب حسده هدم دينه وتخلى عنه، وبقي في عراء لا ينجيه من الله شيء٠

ويمكن جعلها تبعية في الفعل (هدم) حيث شبه الكفر والنفاق بالهدم بجامع الإفساد وسوء العاقبة، وعلل ذلك بالحسد مستخدمًا (لام) التعليل٠

وهو ما أكده أيضا عن طريق المذهب الكلامي [١]بقوله: (وما صار منافقا حتّى كان حسودا، ولا صار حسودا حتّى صار حقودا، فحمق بعد اللّبّ، وجهل بعد العقل، وتبوّأ النّار بعد الجنّة)، وهنا يبدو إعمال الجاحظ للعقل والمنطق، حيث جعل نفاقه نتيجة حسده، وحسده نتيجة حقده على المحسود

(١) عرفه ابن المعتز في كتابه بأنه " إيراد حجة على المطلوب على طريقة أهل المنطق، وهي أن تكون المقدمات مستلزمة للمطلوب، والجاحظ هو الذي سماه هذا الاسم"، البديع في البديع: لابن المعتز (المتوفى: ٢٩٦هـ)، ص٣١٠ .

وكرهه له، فعمد الجاحظ على إثبات معناه بحجة عقلية، تقطع الشك فيه، كما قام بتكرار معانيه، لتأكيد استحقاقه ما ينتج عنها وهي النار، حيث كان استحقاقها بسبب الحسد الذي قاده إلى النفاق، وأتى بمراعاة النظير بين (حسودا وحقودا) ليوضح سببية كل منهما في تغير شأنه، وتبدل حاله، مع ما بين (حسودًا وحقودًا) من سجع متوازي أحدث اتساقا وتلاؤما بين الجملتين.

كما أتى بـ(الفاء) الدالة على الترتيب التعقيبي[١]، في (فحمق بعد اللب)؛ لترتب الحمق والجهل، على الحسد والحقد، وهو أيضا ترتيب منطقي يشير إلى منهج الجاحظ في التفكير، ولا غرابة في ذلك؛ "لأنه مأخوذ من علم الكلام الذي هو عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية،"[٢] فقد كان الجاحظ من علماء علم الكلام، وهو الذي نسبت إليه تسمية هذا اللون البديعي القائم على المنطق والعقل، "قال المرزباني، قال أبو بكر أحمد بن عليّ: كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحّر فيه شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين وفي حكاية مذهب المخالفين، والآداب والأخلاق، وفي ضروب من الجد والهزل، وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها"[٣].

---

(١) أوضح المسالك: لابن هشام ، ١٨٤/١.

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: لابن أبي الإصبع العدواني (المتوفى: ٦٥٤هـ)، ١١٩، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي.

(٣) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: لياقوت، ٢١٠١/٥.

كما طابق بين (صار، وكان – والحمق، والعقل – والنار، والجنة) ليؤكد اختلاف الشأن وتغير الحال بسبب تملك الحسد قلبه، فما كان عليه من عقل يقوده إلى الجنة، تبدل شأنه وصار إلى حمق قائده إلى النار٠

وقد اعتمد الجاحظ في سرد تلك القصة على الأفعال الماضية التي تلائم مقام الحكاية، وتؤكد حصولها، وهي (كان– استوجب– استجمع– تبين– افتقدوا– رأوا– أطاق– بعث– قدم– رأى– شمخ– فهدم– أظهر–صار– فحمق– جهل– تبوأ– خطب– فشكاه– فقالوا– عقدنا– فوضعه –أظهر)، وأتى بالفاء الدالة على الترتيب، والتعقيب، مع كل من (فهدم– فحمق– فوضعه)، إذ كان الهدم عقب الكِبْر، والحُمْق، والضعة عقب الحسد والحقد، كما وصل بين تلك الجمل؛ لاتفاقها في الخبرية لفظا ومعنى٠

وأتي الجاحظ بالأسلوب الخبري الذي يقرر ظهور تلك الصفة الذميمة واضحة عليه، وعدم استطاعته كتمانها بقوله: (ولقد خطب النبي ﷺ بالمدينة فشكاه إلى الأنصار فقالوا: يا رسول الله لا تلمه فإنا كنا عقدنا له الخرز قبل قدومك؛ لنتوّجه)، وأكد ذلك بكل من (اللام، وقد) وصيغة الماضي (خطب، شكاه، قالوا، كنا، عقدنا)، وتلاحم مع الخبر الإنشاء بالنداء الحقيقي، والنهي الذي قصد به الالتماس بقولهم (لا تلمه) أي التمس له العذر ولا تؤاخذه، وعللوه بقولهم: (فإنا كنا عقدنا له الخرز)، كناية عما كان له من زعامه، وقد تحولت عنه بقدومه ﷺ المدينة، وأكدوا ذلك بـ (إن)،الفعل الماضي المضاف لضمير التكلم٠

ثم يأتي الجاحظ بأسلوب الشرط بطريق المذهب الكلامي أيضًا، ليوضح نتيجة حسده بقوله:(ولو سلم المخذول قلبه من الحسد، لكان من الإسلام بمكان، ومن السؤدد في ارتفاع، فوضعه الله لحسده وأظهر نفاقه)، فـ(لو) هنا حرف امتناع، إذ امتنع أن يكون له مكانة في الإسلام، لحسده وعدم سلامة

قلبه، ونتج عنه أن وضع الله مكانته، وسلب منزلته، وعلم الناس نفاقه، وهي حجة عقلية تظهر سبب ضعته، وهو عدم سلامة قلبه، وقد يكون الجاحظ تأثر في أسلوبه هذا بقول المولى سبحانه: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾(١)[الأنبياء: آية ٢٢]٠

كما استدل الجاحظ على ضعة الحاسد وتحقير شأنه بقول الشاعر:

طَالتْ علىَ الحَاسِدِ أحْزَانه ∴ فاصْفَرَّ من كَثْرةِ أَحْزانِه

دَعْهُ فَقَدْ أشْعَلت في جَوْفِهِ ∴ مَا هَاجَ في حَرِّ نيرَانِه

العَيْبُ أشْهَى عِندَه لَـــذَّة ∴ منْ لذَّة المَالِ لِـخَزَّانِه

فَارِمِ علىَ غَارِبِـــهِ حَبْلَهُ ∴ تَسْلَمْ من كَثْرةِ بُهْتَانِه

وهنا كرر الشاعر بعض الألفاظ لتوضيح نتيجة الحسد وما يفعل بصاحبه، في كل من (الحسد – الأحزان – اللذة – الكثرة)؛ ليكشف ما تنطوي عليه نفس الحاسد من حقد وحزن وإن تظاهر بالود الكاذب، لغلبة مكنونه، وخبث ضميره٠

وهنا تلاحم كل من الخبر والإنشاء في بيان مقصد الشاعر وغرضه، حيث جاء في كل من البيت الأول والثالث: بالأسلوب الخبري، الذي قُصد به التعجب من حال الحاسد، والإنشاء في البيتين الثاني والرابع، حيث ورد فعل الأمر فيهما مقصودا به التيئيس من صلاحه، ودل عليه بقوله: (كثرة بهتانه)، فمن كثر كذبه لا يرجى صلاحه، وأكده بتقديم كل من الظرف (عنده)، والجار والمجرور (على غاربه)٠

(١) خلافا لابن المعتز الذي نسبه إلى التكلف، "وزعم أنه لا يوجد في القرآن منه شيئاً". (انظر: البديع: ص١٤٧)٠

والتعبير باللون (الأصفر) كناية عن صفه، إذ أنه دليل على شدة ما أصابه من هم، أفقده طبعه وطبيعته، ويوضح سببه عن طريق استعارة النيران المشتعلة لما في قلبه من حسد، حيث يظهر فعله وأثره، على الاستعارة التصريحية.

كما شبه رغبة الحاسد وشدة حرصه على إظهار عيب المحسود، برغبة الخزان للمال، مستخدما صيغة التفضيل (أشهى) أي أكثر منه حرصا، إلى جانب ما دلت عليه بعض الألفاظ التي بها إطالة الصوت عن طريق المد بالألف في كل من (طالت، الحاسد، أحزانه، هاج، نيرانه، المال، لخزانه، غاربه، بهتانه)، وما توحى به من حزن وضيق يشعر به الحاسد، وكأنه يستغيث.

وقد اقتبس الجاحظ تلك القصة وعرضها؛ لتكون صورة واقعية ملموسة للحسد ظهرت في عهد الرسول ﷺ الذي لا يحسده على ما اجتباه الله به من منزلة إلا كافر أو ضال، ومن خلال تلك القصة يتبين لنا عناية الجاحظ بالتصوير الواقعي لشخصية الحاسد، الذي يقوم على الوصف الحسي الدقيق للتفاصيل المتعلقة بالأشياء المادية، والحركات، والهيئات، والعلاقات، على نحو يقوم على التعمق في تصوير الدخائل النفسية لشخصية الحاسد.

فالنثر الواقعي عند الجاحظ يستمد موضوعاته وشخصياته من الحياة الواقعية، "فهو يصور ما يقع في الحياة أو ما هو ممكن الوقوع، فصورة الحاسد صورة حية مفعمة بالتفاصيل التي تجعلنا نتصور حركاته وأهوائه وهواجسه "[(١)]، وقد عرضها الجاحظ عرضًا ممتعًا كشف ملامح الحاسد ودخائل نفسه بدقة ووضوح .

(١) انظر الجاحظ عند الدارسين : ص٥١٣.

خامساً: **وصف الجاحظ لحسد الجيران**:

النص:

من أنواع الحسد التي ذكرها الجاحظ في رسالته الحسد بين الجيران يقول:

[وذلك أنّ الجيران- يرحمك الله- طلائع عليك، وعيونهم نواظر إليك، فمتى كنت بينهم معدما فأيسرت، فبذلت وأعطيت، وكسوتِ وأطعمت، وكانوا في مثل حالك فاتّضعوا، وسلبوا النعمة وألبستها أنت، فعظمت عليهم بليّة الحسد، وصاروا منه في تنغيص آخر الأبد، ولولا أن المحسود بنصر الله إيّاه مستور، وهو بصنعه محجوب لم يأت عليه يوم إلّا كان مقهورا، ولم تأت ليلة إلا وكان عن منافعه مقصورا، ولم يمس إلّا وماله مسلوب، ودمه مسفوك، وعرضه بالضّرب منهوك][(١)].

وهنا ينتقل الجاحظ كعادته في الاستطراد إلى الحديث عن الحسد بين الجيران، وذكر أسبابه، مستخدمًا الأسلوب الخبري المؤكد بـ(الجملة الاسمية، وأنَّ)؛ لتقرير ما سيذكر من صفات الجار وأحواله، والمقام هنا ليس مقام شك من المخاطب، ولكن الكاتب أتى بأداة التأكيد لحرصه على إبراز تلك الصفة من الجار، وحتى ينتبه المخاطب إلى خطرها، ويعمل على تجنبها، وذلك لأن الجار أقرب الناس إلى جاره، والأكثر اطلاعا عليه، ولذا اعترض حديثه عنه بتكرار الدعاء مرة أخرى بقوله: (يرحمك الله)، مشيرا إلى أنه لا يسلم من حسد الجيران إلا من أسبل الله عليه رحمته، فأغفله عن أعينهم، وعلَّله بأنهم (طلائع عليك، وعيونهم نواظر إليك)، والخطاب عام، والجملة الإسمية تدل

(١) الرسائل الأدبية: ص ١١٩.

على ثبوت[١] الصفة، فالجار كثير الاطلاع على شئون جاره والعلم بأموره وأفعاله، وتكرار الضمير في (عليك، وإليك)؛ للتأكيد ، مع ما بينهما من جناس المصحف، وعطف كل من الأفعال (فأيسرت، فبذلت، وأعطيت، وكسوت وأطعمت) لتنوعها وكثرتها، ولذلك نوع حروف العطف لتنوع المعنى، والتعبير بـ(وكانوا في مثل حالك) كناية عما بينهما من تشابه٠

وهنا يأتي الجاحظ بعدد من الجمل التي تكشف حسد الجار إذا تبدل حاله وجاره، فأعسر منهما من كان موسرا، وأيسر من كان معسرا بقوله: (وسلبوا النعمة وألبستها أنت)، وسلب النعمة كناية عن افتقارهم، وحاجتهم بعد الغنى، وهو أقوى أسباب الضغينة والحسد، لذا وصفهم بقوله: (فعظمت عليهم بليّة الحسد، وصاروا منه في تنغيص آخر الأبد)، بسبب تحول النعمة عنهم، وأتى بـ(واو) العطف للاشتراك في الخبرية لفظا ومعنى، وتقديم الجار والمجرور (عليهم) للتأكيد، ووصف الحسد بأنه (بلية)، لإهلاكه لهم يقال: "البَلاءُ: الغَمُّ كأَنَّه يُبْلي الجِسْمَ،....وقالَ ابنُ الأَعْرابيِّ: البَلِيَّةُ والبَلايا الَّتِي قد أَعْيَت وصارَتْ نِضْوًا هالِكاً"[٢].

ومن البين في تلك الفقرة مراعاة الترتيب الزمني بين الأحداث عن طريق استخدام فاء التعقيب بقوله: (فمتى كنت بينهم معدما فأيسرت، فبذلت وأعطيت، وكسوت وأطعمت، وكانوا في مثل حالك فاتّضعوا، وسلبوا النعمة وألبستها أنت، فعظمت عليهم بليّة الحسد)، فهو يعرض أمورًا يترتب كل منها على الآخر في تسلسل حدثا تلو الآخر٠

---

(١) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: لعبد المتعال الصعيدي ، ١٨٧/١ ٠

(٢) تاج العروس: مادة (بلي)

وقوله: (وصاروا منه في تنغيص آخر الأبد)، كناية عن كدر العيش وسوء الحال، "يُقَال: نَغِصَ الرجل نَغَصًا إذا لم تتمّ لَهُ هناءته، وقَالَ: نَغَّصَ علينا، أَي: قطعَ علينا مَا كُنَّا نحبُّ الاستكثار مِنْهُ"(١)، ولفظ (صاروا) يشير إلى تبدل النعمة وتغير الحال، وتقديم الجار والمجرور(منه) للتأكيد على سببية الحسد في تنغص حياتهم، وتبدل أحوالهم، ودلالة حرف الجر (في) على انغماسهم في تلك الحال، من تنغيص وكدر، هي من الاستعارة التبعية في الحرف، فلفظ (في) موضوع في أصل معناه "للظرفية مَكَانا وزمانا"(٢)، فهي مستخدمة لتلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين(٣)، واستعملت هنا في غير ما وضعها، لأن ما بعدها لا يصلح للظرفية الحقيقية؛ لأن التنغيص معنى، لكن لما كانت التنغيص متمكن من الحاسد تمكن الظرف من المظروف الحقيقيين، شبه التنغيص بالظرف الحقيقي في شدة التمكن منه، ثم استعير لفظ (في) تجوزا، حيث شبه التنغيص بالظرف الحقيقي، بجامع التمكن في كل، ثم سري هذا التشبيه إلى تشبيه تلبس التنغيص بالحاسد، بتلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين، بجامع مطلق تلبس شيء بشيء، ثم استعير لفظ (في) الموضوع لتلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين؛ لتلبس التنغيص بالحاسد، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الحرف.

والذي سوغ الاستعارة ما بينه الآمدي، حيث وضح "أن النهج العربي في أسلوب الاستعارة أن العرب إنما تستعير لمعنى ما ليس له إذا كان يقاربه، أو يدانيه، أو يشبهه في بعض أحواله، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة

---

(١) تهذيب اللغة : مادة (نغص).

(٢) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ٤٤٥/٢، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية.

(٣) ينظر المنهاج الواضح للبلاغة: المؤلف: حامد عونى ١١٢/١ .

بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه، وهو بهذا يشرح الاستعارة ويبين الحد الفاصل بين جميلها وقبيحها"[١]،والقيد بكونه إلى آخر الأبد، لتأكيد استمرار تنغص الحاسد وكدر حياته.

ثم يؤكد الجاحظ على عناية المولى – سبحانه وتعالى– بالمحسود ونصره إياه بقوله: (ولولا أن المحسود بنصر الله إيّاه مستور، وهو بصنعه محجوب لم يأت عليه يوم إلّا كان مقهورا، ولم تأت ليلة إلا وكان عن منافعه مقصورا، ولم يمس إلّا وماله مسلوب، ودمه مسفوك، وعرضه بالضّرب منهوك).

وهنا يوضح فضله –سبحانه– على المحسود بحمايته من شر الحاسد وأذاه، عن طريق التلاحم بين أسلوبي الشرط والقصر اللذين بنيت عليهما تلك العبارة، فأتى بـ (لولا) وهي حرف امتناع لوجود[٢]، وكرر القصر بطريق النفي والاستثناء، لزيادة التأكيد، وهو واقع جواب الشرط، إذ لولا حماية الله وستره لكان مقهورًا، وعن تحقيق أهدافه مقصورًا، وقدم الجار والمجرور في كل من (بنصر الله)، و(عليه)، والضمير المنفصل (إياه)؛ للتأكيد، فلا ينجو المحسود إلا بنصره – سبحانه– وبصنعه، وبين كل من ألفاظ (يوم، وليلة، ومساء)، و(مسلوب، ومسفوك، ومنهوك)، مراعاة نظير تشير إلى شمول تلك الحال من القهر، والقصور، والسلب، والسفك جميع الأوقات، وتخصيص (الليل، والمساء) من اليوم دون النهار؛ لأنهما الأوقات التي تتجمع فيهما الهموم، وتنتهي إليهما الأحداث والوقائع، التي فصَّل أحوالها بقوله: (ولم يمس إلّا

---

(١) الإيضاح: ٢٣١/٣.

(٢) "(لَوْلَا ولوما حرفا امْتنَاع لوُجُود) نَحْو لَوْلَا زيد لأكرمتك فَامْتنعَ الْإِكْرَام لوُجُود زيد (وَإِنَّمَا يَليهَا اسْم أَو أَن) الثَّقِيلَة"، (همع الهوامع في شرح جمع الجوامع)، للسيوطي ، ٥٧٥/٢ .

وماله مسلوب، ودمه مسفوك، وعرضه بالضّرب منهوك)؛ لتوضيح فضل الله ورحمته به، إذ لولا ستره سبحانه لحدث له ذلك، ولكن كفاه شره، ونجاه بنصره، وقد نوع الجاحظ فواصل تلك الفقرات بما يلائم كل معنى فكان السجع موافقا للغرض غير تكلف٠

وبعد أن تحدث الجاحظ عن الحسد بين الجيران، أخذ في تصوير مدى تمكن الحسد من قلب الحاسد وسيطرته عليه، مؤكدًا على عدم إمكانية كتمانه أو مداراته٠

سادساً: **تصوير الجاحظ لتملك الحسد للحاسد** :

النص:

[وأنا أقول حقا: ما خالط الحسد قلبا إلّا لم يمكنه ضبطه، ولا قدر على تسجينه وكتمانه، حتى يتمرّد عليه بظهوره وإعلانه، فيستعبده ويستمليه، ويستنطقه لظهوره عليه، فهو أغلب على صاحبه من السيّد على عبده، ومن السّلطان على رعيّته، ومن الرّجل على زوجته، ومن الآسر على أسيره]٠

وهنا يؤكد الجاحظ كلمة حق نسبها إلى نفسه عن طريق الاختصاص[١]، لـ"مراعاة نظم الكلام، وذاك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم"[٢]،حيث قدم ضمير التكلم، بقوله: (وأنا أقول حقًا)، لتأكيد قوله، وليس لقصر الحق عليه دون غيره، وأتى بصيغة المصدر للتنبيه على حقيقته، وأنه لا مراء فيه، وزاده إثباتًا وتوضيحا بطريق النفي والاستثناء بقوله: (ما خالط الحسد قلبا إلّا لم يمكنه ضبطه)، والمخالطة توحي بالامتزاج الذي لا يمكن فصل مكوناته، وعدم إمكان ضبطه يدل على شدة تحكمه بصاحبه٠

(١) يقصد به "تخصيص حكم علق بضمير باسم ظاهر"، (الإيضاح:٩١/٣)٠

(٢) المثل السائر: ١٧٣/٢.

وهو ما وضحه بقوله: (ولا قدر على تسجينه وكتمانه، حتى يتمرّد عليه بظهوره وإعلانه، فيستعبده ويستمليه، ويستنطقه لظهوره عليه)، مؤكدًا على تمرد الحسد وسيطرته على الحاسد عن طريق الاستعارة المكنية، بتصويره شخصا متمردا لا يمكن حبسه، لسيطرته علي مشاعر الحاسد وقلبه، فهو المتحكم في أفعاله وأقواله، حتى إذا حاول مدراته، تمرد عليه، وأعلن عن وجوده، ولم يجب رغبة صاحبه، لقدرته عليه، وتمكنه منه، وأكده بالمقابلة بين كل من (تسجينه وكتمانه- وبين ظهوره وإعلانه)، ومراعاة النظير بين (يستعبده، ويستمليه، ويستنطقه) فقد أصبح الحاسد عبدًا لحسده يملى عليه ما يفعل، وعلله بكل من (لام التعليل)، وأفعل التفضيل بقوله: (لظهوره عليه فهو أغلب على صاحبه من السيّد على عبده، ومن السّلطان على رعيّته، ومن الرّجل على زوجته، ومن الآسر على أسيره)، وقد حذف بعض الجمل؛ لدلالة ما قبله عليه تجنبا للملل، وترهل العبارات، والتقدير: (وهو أغلب على صاحبه من السلطان....ومن الرجل...إلخ تلك الجمل)، التي يصور بها غلبة الحسد، وسيطرته على الحاسد، بواسطة التشبيه المتعدد، الذي يوضح مقدار تلك السيطرة التي تشبه سيطرة كل من السيِّد على عبده، والسّلطان على رعيّته، والرّجل على زوجته، والآسر على أسيره)، ووصل بين تلك الجمل جميعا بـ(الواو) للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع؛ لاشتراكها جميعا في توضيح صورة المشبه به، وبيان قدرة الحسد، ومقدار تحكمه في أقوال الحاسد وأفعاله، مهما جاهد نفسه أو حاول كتمانه.

وجاء تشبيه الحسد بكل من (السيد، والسلطان، والرجل، والآسر)؛ لما يمتلك هؤلاء من قدرة وسلطان على من هم تحت إمرتهم، وفي المقابل شبه الحاسد بكل من (العبد، والرعيّة، والزوجة، والأسير)، ليبين مقدار ذلك التملك

ومدى تحكمه فيه، وقد بنى الجاحظ هذا التشبيه على الطباق بين تلك الألفاظ جمعيًا، وتكراره، لتأكيد تمكن الحسد من الحاسد٠

وبعد أن استطرد الجاحظ – وهو من خصائص كتاباته– بالحديث عن الحسد بين الجيران، وعدم امكان كتمانه، عاد إلى السرد القصصي مرة أخرى؛ ليظهر مقدار تمكن الحسد من الحاسد، وتحكمه في أفعاله، واستشهد عليه بحسد كل من ابن الزبير وأخوة يوسف عليه السلام٠

سابعاً: **حسد ابن الزبير لبني هاشم**:

وهنا يدلل الجاحظ على صحة تشبيهه السابق، مبرزا مدى تملك الحسد لصاحبه٠

النص:

يقول الجاحظ: [وكان ابن الزّبير بالصبر موصوفا، وبالدّهاء معروفا، وبالعقل موسوما، وبالمداراة منهوما، فأظهرَ بلسانه حسدا كان أضَبّ عليه أربعين سنة لبني هاشم، فما اتّسع قلبه لكتمانه، ولا صبر على اكتتامه، لمّا طالت في قلبه طائلته أظهره وأعلنه، مع صبره على المكاره، وحمله نفسه على حتفها، وقلة اكتراثهِ والتفاتهِ لأحجار المجانيق التي كانت تمرّ عليه فتذهب بطائفةٍ من قومه ما يلتفتُ إليها٠

حُدّثتُ بذلك عن عليّ بن مسهر عن الأعمش، عن صالح بن حَبّاب، عن سعيد بن جبير قال: قدتُ ابنَ عباس حتّى أدخلتهُ على ابن الزّبير، قال: أنتَ الذي تُؤَنّبُني؟ قال: نعم، لأنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليس بمؤمن من بات شبعانَ وجارُه طاوٍ» . فقال له ابن الزّبير: لمِن قلت ذلك؟ إنّي لأكتم بغضكم أهل البيت مذ أربعين سنة، فحسرَ ابن عباس عن ذراعيه كأنّهما عسيبا نخل، ثم قال لابن الزبير: نعم فليبلغ ذاكَ منكَ، ما عرفتُك٠

ولقد أجلت الرأي ظهرا لبطن وفكرّت في جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسدِ فلم أجده، وكانت وخزة في قلبه فلم يُبدها. وفروع بني هاشم

حول الحرم باسقة، وعروق دَوحاتهم بين أطباقها راسية، ومجالسُهم من أعاليها عامرة، وبحورها بأرزاق العباد زاخرة، وأنجمها بالهدى زاهرة. فلمّا خلت البطحاء من صناديدها استقبله بما أكنَّ في نفسه٠

والحاسد لا يغفلُ عن فرصته إلى أن يأتيَ الموت على رِمّته، وما استقبل ابن عبّاس بذلك إلّا لمّا رأى عمر قدّمه على أهل القَدَم، ونظر إليه، وقد أطاف به أهل الحرم، فأوسعهم حكما، وثقبوا منه رأيا وفهما، وأشبعهم علما وحلما]٠

وفي هذا الجزء يوضح الجاحظ مقدار تملك الحسد للحاسد، وتمكنه منه، عن طريق العودة إلى سرد قصة حقيقية، ومثال واقعي، هو حسد ابن الزبير لبني هاشم، الذي استمر يعتلج الحسد في صدره أربعين سنة،لم يستطع خلالها نسيانه أو كتمانه، حتى دفعه إلى إعلانه، غير مكترث بعقوبة٠

وبنى الجاحظ كلامه على الأسلوب الخبري، وهو الملائم للعرض القصصي، وساق تلك القصة، لتكون دليلا واضحا، وشاهدا بيينًا، يثبت ما رآه حقًا، وهو من أساليب الجاحظ وطرقه في الاستدلال، فهو يذكر الفكرة ويدلل عليها بالبرهان المحسوس، وبدأ حديثه ببيان صفات ابن الزبير التي كان معروفا بها، بقوله: (وكان ابن الزّبير بالصبر موصوفا، وبالدّهاء معروفا، وبالعقل موسوما، وبالمداراة منهوما)، وقدم الجار والمجرور في كل من (بالصبر، وبالعقل، وبالدهاء، وبالمداراة)، للعناية بتلك الصفات والتأكيد على اتصافه بها، وأتى بـ(واو) العطف للتوسط بين الكمالين، لاشتراك تلك الجمل في الإخبار عما عرف به من صفات، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع كتمان ما حل في قلبه من حسد، يقول: (فأظهر بلسانه حسدا كان أضبّ عليه أربعين سنة لبني هاشم)، "قَالَ اللَّيْث: أضب الْقَوْم، إِذا تكلمُوا، وأضبوا، إِذا سكتوا، وَزعم أَنه من الأضداد.... وَقَالَ اللَّيْث: أضب الرجل على حقد فِي

الْقلب"[١] كناية عما يشعر به من كره وبغض لم يستطع نسيانه، يقول (فما اتّسع قلبه لكتمانه، ولا صبر على اكتتامه[٢]، لمّا طالت في قلبه طائلته أظهره وأعلنه) ونفي اتساع القلب كناية عن شدته وعظمته، وكرر النفي في (ولا صبر) للتأكيد، مع ما في التعبير بلفظ (اكتتامه) من المبالغة، وتكرار كل من (كتمانه، واكتتامه– وأظهره، وأعلنه) من التأكيد اللفظي الذي يدل على عدم إمكان مداراته٠

ثم يوضح سبب إعلان حسده بقوله (لمّا طالت[٣] في قلبه طائلته أظهره وأعلنه)، وهو كناية عن تمكنه منه، وعدم القدرة على تحمله، مع ما يوحي به المد في كل من (لمَّا–وطالت–طائلته) من قوة الشعور به، حتى دفعه لإعلانه، غير مكترث بعقوبة، أوما يعرض له من أذى يقول:

(مع صبره على المكاره، وحمله نفسه على حتفها، وقلة اكتراثه والتفاته لأحجار المجانيق[٤]، التي كانت تمرّ عليه فتذهب بطائفة من قومه، ما يلتفت إليها)، وهو كناية عن عظم ما يشعر به من حسد، ومقدار تملكه لقلبه وعقله، حتى أصبح لا يبالي الهلاك٠

وجعل الجاحظ (أحجار المجانيق تمر عليه فتذهب بطائفة من قومه) كناية عن إهلاكهم، وفيه مجاز عقلي علاقته الآلية، إذ إن المار هم الجنود الذين يرمون بها، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة التي تحمل معنى الترهيب والزجر، وأتى بـ(الفاء) للترتيب مع التعقيب٠

---

(١) تهذيب اللغة: لأبي منصور الأزهري ، مادة (ضب)٠

(٢) "كتمت الشئ كتما وكتمانا، واكْتَتَمْتُهُ أيضاً. ومُكَتّم بالتشديد: بولغ في كِتْمانِهِ." الصحاح "مادة (كتم)٠

(٣) "يقال: لقد طال طِوَلُك يا فلان، إذا طال تماديه في أمرٍ وتراخيه عنه. "(العين : للخليل بن أحمد) ٠

(٤) "المَنْجَنِيقُ والمِنْجَنِيقُ، بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا، والمَنْجَنُوق: القَذَّاف، الَّتِي تُرْمَى بِهَا الْحِجَارَةُ، مُعَرَّبٌ"،(لسان العرب مادة (مجنق))٠

ويستدل الجاحظ على حسده هذا بما حُدِّث به عن (عليّ بن مسهر عن الأعمش، عن صالح بن حبّاب، عن سعيد بن جبير قال: قدت ابن عباس حتّى أدخلته على ابن الزّبير، قال: أنت الذي تؤنّبني؟ قال: نعم، لأنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس بمؤمن من بات شبعانَ وجاره طاو»[1]. فقال له ابن الزّبير: لمن قلت ذلك؟ إنّي لأكتم بغضكم أهل البيت مذ أربعين سنة. فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنّهما عسيبا نخل، ثم قال لابن الزبير: نعم فليبلغ ذاك منك، ما عرفتك)٠

واستفهام ابن الزبير بقوله: أنت الذي تؤنّبني؟ تقريري لإثبات ما بلغه من تأنيب، حيث أقر ابن عباس بذلك وأجابه (نعم)، وحذف المسند للعلم به من السؤال، وعلل سبب تأنيبه بقوله: (لأني سمعت)، و(اللام) للتعليل، و(أنَّ) لتأكيد سماعه قول الرسولﷺ ، الذي يبين حق الجار على جاره، عن طريق الخبر المنفي غير المؤكد، إذ لا ينكره أحد يعلم حقوق جاره٠

والغرض من الحديث هو حث المؤمنين وحضهم على الوفاء بحق الجار، إذ ليس بالمؤمن الكامل الإيمان من يبيت شبعانَ وجاره طاو وهو يعلم به، لإخلال ذلك بما توجبه شريعة الإسلام من حق الجوار، والمراد بالنفي هنا نفي كمال الإيمان، لا أصله؛ لأنه يدل على قسوة القلب، ويظهر شدة الشح، وسقوط المروءة٠

---

(١) وروي «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَبِيتُ شَبْعَانَ وَجَارُهُ طَاوٍ».
قَالَ الْبَزَّارُ: لا نَعْلَمُهُ يُرْوَى عَنْ أَنَسٍ إلا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. (كشف الأستار عن زوائد البزار) لأبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى١٣٩٩هـ-١٩٧٩م٠

وطابق بين لفظي (شبعان، وطاو) ليوضح اختلاف الحالين، وأن ذلك لا ينبغي أن يكون من كاملي الإيمان، مع ما يوحي به لفظ طاوٍ[١] من شدة الجوع.

ثم نجد إنكار ابن الزبير لذلك بقوله: لمن قلت ذلك؟ وهو استفهام إنكاري يشير إلى ما يضمر من حقد، وأن ذلك القول لا ينبغي أن يكون له، ويكشف عن سببه بقوله: (إنّي لأكتم بغضكم أهل البيت مذ أربعين سنة)، وتحديده لذلك الزمن البعيد يدل على مقدار ما يكن من حسد وبغض مَلَك قلبه، ولم تضعفه توالى العقود والأيام، وأكده بكل من (إن، واللام، والجملة الاسمية)، والمقام هنا يستدعي تلك المؤكدات جميعا، إذ لا يصدق من مسلم حمل كل ذلك الحقد لآل بيت النبي ﷺ .

ويبين الجاحظ هيئة ابن عباس عندما أجابه بذلك بقوله: (فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنّهما عسيبا نخل)[٢]، والفاء للتعقيب، وهو يشبه زراعي ابن عباس بعسيب النخل، موضحا نحافته ودقة بدنه.

(ثم قال لابن الزبير: نعم فليبلغ ذاك منك، ما عرفتك) فيقر قوله ويؤكد عدم اعتداده به، عن طريق الفعل المضارع المقترن بلام الأمر، تهوينا له وتحقيرا لشأنه، وقوله : (ما عرفتك) كناية عن استمراره فيما هو عليه من حسد أمد حياته.

ثم يكشف الجاحظ عن سبب ذلك العداء بقوله: (ولقد أجلت الرأي ظهرا لبطن وفكرّت في جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسد فلم أجده)،

---

(١) "طَوَى مِنَ الْجُوعِ يَطْوِي طَوًى فَهُوَ طَاوٍ أَيْ خَالِي الْبَطْنِ جَائِعٌ لَمْ يَأْكُلْ"، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي:٧/٢١، لأبي العلاء المباركفوري (المتوفى: ١٣٥٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

(٢) "جريد النّخل إذا نحِّي عَنهُ خُوصه" (تهذيب اللغة مادة (عسب)).

فبعد تدبر لجواب ابن الزبير لم يجد الجاحظ سببا لعدائه هذا سوى حسد بني هاشم على ما لهم من شرف ومنزلة، والتعبير بـ(أجلت وتفكرت) يوحي بكد الذهن وإتعاب العقل في البحث عن سبب ذلك الحقد، الذي أكده بكل من (اللام، وقد، والفعل الماضي، وسوى، والنفي بلم، وتكرار أجد)، إلى جانب تشخيص الرأي على الاستعارة المكنية، حيث جعل له ظهرا وبطنا، يقلبه علي هذا تارة، وتلك أخرى٠

ثم يأخذ الجاحظ في تفصيل ما أجمل من أسباب حسده هذا بقوله: (وكانت وخزة في قلبه فلم يبدها، وفروع بني هاشم حول الحرم باسقة، وعروق دوحاتهم بين أطباقها راسية، ومجالسهم من أعاليها عامرة، وبحورها بأرزاق العباد زاخرة، وأنجمها بالهدى زاهرة، فلمّا خلت البطحاء من صناديدها، استقبله بما أكنّ في نفسه)٠

فيكشف عما يجول في نفس ابن الزبير من عداوة لبني هاشم، ويصورها بأنها (وخزة في قلبه)، والوخز "طعن ليس بنافذٍ، وهو أشدّ من وخز الإبر"[١]، وهو كناية عما يقاسي من ألم العداوة ونار الغيرة ، وحرف الجر (في) يدل على استقرار ذلك في قلبه وتمكنه منه، وقد كتمه ابن الزبير وقتما كان لبني هاشم الكثرة والغلبة، والتي صورها الجاحظ بقوله:(وفروع بني هاشم حول الحرم باسقة، وعروق دوحاتهم بين أطباقها راسية)، وهنا استعار لفظ (الفروع) لأشراف بني هاشم ذلك؛ لأن "فرع كل شيء: أعلاه، ويقال: هو فرْعُ قومه، للشريف منهم"[٢]، وجعلهم بواسق[١] لارتفاع منزلتهم وفضلهم على الناس،

(١) أساس البلاغة: للزمخشري ،٣٢٤/٢.

(٢) الصحاح : مادة (فرع)٠

يقال "بسق على أصحابه: طالهم وفضلهم"[٢]، وهي استعارة تبعية تصور مكانة بني هاشم، وعلو قدرهم، وهو أمر معنوي شبهه الجاحظ بارتفاع النخل وبسوقه، وتلك صورة حسية توضح فضلهم على سائر الخلق، وكونهم حول الحرم يوحي بكثرتهم، وإحاطتهم له من كل جانب، فيكونوا بذلك قد جمعوا بين شرف المكانة والمكان٠

وفي قوله: (وعروق[٣] دوحاتهم[٤] بين أطباقها[٥] راسية[٦])" استعارة تصريحية، توضح كثرة عددهم وعلو منزلتهم، واستقرارهم حول الحرم، وقد استعار الجاحظ عروق الشجر العظام، وجزوره الممتدة في الأرض، لفروع بني هاشم الممتدة في ربوع مكة، كما يبين أن لهم في تلك المواضع مجالس عامرة

---

(١) يقال "بَسَقَتْ النَّخْلَةُ بُسُوقًا مِنْ بَابِ قَعَدَ طَالَتْ فَهِيَ بَاسِقَةٌ وَالْجَمْعُ بَاسِقَاتٌ وَبَوَاسِقُ ... لَا يُقَالُ بَسَقَ بِالسِّينِ إلَّا فِي زِيَادَةِ الطُّولِ كَالنَّخْلَةِ وَغَيْرِهَا " المصباح المنير: مادة (بسق)٠

(٢) أساس البلاغة: ٦١/١.

(٣) معنى "(عَرَقَ) الشَّيْءُ يَتَوَلَّدُ مِنْ شَيْءٍ.... وَعُرُوقُ كُلِّ شَيْءٍ: أَطْنَابٌ تَنْشَعِبُ مِنْ أُصُولِهِ. ...وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: عَرَقُ الرَّجُلِ يَعْرُقُ عُرُوقًا، إذَا ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ. وَهَذَا تَشْبِيهٌ، شُبِّهَ ذَهَابُهُ بِامْتِدَادِ عُرُوقِ الشَّجَرَةِ وَذَهَابِهَا فِي الْأَرْضِ" (مقاييس اللغة: مادة (عرق)) ٠

(٤) "الدَّوَائِحُ: العِظَامُ من الشَّجر": تاج العروس مادة (دوح)٠

(٥) وقال "ابْنُ الأَعرابي: الطَّبَقُ الأُمّة بَعْدَ الأُمّة، الأَصمعي: الطِّبْقُ، بِالْكَسْرِ، الجماعةُ مِنَ النَّاسِ. ابْنُ سِيدَهْ: والطَّبَق الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ يَعْدِلون جَمَاعَةً مِثْلَهُمْ،...وَجَاءَنَا طَبَقٌ مِنَ النَّاسِ وطِبْقٌ أَي كَثِيرٌ"، اللسان مادة (طبق)٠

(٦) "(رَسَا) الشَّيْءُ ثَبَتَ... وَ (الرَّوَاسِي) مِنَ الْجِبَالِ الثَّوَابِتُ "، (مختار الصحاح ، مادة (رس ا))٠

بالوافدين الراغبين في العلم، يقول: (ومجالسهم من أعاليها عامرة)، وهي كناية عن كثرة المترددين عليها٠

كما صور تلك المجالس بحورا تزخر بالأرزاق والعطايا، في كثرتها وغزارة نفعها بقوله: (وبحورها بأرزاق العباد زاخرة) إذ شبه ما يكون فيها من خير للعباد بالبحور الممتلئة بالخيرات والمنافع، ولذا أتى بصيغة الجمع (بحورها –أرزاق–العباد)، ولفظ (زاخرة) يشير إلى الكثرة الوفرة إذ يجد فيها كل مبتغ طلبه وغايته٠

كما يؤكد الجاحظ على النفع المعنوي الذي تمتلئ به تلك المجالس، من علماء عارفين، ينهل الناس من علمهم، ويهتدوا بأقوالهم، كأنهم نجوم لامعة بقوله: (وأنجمها بالهدى زاهرة[١])، وهي استعارة تصريحية تكشف مكانة هؤلاء العارفين، ومنزلتهم بين الناس٠

ثم يبين تغير تلك الحال بما أغرى ابن الزبير بالإفصاح عن مكنونه، والإعلان عن خفي نفسه بقوله: (فلمّا خلت البطحاء من صناديدها [٢] استقبله

---

(١) "الزَّاهِرُ: المُشْرِق من أَلْوانِ الرِّجَالِ " تاج العروس: مادة (زهر)، و"(زاهره) بِالْهَاءِ ..مَعْنَاهُ مَا زهر مِنْهُ زِيّ حسن وأشرق". (تصحيح لسان العرب): لأحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور (المتوفى: ١٣٤٨هـ)، ص ١١٨، الناشر: دار الآفاق العربية – مصر /القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م٠

(٢) ذكر في معناه "الصِّنْدِدُ: (السَّيِّدُ) الشَّريفُ. وَقيل: السَّيِّدُ (الشُّجَاعُ، كالصِّنْديد) والصِّنْتيت. قَالَه الأَصمعيّ. (أَو الحَليمُ، أَو الجَوَادُ، أَو) المَلِكُ الضَّخْمُ (الشَّريفُ) ، قَالَ ابْن الأَعرابيّ: الصَّنَاديدُ: السَّادَاتُ، وهم الأَجْوادُ، وهم الحُلَماءُ، وهُمْ حُمَاةُ العَسْكَرِ، وَفِي الحَدِيث ذكْرُ صَنَاديد قُرَيْشٍ، وهم أَشرافُهم، وعظماؤُهم، الواحدُ صِنْدِيدٌ. وكُلُّ عَظيمٍ غالبٍ، صِنْدِيدٌ" (تاج العروس: مادة (صند)٠

بما أكنّ في نفسه)، ولفظ استقبل يشير إلى العجلة في الكشف عما أخفاه سنين طوال، ويوحي بانتظاره ذلك الوقت الذي يشفي فيه غل صدره ٠

وقد بين الجاحظ ذلك بقوله: (والحاسد لا يغفل عن فرصته إلى أن يأتي الموت على رمّته[١]) ونفي الغفلة كناية عن انتظاره لتلك لحال التي يتشفى فيها من المحسود، فهو ينتظرها وإن طال أمدها، وأضاف الفرصة إلى ضميره لتخصيصه بها، حيث لا ينتظرها غيره، وجعل الموت يأتي على رمته مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون؛ لأن الموت لا يأتي على العظام البالية، وإنما يأتي صاحبها، فيصير رمة بالية٠

وأخيرا وبعد تلك التفاصيل التي ساقها الجاحظ مصورا بها حسد ابن الزبير لبني هاشم، يوضح سبب ذلك الحسد المضني الذي لازمه سنين طوال من غير نسيان بقوله: (وما استقبل ابن عبّاس بذلك إلّا لمّا رأى عمر قدّمه على أهل القدم، ونظر إليه، وقد أطاف به أهل الحرم، فأوسعهم حكما، وثقبوا منه رأيا وفهما، وأشبعهم علما وحلما)، فقصر استقبال ابن عباس بذلك الحقد، وإفصاح ابن الزبير له عن حسده، على ما رآه من إكرام عمر –رضي الله عنه– له، وتقديمه على أهل القدم، زيادة في تكريمه وتشريفه، بما أوغر صدره، وأشعل الحسد بقلبه، والغيرة بنفسه، وأكده بطريق النفي والاستثناء، كما أتى بالجناس الناقص بين لفظي (قدمه –والقدم) ليحقق تلائما لفظيًا، إلى جانب استدعاء المعنى له، وطلبه إياه، وهو بيان سبب حسده وحنقه عليه، وهو من أجمل المواقع التي تظهر استدعاء المعاني للمحسن اللفظي، فهو جناس مطبوع يظهر عدم تكلف الجاحظ، والاتيان بالمحسنات في مواقعها

(١) " الرِّمة: العِظام البالية"، (تهذيب اللغة مادة (رمَّ))٠

التي تتطلبها، والتعبير بـ (ونظر إليه) يشير إلى ما تدل عليه تلك النظرة من حقد، لما رأى له من مكانة، وما وجد من تشريف، أحرق قلبه وأثار حسده٠

ثم فَصَّل ما نظر إليه، وما رآه من تكريم، بعدما أجمله بقوله: (وقد أطاف به أهل الحرم)، كناية عن كثرة من اجتمعوا عليه، والتفوا حوله، بما يوضح ما له من شرف وقدر، يقال "أطاف به، أي ألَمَّ به وقاربه "[١]، بما يدل على حبهم له وتعظيمهم لمكانته، وكشف أسبابه بقوله :(فأوسعهم حكما، وثقبوا منه رأيا وفهما، وأشبعهم علما وحلما)، وأفعل التفضيل هنا كناية عن مكانته فيهم، وفضله عليهم، وهو تفصيل لما يتحلى به ابن عباس من خلال كريمة، أثارت حسد أعدائه وزادت حقدهم٠

ومن الملاحظ تأخير الجاحظ ذكر سبب حسد ابن الزبير لبني هاشم بعدما ساق قصته مع ابن عباس، قد يكون ذلك لأنه لا يبالي بالسبب؛ لأنه أمر مسلم به، لا غرابة فيه، فابن عباس أهل لتلك المكانة، وذلك الإكرام، وأن عناية الجاحظ كانت مركوزة على المسبب، وهو ما علق في نفس ابن الزبير من عداوة وحسد جعلته يقول ما لا يحق ولا يقبل٠

وبعد سرد الجاحظ لتلك القصة لابن الزبير يواصل سرده لقصة أخرى مشهورة من قصص الحسد، وهي حسد إخوة يوسف –عليه السلام–، منوعا في استشهاده على وجود الحسد بين شخوص مختلفة هي من الشهرة والمنزلة بمكان٠

****

(١) الصحاح : (مادة طوف)٠

ثامناً: **حسد إخوة يوسف**:

النص:

ومن الأمثلة التي ساقها الجاحظ أيضا للتأكيد على عدم إمكان مداراة الحسد، أو الغفلة عنه، قصة حسد إخوة يوسف –عليه السلام – لأخيهم، وهم أبناء أنبياء، ورثوا الحلم والعلم، يقول الجاحظ واصفا حسدهم:

[فصل منه: وكيف يصبر من استكنّ الحسد في قلبه على أمانيه، ولقد كان إخوة يوسف حلماء، وأجلّة علماء، ولدهم الأنبياء، فلم يغفلوا عمّا قدم في قلوبهم من الحسد ليوسف، حتّى أعطوا أباهم المواثيق المؤكّدة، والعهود المقلّدة، والأيمان المغلّظة، إنّهم له لحافظون، وهو شقيقهم وبضعة منهم.

فخالفوا العهود، ووثبوا عليه بالظلم، وألقوه في غيابة الجبّ، وجاءوا على قميصه بدم كذب، فبظلمهم يوسف ظلموا أباهم، طمعا أن يخلو لهم وجه أبيهم وينفردوا بحبه، وظنوا أن الايام تسليه، وحبه لهم من بعد غمه يلهيه، فأسالوا عبرته وأحرقوا قلبه. وكيف تقر أعين المحسودين بعد يوسف، وقد ملكه الله خزائن الأرض بصبره على أذى حساده، ومقابلته إياهم بالعفو، والمكافأة، وحسن العشرة، والمؤاخاة، بعد إمكانه منهم، كما أتوه ممتارين رفدهم عليه خائفين وهم له منكرون، فأحسن رفدهم، وأكرم قراهم، فاقروا له لما عرفوه بالإذعان، وسألوه بعد ذلك الغفران، وخروا له سجدا لما وردوا عليه وفدا][(١)].

وهنا يعرض الجاحظ قصة إخوة يوسف –عليه السلام– مستدلًا بها أيضًا على مدى تمكن الحسد من قلب صاحبه، مهما بلغ في درجات التقى والعلم، فقد بلغ الحسد بإخوة يوسف– عليه السلام– أقسى درجاته، حيث أوقع الشيطان بينهم وبين أخيهم، وأنساهم ما بينهم من صلة، فحسدوه على منزلته

(١) الرسائل الأدبية: ص ١٢٠،١٢١.

عند أبيه، وأرادوا أن ينفردوا بها دونه، فأجمعوا أمرهم على إبعاده، ليخلو لهم الأمر، ثم يتوبوا من هذا الذنب، ونسوا ما يمكن أن يحدث لأبيهم من ألم وحزن٠

وقد ابتدأ الجاحظ سرد هذه القصة الشهيرة بأسلوب الاستفهام الذي تضمن معنى النفي بقوله: (وكيف يصبر من استكنّ الحسد في قلبه على أمانيه)، أي لا يصبر، و أتى به في صورة الاستفهام لحمل السامع على البحث عن جواب، فإذا لم يجد، ثبت عدم صبره، و تأكد شدة حرصه على تحقيق أمانيه، بكل وسيلة، وبأي طريق، وفي الجملة إيجاز بحذف الصفة، وتقديرها: (تحقيق)، للإسراع في الوصول إلى المطلوب، وهي الأماني أو المقاصد والغايات، والتعبير بـ(استكن) يوحي بتمكن الحسد واستقراره في القلب٠

ثم ينتقل الجاحظ من الأسلوب الإنشائي إلى الأسلوب الخبري حيث يستعرض قصة حسد إخوة يوسف–عليه السلام– مفصلة، ومؤكدة بقوله: (ولقد كان إخوة يوسف حلماء، وأجلّة علماء، ولدهم الأنبياء، فلم يغفلوا عمّا قدم في قلوبهم من الحسد ليوسف، حتّى أعطوا أباهم المواثيق المؤكّدة، والعهود المقلّدة[١]، والأيمان المغلّظة، إنّهم له لحافظون، وهو شقيقهم وبضعة منهم)٠

وأكد الجاحظ أسلوبه بكل من (اللام، وقد، والفعل الماضي)، لغرابة الخبر، خاصة وأنه واقع بين أبناء أنبياء، عرفوا بالحلم والعلم، وكنى بالخبر المنفي (لم يغفلوا عمّا قدم في قلوبهم من الحسد)، عن غلبة الحسد، وتمكنه من قلوبهم ونفوسهم، بما دفعهم إلى إعطاء أبيهم المواثيق والعهود، والأيمان المغلّظة، وأكدوا حفظهم الكاذب هذا بكل من (إن، واللام، والجملة الاسمية)،

(١)"كُلُّ مالُوِيَ على شيْءٍ فقد قُلِدَ" (تاج العروس: مادة قلد) ٠

وصيغة (حافظون) بألف المد والإضافة لضمير الجماعة، يوحي بشدة حرصهم على أن ينالوا ثقة أبيهم، لمَّا رأوا شدة خوفه، وحرصه على سلامة يوسف، وهو دليل على غلبة مشاعر الحسد على قلوبهم، فقد أعمت بصائرهم، وجعلتهم يتغافلون عما يجب عليهم من مراعاة حقوق الأبوة والأخوة، ودفعهم الحسد إلى المعصية دفعا، من غير تفكر في العاقبة، ولفظ (قدم) يوحي بأن ما شعروا به من حسد تجاه أخيهم، هو قادم عليهم، فليس من طبعهم، وغير متأصل فيهم، مع ما فيه من تشخيص يجعل الحسد ضيفا قادما، والقلب موطنا يستقر فيه، على طريق الاستعارة المكنية، ويمكن جعلها تبعية، بجعل حلول الحسد، وتمكنه من القلوب (قدوما)، بجامع مطلق الوجود.

كما وصف العهود التي أخذوها على أنفسهم بأنها (عهودا مقلدة)؛ لأن يعقوب –عليه السلام– لم يكن واثقا بوفائهم؛ لأن "التقليد قبول الأمر ممن لا يؤمن عليه الغلط بلا حجة"(١).

وذكر المسند إليه ضميرا في قوله: (وهو شقيقهم وبضعة منهم)، لتخصيصه بالخبر الذي خرج عن ظاهره إلى توبيخهم عما فعلوا بمن هو بضعة منهم، وهو كناية عن بشاعة ما فعلوا، وعدم تمسكهم بما يجب عليهم تجاه من تجمعه بهم رابطة الأخوة وصلة الدم.

كما يصور تجاهلهم لتلك الصلة، وتغافلهم عنها عن طريق الأسلوب الخبري الخالي من التوكيد؛ للعلم به من إخبار المولى – سبحانه– عنه في كتابه العزيز، يقول الجاحظ: (فخالفوا العهود ووثبوا عليه بالظلم، وألقوه في غيابة الجبّ)، وهو كناية عن شدة حرصهم على إبعاده، والتخلص منه،

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٣٧١.

و(فاء) التعقيب تشير إلى سرعة التحلل من تلك العهود التي قطعوها على أنفسهم، لعدم صدق نيتهم، وهو ما دفعهم إلى أن (جاءوا على قميصه بدم كذب)؛ لينفوا عن أنفسهم مخالفة العهود، ويدللوا على موته، وهو كناية عن صفة.

كما يصور حرصهم على التخلص من يوسف –عليه السلام– بالفعل الماضي (وثبوا عليه)، الوَثْب "القَفز...ويسْتَعْمل بِمَعْنَى الْمُبَادَرَةِ وَالْمُسَارَعَةِ"[١]، ويوحي بما أحدثه ذلك الوثب من إرهاب وخوف لقلب أخيهم.

ويوضح الجاحظ نتيجة هذه الفعلة النكراء بالأسلوب الخبري بقوله: (فبظلمهم يوسف ظلموا أباهم، طمعا أن يخلو لهم وجه أبيهم، وينفردوا بحبه، وظنوا أن الأيام تسليه، وحبه لهم من بعد غمه يلهيه، فأسالوا عبرته وأحرقوا قلبه)، وأتى به غير مؤكد أيضًا لوضوحه، وعدم خفائه، كما استخدم (الفاء) مرة للسببية بقوله: (فبظلمهم يوسف) وأخرى للتعقيب في (فأسالوا عبرته وأحرقوا قلبه)، وسيلانها كناية عما أصابه من ألم الفقد، وحزن الفراق، والتعبير بـ (ظلموا أباهم) مجاز مرسل علاقته المسببية، إذ إن ظلم أبيهم جاء مسببا عن ظلم أخيهم، فبسبب فعلتهم ظلموا أخاهم، وأضنوا أباهم، وأحرقوا قلبه سنين طوال، ولفظ (طمعا) مفعول لأجله، فسره بـ (أن يخلوا لهم وجه أبيهم)، كناية عن انفرادهم بحبه واختصاصهم بعنايته، وهو هدفهم وغايتهم، وأتى بالمجاز العقلي في قوله (وظنوا أن الأيام تسليه) لعلاقة الزمانية، فالذي يسليه ما يكون في الأيام من أحوال تسر، أو أحداث تلهي، والأيام زمانها،" وأسند للزمان لمشابهته الفاعل الحقيقي في ملابسة الفعل لكل منهما"[٢]، "فالعلاقة

(١) المصباح المنير :.مادة (وثب)).

(٢) حاشية الإيضاح :٨٦/١.

هي المشابهة بين الفاعلين: المجازي والحقيقي، لا الملابسة بين الفعل والمسند إليه المجازي وإن كان ذلك كافيًا في إسناد الفعل إليه؛ لأن ملاحظة المشابهة بين الفاعلين أتم وأدخل في صرف الإسناد إلى غير ما هو له، وإن كفى فيه مجرد الملابسة"[١]، وأتى بالسجع المطرف بين (تسليه – ويلهيه)، ليظهر ما يرجون تحققه من تداول الأيام، وضمير الجماعة يدل على إجماعهم على إيذاء أخيهم، وما يوحي به ذلك من أثر قاس على نفسه٠

وزاوج الجاحظ بين الأسلوب الإنشائي، والخبري في قوله: (وكيف تقر أعين المحسودين بعد يوسف وقد ملكه الله خزائن الأرض بصبره على أذى حساده)، فتضمن الاستفهام معنى التقرير أو التعجب، حيث تقر عين المحسودين، أو يعجبوا؛ لما رأوا من إكرام المولى – سبحانه– ليوسف –عليه السلام– وقد رفع الله قدره، وملكه خزائن الأرض، جزاء صبره على ما لقيه من حسد وأذى، ثم عفوه، ومقابلته الإساءة بالإحسان، وعطف عليه الخبر المؤكد (بقد، والفعل الماضي)، في (وقد ملكه الله خزائن الأرض بصبره على أذى حساده، ومقابلته إياهم بالعفو، والمكافأة، وحسن العشرة، والمؤاخاة، بعد إمكانه منهم)، فجعل الصبر على أذى الحساد سببا فيما صار إليه من مُلْك وإكرام، وعطف عليه ما بعده بـ (الواو)؛ للاتفاق في الخبرية لفظا ومعنى، وقوله (بعد إمكانه منهم) كناية عن سلطانه، وقدرته عليهم، يقال: "مَكَّنْتُهُ مِنْ الشَّيْءِ تَمْكِينًا جَعَلْتُ لَهُ عَلَيْهِ سُلْطَانًا وَقُدْرَةً فَتَمَكَّنَ مِنْهُ وَاسْتَمْكَنَ قَدَرَ عَلَيْهِ"[٢]، ولذا ذكر مع الخزائن التملك، ومع إخوته الإمكان لـ " أن تمكين الحائز يجوز، ولا يجوز تمليكه"[٣]٠

(١) السابق :٨٤/١.

(٢) المصباح المنير : مادة (م ك ن)٠

(٣) الفروق اللغوية: ص١٨٨.

والتعبير كناية عما يتحلى به يوسف –عليه السلام– من تسامح ورقة جانب، ومقابلته السيئة بالحسنة، وعدم مجازاتهم بالمثل٠

ثم ينهي الجاحظ قصتهم مخبرا عن حالهم، وما صاروا إليه بقوله: (كما أتوه ممتارين رفدهم[١] عليه خائفين، وهم له منكرون، فأحسن رفدهم، وأكرم قراهم، فأقروا له لما عرفوه بالإذعان، وسألوه بعد ذلك الغفران، وخروا له سجدا لما وردوا عليه وفدا)٠

وجعلهم (ممتارين رفدهم) كناية عن عدم درايتهم بمواطن الكسب والعطاء، فهم لا يدرون ما يفعل معهم، يقال لمن هو "مُتَحَيِّرٌ فِي أَمره لَا يَدْرِي كَيْفَ يَهْتَدِي فيه"[٢]، وذكر الضمير (وهم له منكرون)؛ لزيادة الإيضاح والتقرير، وتقديم الجار والمجرور(له)، من قصر الصفة على الموصوف، حيث لم يفطن إلى معرفة شخصه الكريم أي منهم، والفاء في (فأحسن رفدهم)، للتعقيب، وبيان سرعة إحسانه، وإجزاله العطاء، وكذلك فاء (فأقروا)، تشير إلى سرعة إقرارهم الإذعان له، وعطف جملتي (وسألوه بعد ذلك الغفران، وخروا له سجدا) للتوسط بين الكمالين ، وترتب حدوث ذلك على إقرارهم الإذعان له، وفضله عليهم٠

والتعبير بالغفران هنا ليس دقيقا، ولو أن الجاحظ أتى هنا بلفظ (الصفح أو العفو) بدلا من (الغفران) لكان ذلك أنسب للمقام وأدق لمعناه، والأفضل أن يقال وسألوه (العفو والصفح)، فهو أنسب للمقام وأدق للمعنى٠

---

(١) "(الرَفَدَ) :وَهُوَ الْمُعَاوَنَةُ وَالْمُظَاهَرَةُ بِالْعَطَاءِ وَغَيْرِهِ...وَيُقَالُ: ارْتَفَدْتَ مِنْ فُلَانٍ: أَصَبْتُ مِنْ كَسْبِهِ. وَأَرْفَدْتُ الْمَالَ: اكْتَسَبْتَهُ. وَالرَّافِدُ: الْمُعَيَّنُ" مقاييس اللغة: مادة (رفد)٠

(٢) اللسان: مادة (حير)٠

وقوله: (وخروا[١] له سجدا لما وردوا عليه وفدا) كناية عن تعظيمهم ليوسف، إذ علموا مكانته ومنزلته عند ربه، ولفظ (خروا) يوحي بإسراعهم إلى السجود له، تقديرا وإجلالا، وقدم الجار والمجرور (له، وعليه)؛ للعناية والاهتمام، كما أن المد بالألف في (الإذعان- والغفران) يوحي بما يسيطر عليهم من الشعور بالندم، والتماس العفو، مع ما بينهما، وبين كل من (سجدا – ووفدا) من السجع المطرف الذي يوضح ما لزمهم فعله تجاه من عفا عنهم، وأكرم نزلهم٠

من خلال هذا المبحث يتضح:

حرص الجاحظ واهتمامه بالاستشهاد على تمكن الحسد من الحاسد، والاستدلال على تملك قلبه، والتحكم في أقواله، وأفعاله، عن طريق سرد قصص متنوعة، وذكر شخصيات مختلفة، لها من الشهرة مكان، لا فرق في سيطرة الحسد، وتملك قلب الحاسد بين مَلَك، أو بن نبي، أو منافق، لما له من سيطرة تغلب القلب والعقل، لا يستطيع أحد دفعها، وقد بدأ الجاحظ حديثه في هذا الفصل بسرد قصتين تدلان على ظهور الحسد في السموات والأرض، فهو أول معصية عصي بها المولى – سبحانه وتعالى- سواء كان ذلك في السموات، من إبليس الذي دفعه حسده لآدم-عليه السلام- إلى عصيان أمر ربه، فكان جزاؤه اللعن والطرد، أم في الأرض من ابن آدم قابيل، الذي دفعه الحسد إلى قتل أخيه، فكان بذلك أيضًا أول معصية حدثت في الأرض تسببت في أعظم ذنب، هو قتل النفس التي حرمها المولى-سبحانه- ثم يذكر الجاحظ حسد عبد الله بن أُبي للنبي، ثم حسد ابن الزبير لبني هاشم، وأخيرًا حسد أخوة

(١) يقال "خَرَّ: هوى من علو إِلَى سفل"، المحكم والمحيط الأعظم: لابن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ]، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م ، مادة (خر)٠

يوسف –عليه السلام–، مستطردًا أثناء ذلك بالحديث عن أقوال الحاسد وأحكامه التي يصدرها على المحسود، ورأيه فيه، مع تنوع أسباب الحسد واختلاف دواعيه، إلى جانب كشفه أسباب الحسد بين الجيران، وتوضيحه عدم إمكان الحاسد كتمان حسده، مستشهدا عليه بحسد ابن الزبير، وأخوة يوسف، إذ لم يمكنهم كتمان حسدهم، مع ما لهم من مكانة ومنزلة.

ومن أبرز أساليب الجاحظ في هذا المبحث، الاستطراد، فهو ينتقل من موضوع لآخر، ثم يعود إلى الأول، حيث عاد مرارا إلى سرد قصص الحسد بعد استطراده لفكرة أخرى، توضح حقيقة الحسد، وتكشف الحسَّاد، وهي فكرة مرتبطة بسابقتها، وتوطئة للاحقتها، وهو أسلوب عرف به الجاحظ، علله بحرصه على دفع الملل، وإبعاد السأم عن القارئ، حتى يستجلب نشاطه، ورغبته في متابعة القراءة، كما يزود القارئ ويمده بنواح أخرى من المعرفة، تزيد المعنى وضوحا وبيانا، حيث يستقصي جوانب موضوعه، ويأتي على صوره، ووجوهه، وهو من الخصائص الفنية التي تمثل منهج الجاحظ وطريقته في التأليف، يقول معللا كثرة استطراده: " إنما أخرجك من شيء إلى شيء، وأورد عليك الباب بعد الباب؛ لأن من شأن الناس ملالة الكثير، واستثقال الطويل، وإن كثرت محاسنه، وجمت فوائده، وإنما أردت أن يكون استطرافك للآتي قبل أن ينقضي استطرافك للماضي، لأنك متى كنت للشيء منتظرا، وله متوقعا، كان أحظى لما يرد عليك، وأشهى لما يهدى إليك، وكل منتظر معظم، وكل مأمول مكرم"(١).

وإلى جانب الاستطراد أتى الجاحظ بالعديد من الصور، والأساليب، والأخيلة، التي وضحت صورة الحاسد، وكشفت أحواله وصفاته، منها: الدعاء،

(١) الرسائل الأدبية : ص٤٧٢ .

والأسلوب الخبري، والكناية، سواء كانت عن صفة، أو عن موصوف، والقصر سواء كان بالتقديم، أم بـ (ما، وإلا)، وطباق الايجاب والسلب، والمقابلة، وصيغة الماضي، والمفعول المطلق، والاحتراس ،والربط بكل من (الواو، وأما، والفاء، وأو)، والتعريف بالإضافة، والاقتباس، ومراعاة النظير والجناس المضارع، والإجمال ثم التفصيل، والاستئناف البياني، وحذف المسند إليه، وصيغة المضارعة، والتعجب، والجناس، والإنشاء بالنداء الحقيقي، والنهي، والمجاز المرسل، والشرط بـ(لو)، والتشبيه، ولام التعليل، والترادف، والمذهب الكلامي، والاستعارة التصريحية بالاسم والحرف، إلى جانب مقدرته اللغوية والبيانية التي أخرجت أروع الصور، وأجمل التراكيب بأدق الألفاظ، وأوضح العبارات.

* * * * * *

المبحث الثالث

بلاغة الجاحظ ونصائحه في معاملة الحسود

أولًا : **نصائح الجاحظ في معاملة الحسود**:

النص:

يقول الجاحظ ناصحا:[فإذا أحسست- رحمك الله- من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته، فإنّه أعون الأشياء لك على مسالمته، وحصّن سرّك منه تسلم من شرّه، وعوائق ضرّه، وإيّاك، والرغبة في مشاورته، ولا يغرنّك خدع ملقه، وبيان ذلقه، فإنّ ذلك من حبائل نفاقه٠

فإن أردت أن تعرف آية مصداقه فأدنين إليه من يهينك عنده، ويذمّك بحضرته، فإنّه سيظهر من شأنه لك ما أنت به جاهل، ومن خلاف المودّة ما أنت عنه غافل، وهو ألحّ في حسده لك من الذّباب، وأسرع في تهريقك من السّيل إلى الحدور٠

وما أحبّ أن تكون عن حاسدك غبيّا، وعن وهمك بما في ضميره نسيّا، إلّا أن تكون للذلّ محتملا، وعلى الدناءة مشتملا، ولأخلاق الكرام مجانبا، وعن محمود شيمهم ذاهبا، أو تكون بك إليه حاجة قد صيّرتك لسهام الرّماة هدفا، وعرضك لمن أراد غرضا٠

وقد قيل على وجه الدّهر: «الحرّة تجوع ولا تأكل بثديها»، وربّما كان الحسود للمصطنع إليه المعروف أكفر له وأشدّ احتقادا، وأكثر تصغيرا له من أعدائه][1]٠

في هذا المبحث يذكر الجاحظ عددا من النصائح التي ينبغي اتباعها؛ لتجنب أذى الحاسد، والسلامة من شره، يقول:

---

(١) الرسائل الأدبية : ١٢١.

(فإذا أحسست- رحمك الله- من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته، فإنّه أعون الأشياء لك على مسالمته، وحصّن سرّك منه تسلم من شرّه، وعوائق ضرّه)، معتمدا في نصائحه تلك على أسلوب الأمر، فهو الأسلوب الأمثل لإيراد النصح والتوجيه، فقوله: (أقلل، وحصن) أمر قصد به النصح، وجاء في سياق الشرط مع (إذا) لدلالاتها على المستقبل[١]، إذ إن الشرط ينبغي أن يكون عاما في المستقبل، ودخولها على الفعل (أحسست) للإشارة إلى إمكان تنبه المحسود للحاسد، ومعرفته بحسه، وبما يظهر عليه من علامات، وأفعال، تظهر مكنونه، وتكشف نيته، فإذا أحس المحسود بذلك، تعين عليه البعد عن حاسده ما أمكنه ذلك، وأتى بالفاء في جواب (إذا) للدلالة على الإسراع، وعدم التراخي في تجنب مخالطته، ولكون فعل الشرط هنا فعل أمر، لزم دخول فاء الجواب[٢] عليه.

وبين كل من الشرط والجواب علاقة وثيقة تقوم على "علاقة "العِلِّيَّة"، أي: أن الشرط علة للجواب، أو علاقة "تَضَمُّن" أي أن الجواب متضمن في الشرط، أو علاقة "تعليق" أي الجواب معلق على الشرط، ومن الواضح أن فكرة "العلية" هي الأصل في ذلك"[٣].

---

(١) ينظر همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: للسيوطي ،١٧٨/٢.

(٢) ينظر المفصل في صنعة الإعراب: للزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ) ص٤٤٠، المحقق: د. علي بو ملحم، الناشر: مكتبة الهلال – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣م. والمقصود: "وَالْفَاء الَّتِي تكون جَوَابا للأشياء السِّتَّة" من بينهم الامر، (الجمل في النحو: للخليل (المتوفى: ١٧٠هـ)،ص ٣٢٩، المحقق: د. فخر الدين قباوة، الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م).

(٣) التطبيق النحوي: الدكتور عبده الراجحي ٣٢٠،ص، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

ومن البين اعتراض الجاحظ بالدعاء بقوله (رحمك الله) عند الشعور بالحسد، للدلالة على أن داء الحسد بلاء عظيم، يرجى رحمة الله؛ للنجاة منه، وقد عمد الجاحظ إلى تكرار هذا الدعاء؛ لتأكيد حرصه على سلامة المخاطب ونجاته من ذلك البلاء، و(الكاف) للعموم، وخص (الصديق) بالذكر لكثرة مخالطته، وعلمه بأحوال صديقه، وقوله (ما استطعت) تتميم[١]، فمن الأشخاص من لا يمكن تجنبهم أو الابتعاد عنهم لأحوال تجمعهم٠

وعلل نصحه عدم مخالطة الحاسد بأنه (أعون) على مسالمته، وهو أفعل تفضيل للدلالة على أنه أكثر الأحوال عونا على السلامة، وأكده بـ(إن)، والفاء واقعة في جواب الأمر[٢]٠

كما أن فعل الأمر في قوله :(وحصّن سرّك منه تسلم من شرّه وعوائق[٣] ضرّه) فيه معنى الشرط والمعنى (إن حصنته تسلم)، حذف الشرط، وأقيم فعل الأمر مقامه[٤]، للحث، والتحريض على فعل ذلك على جهة الإلزام، حتى تتحقق له السلامة، قال الله تعالى:﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ**﴾[سورة الأحزاب: آية (١٨)]، "وتقول: فلان صبحه التعويق، فهجره التوفيق. ورجل عوقة: ذو تعويق وتربيث عن الخير"[٥]، مع ما بين (شره، وضره) من مراعاة

---

(١)" التتميم: وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضله تفيد نكتة"، (الإيضاح في علوم البلاغة ٢١٢/٣)٠

(٢) ينظر الجمل في النحو: للخليل بن أحمد، ص٣٢٩.

(٣) "(عَاقَهُ) عَنْ كَذَا حَبَسَهُ عَنْهُ وَصَرَفَهُ...وَ (التَّعْوِيقُ) التَّثْبِيطُ." مختار الصحاح ، مادة (عوق)٠

(٤) اللمع في العربية: لابن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، ص ١٣٥، المحقق: فائز فارس، الناشر: دار الكتب الثقافية – الكويت٠

(٥) أساس البلاغة: للزمخشري ٦٨٥/١.

نظير، تبين سبب الحض على البعد عن الحاسد، وسجع متوازي، أحدث تلائما لفظيًا ومعنويا٠

وفي قوله: (وإيّاك والرغبة في مشاورته)، تحذير، يظهر "تنبيه المخاطَب على مكروهٍ ينبغي الاحترازُ منه"(١)٠

والنهي في قوله: (ولا يغرنّك خدع ملقه)، أُشْرِب أيضًا معنى النصح، حتى لا يخدع المحسود بملق الحاسد وملاينته، ووصل بين الجملتين لاتحادهما في الإنشائية لفظا ومعنى، مع وجود الجهة الجامعة، وعدم المانع، للتوسط بين الكمالين، والملق الخداع يقال: "ورجلٌ مَلقٌ: يعطي بلسانه ما ليس في قلبه"(٢)، وقوله (بيان ذلقه(٣)) كناية عن فصاحة لسانه وبلاغته، وذلاقة اللسان طلاقته، ووضوح بيانه، يقال- "لسانه طَلْقٌ ذلق أي مستمر"(٤)، جعله دليل نفاقه بقوله: (فإنّ ذلك من حبائل نفاقه)، والتعبير كناية عما لدى الحاسد من أدوات خداع، وأساليب دهاء تشبه الحبائل في معاونة صاحبها على

(١) ومن ألفاظه :" (إيّاكَ) – بمعنى: احذر–، و(إليك) – بمعنى: تَنَحّ –؛ تقول مِن ذلك: (إيّاك والأسدَ) ؛ فهو مفعولٌ بفعلٍ لا يجوزُ إظهارُه؛ لأنّه قد كثُر به التّحذير، وجُعِلَ بدلاً من اللّفظ بالفعل، سواءٌ كان معطوفا عليه، نحو: (إيّاكَ والشّرَّ) ، أو مكرّرًا، نحو: فَإيَّاكَ إيَّاكَ،... أو مفرَدًا، نحو: (إيَّاكَ الأَسَدَ)"، (اللمحة في شرح الملحة: لابن الصائغ (المتوفى: ٧٢٠هـ)، ٥٢٩/٢، المحقق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م٠

(٢) الصحاح : مادة (ملق)٠

(٣) حد كل شيء ذَلْقُه. والذَّلقُ: تحديدك إياه. والإذْلاقُ: سرعة الرمي"، (العين: مادة (ذلق))٠

(٤) اللسان : مادة (طلق)٠

الوصول إلى هدفه، وأتى بـ(إن) للتأكيد والتقرير و(من) لبيان أمره وكشف نفاقه٠

ثم يأتي الجاحظ بأسلوب الشرط في قوله: (فإن أردت أن تعرف آية مصداقه فأدنين إليه من يهينك عنده، ويذمّك بحضرته، فإنّه سيظهر من شأنه لك ما أنت به جاهل، ومن خلاف المودّة ما أنت عنه غافل)، ومن خلاله يوضح الجاحظ كيف يمكن معرفة الحاسد، والطريق الذي يرشد إلى كشف مكنونه، وخفايا نفسه، وقوله: (فأدنين) جواب الشرط، جاء به في صيغة الأمر بغرض الحث على معرفة ما يخفي الحاسد من رأي، وما يكن من شعور، ويؤكد نتيجة ذلك الفعل بقوله: (فإنّه سيظهر من شأنه لك، ما أنت به جاهل)، أكده بـ(إن) والجملة الإسمية، وقدم الجار والمجرور (من شأنه- وبه)؛ لأنه المقصود، والمراد ظهوره، و(الفاء) للترتيب و(السين) للاستقبال، وقوله (ومن خلاف المودّة ما أنت عنه غافل) كناية عما يكن من حقد وحسد، ولفظ (غافل) يدل على عدم الانتباه على ما هو موجود وواقع٠

ثم يشبه الجاحظ الحاسد في الإلحاح والحرص على النيل من المحسود بالذباب عن طريق أفعل التفضيل بقوله: (وهو ألحّ في حسده لك من الذّباب)، وهو "مثل يضرب بلجاجة الذباب في الحط على الأجسام التي يريدها "[١]، وصيغة التفضيل (ألحّ) تدل على أنه أكثر منه وأشد إلحاحًا، كما يوحي بالنفس الخبيثة التي يحملها الحاسد، ومدى حرصها على أذى الآخرين٠

ولم يكتف الجاحظ بذلك فعطف عليه تفضيلا آخر بقوله: (وأسرع في تهريقك[٢] من السّيل إلى الحدور[١]) حيث شبه المحسود عن طريق الاستعارة

---

(١) الرسائل الأدبية: ص ١٨٢.

(٢) يقال "هراقتِ السَّحابةُ ماءها تُهَريقُ فهي مُهَرِيقةٌ، والماءُ مُهَراقٌ. الهاءُ مفتوحةٌ في كلّه، لأنّها بدلٌ من همزة أراق)،"(العين مادة (هرق))٠

المكنية بالسيل الذي يراق من مكان مرتفع إلى منحدر من الأرض، وهو كناية عن شدة حرص الحاسد على دفع المحسود إلى السقوط فيما فيه هلاكه وأذاه٠

ثانياً: **ضرورة البعد عن الحاسد**:

وبعد أن بين الكاتب للمخاطب طريقه لمعرفة الحاسد، وما ينبغي عليه فعله، قال "وما أُحِبُّ أن تكون عن حاسدك غبيّا، وعن وهمك بما في ضميره نسيّا، إلّا أن تكون للذلّ محتملا، وعلى الدناءة مشتملا، ولأخلاق الكرام مجانبا، وعن محمود شيمهم ذاهبا)٠

وهنا ينكر الجاحظ تجاهل الحاسد أو التغافل عن الحسد، وجعل ذلك تهاونا من المحسود، وأن من يرضى بذلك صنفان:

الأول: (من كان للذلّ محتملا، ....الخ)، لقبوله ما لا تقبله النفس السوية، والطباع السليمة، وأكده بأسلوب القصر، عن طريق تقديم الجار والمجرور على عامله في كل من (للذل–على الدناءة–لأخلاق الكرام–عن محمود شيمهم)، وهو من قصر الموصوف –وهو صفة قائمة مقام الموصوف– على الصفة٠

والثاني: أن تكون به إلي الحاسد حاجة، فتجعله (لسهام الرّماة هدفا، وعرضه لمن أراده غرضا)، ويشبه الجاحظ هذا الصنف من الناس، بالهدف الذي يقصده الرماة، فيصاب بسهامهم، ويصبح عِرْضه غَرَضا لمن يريده من الحساد، مع ما بين (عرضه وغرضا) من

---

(١) "(الحَدْرُ) بِالْفَتْح من كلِّ شَيْءٍ: الحَطُّ مِن عُلْوٍ إلى سُفْلٍ"، (تاج العروس: مادة (حدر))، (والحَدور اسم مُنحَدَر الماء في انحطاط صبَبَه"، (العين : مادة (حدر))٠

جناس مصحف[١]، يشير إلى تحذير المخاطب من عاقبة التغافل عن الحاسد وأفعاله الدنيئة.

ثم يدلل الجاحظ على إثبات رأيه هذا بما قيل على وجه الدّهر: «الحرّة تجوع ولا تأكل بثديها[٢]»، و(وجه الدهر) هنا كناية شهرة هذا المثل وشيوعه، ومقصوده أن المرأة الفضلى لا ترتضي رخاء العيش من وراء تسخير جسدها سواء كان ذلك بالحلال أو الحرام.

وهو مثل "يضرب للرجل تصيبه الخلة والفقر، وهو في ذلك لا يتعرض لمّا يدنسه من المكاسب"[٣]. ويأتي على سبيل الاستعارة التمثيلية[٤]، وإجراءها في المثل، يقال شبهت هيئة الرجل كريم الأصل عزيز النفس، الذي لا يفضل الدنايا ويترفع عن الرزايا عند ما تزل به القدم، بهيئة المرأة التي تفضل جوعها على فعل ما لا ترضى عند فقرها، بجامع ترجيح الضرر على النفع إن كان

(١) يسمى" جناس التصحيف، ومنهم من يسميه جناس الخط، وهو ما تماثل ركناه خطًّا واختلفا لفظًا" ،خزانة الأدب: لابن حجة الحموي (المتوفى: ٨٣٧هـ)،٨٦/١، المحقق: عصام شقيو، الناشر: دارالهلال–بيروت، دار البحار–بيروت، الطبعة: ٢٠٠٤م.

(٢) وأول من قال ذلك الحارث بن سليل الأسَدِي، للزّبّاء بنت علقمة بن خَصَفة الطّائيّ: مجمع الأمثال: للميداني ، (المتوفى: ٥١٨هـ) ، ١٢٢/١، المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة – بيروت، لبنان.

(٣) الأمثال: للهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، ص ١٩٧، المحقق: الدكتور عبد المجيد قطامش، الناشر: دار المأمون للتراث، الطبعة: الأولى،١٤٠٠هـ–١٩٨٠م.

(٤) " سميت تمثيلية مع أن التمثيل عام في كل استعارة، للإشارة إلى عظم شأنها كأن غيرها ليس فيه تمثيل أصلا – إذ الاستعارة التمثيلية مبينة على تشبيه التمثيل، ووجه الشبه فيه هيئة منزعة من متعدد – لهذا كان أدق أنواع التشبيه، وكانت الاستعارة المبنية عليه أبلغ أنواع الاستعارات – ولذلك كان كل من تشبيه التمثيل، والاستعارة التمثيلية غرض البلغاء" (جواهر البلاغة : للهاشمي (المتوفى:١٣٦٢هـ)، ص٢٧٥، توثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.

فيه مهانه أو عدم رضا، واستعير الكلام الموضوع للمشبه به للمشبه، على طريق الاستعارة التمثيلية، ويقال "لمن يحتال على حصول أمر خفي، وهو متستر تحت أمرٍ ظاهرٍ"(١)، فيجب على المرء أن يصون نفسه عن خسيس المكاسب، فذلك يحط من شرفه، وينقص من عزته، وهو كناية عن وجوب العيش في كرامة وعزة نفس، ولو في أشد الحالات قسوة، والمثل يلائم المقام الذي ذكره الجاحظ، فلا ينبغي لكريم التغافل عن حاسده أو تجاهل حسده، وإن كانت عنده حاجه٠

وقد ذكر الجاحظ سبب استدلاله بالأمثال بقوله: "لم يكن الناس جميعا ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع"(٢)؛ ولذلك عمدا إلى تكرارها٠

كما ينبه المخاطب على مقدار كره الحاسد للمحسود بقوله: (وربّما كان الحسود للمصطنع إليه المعروف أكفر له، وأشدّ احتقادًا، وأكثر تصغيرًا له من أعدائه)، وتكراره لأسلوب التفضيل (أكفر–أشد–أكثر)؛ للدلالة على مقدار خطر الحاسد على المحسود، فقد يكون أشد خطرا من العدو الظاهر؛ لأنه عدو خفي غير معلوم٠

* * * * * *

(١) جواهر البلاغة: ص ٢٧٦.

(٢) البيان والتبيين: للجاحظ ، ٢٧١/١ "طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر٠

ثالثاً: لا خير يرتجى من حسود

النص :

يقول الجاحظ في نفي الخيرية عن الحاسد : [فصل منه: ومتى رأيتَ حاسدا يُصوّبُ لك رأيا إن كنتَ مُصيبا، أو يرشدُك إلى صواب إن كنت مخطئا، أو أفْصَحَ لك بالخير في غيبتهِ عنك أو قصّرَ من غيبته لك؟

فهو الكلبُ الكلِب، والنِّمْر النَّمِر والسُّمّ القَشب، والفحلُ القَطِم، والسّيل العَرِم. إن مَلك قتَل وسبى، وإن مُلك عصىَ وبغىَ، حياتك موته، وموتك عِرسه، وسروره. يصدّق عليك كلّ شاهدِ زور، ويكذّب فيك كلّ عدلٍ مرضيّ. لا يحبّ من النّاس إلّا من يبغضك، ولا يبغض إلّا من يحبّك، عدوّك بطانةً وصديقك علانيةً، وقلتَ: إنّك ربّما غَلِطْتْ في أمره لما يظهر لك من برّه، ولو كنت تعرف الجليلَ من الرأي، والدقيقَ من المعنى، وكنت في مذاهبك فطنا نقابا، ولم تك في عيب من ظهر لك عيبهُ مرتابا، لا ستغنيت بالرّمز عن الإشارة، وبالإشارة عن الكلام، وبالسّرّ عن الجهر، وبالخفض عن الرفع، وبالاختصار عن التطويل، وبالجمل عن التفصيل، وأرحتنا من طلب التحصيل، ولكني أخاف عليك أنّ قلبك لصديقك غيرُ مستقيم، وأن ضمير قلبك له غيرُ سليم، وإن رفعت القذىَ عن لحيته، وسوّيت عليه ثوبه فوق مركبه، وقبّلتَ صبيّه بحضرته، ولبست له ثوب الاستكانة عند رؤيته، واغتفرت له الزّلّة، واستحسنت كلّ ما يقبح من جهته، وصدّقته على كذبه، وأعنته على فَجْرَته.

فما هذا العناء! كأنّك لم تقرأ المعوّذة، ولم تسمع مخاطبته نبيّه ﷺ، في التّقدمة إليه بالاستعاذة من شرّ حاسد إذا حسد. أتطلب ويحك أثرا بعد عين، أو عِطرا بعد عروس، أو تريد أن تجتني عنبا من شوك، أو تلتمس حلبَ لبن من حائل. إنّك إذا أعيا من باقل، وأحمق من الضبُع، وأغفل من هَرِم.

إن كنت تجهلُ بعد ما أعلمناك، وتعوجُّ بعدما قوّمناك، وتبلّدُ بعدما ثقّفناك، وتضلُّ إذ هديناك، وتنسى إذ ذكّرناك، فأنت كمن أضلّه الله على علم، فبطلت عنده المواعظ، وعمي عن المنافع، فختمَ على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غِشاوة. فنعوذ بالله من الخِذْلان.

إنّه لا يأتيك، ولكن ينادِيك، ولا يحُاكِيك ولكن يُوازِيك. أحسنُ ما تكون عنده حالا أقلَّ ما تكونُ مالا، وأكثرَ ما تكونُ عيالا، وأعظم ما تكون ضلالا. وأفرحُ ما يكون بك أقربُ ما تكونُ بالمصيبة عهدا، وأبعدَ ما تكونُ من الناسِ حمَدا، فإذا كان الأمرُ على هذا فمجاورةُ الموتىَ، ومخالطَة الزَّمَنَى، والاجتنانُ بالجُذْران، ومَصْرُ المُصْران، وأكلُ القِرْدَان، أَهْونُ من معاشرتهِ، والاتّصالِ بحبله٠

والغلّ نتيجُ الحسد، وهو رضِيعه، وغصنٌ من أغصانه، وعونٌ من أعوانه، وشعبة من شعبه، وفعل من أفعاله، كما أنّه ليس فرعٌ إلّا له أصل، ولا مولود إلّا له مولد، ولا نباتُ إلّا من أرض، ولا رضيعٌ إلّا من مُرضع، وإن تغيَّر اسمه، فإنّه صفةٌ من صفاته، ونبتٌ من نباته، ونعتٌ من نعوتِه][(١)]٠

يبدأ الجاحظ حديثه في نفي الخيرية عن الحاسد بأسلوب الاستفهام، المتضمن معنى النفي بقوله: (ومتى رأيتَ حاسدا يُصوّبُ لك رأيا إن كنتَ مُصيبا[(٢)]، أو يرشدُك إلى صواب إن كنت مخطئا، أو أفْصَحَ لك بالخير في غيبتهِ عنك أو قصّرَ من غيبته لك؟)، وهنا آثر الجاحظ الأسلوب الانشائي على الخبري، لما لصيغة الاستفهام من الطلب، والحث على التفكر، والبحث

(١) الرسائل الأدبية : ١٢٢.

(٢) " (صَوَبَ) الصَّادُ وَالْوَاوُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى نُزُولِ شَيْءٍ وَاسْتِقْرَارِهِ قَرَارَهُ. مِنْ ذَلِكَ الصَّوَابُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، كَأَنَّهُ أَمْرٌ نَازِلٌ مُسْتَقِرٌّ قَرَارَهُ، وَهُوَ خِلَافُ الْخَطَأِ"، (مقاييس اللغة: (مادة صوب))٠

عن الجواب، فإذا ما تأمل، ولم يجد شيئًا من ذلك ثبت نفي الخيرية عنه، حيث لا يأتي منه ما يدل على سلامة نيته٠

وقوله: (يُصوّبُ لك رأيا إن كنتَ مُصيبا) أي يرشدك للصواب، وهو مجاز عن وقوع الرأي موقعا صحيحا محققا غايته، ويقصد بـ(إن كنت مصيبا) هنا الإرادة ،أي إن أردت أن تكون مصيبا[١]، يقال: "أصاب الله تعالى بك خيراً: أراده قال تعالى:﴿**رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ**﴾"[٢] [ص : آية (٣٦)] ٠

كما أتى الجاحظ بعدد من التشبيهات التي تكشف ما في الحاسد من دنيء الصفات، وسيء الطباع والأفعال، بقوله: (فهو الكَلْبُ الكَلِب[٣]، والنِّمْرُ النَّمِر، والسّمُّ القَشِب، والفحل القطم، والسّيل العَرِم)، حيث شبه الحاسد بكلٍ من (الكَلب، والنَّمر، والسُّمُّ، والفَحْل، والسَّيل)، وهو من تشبيه المفرد بالمتعدد المقيد، حيث شبهه أولا (بالكلب الكلب) في إيذاء الناس والإضرار بهم، وكأنه أصيب (بداء الكَلَب) فيصير مجنونا بإزاء نفسه وغيره٠

---

(١) ينظر الزاهر في معاني كلمات الناس: لأبي بكر الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ)، ١٩٤/٢، المحقق: د. حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ -١٩٩٢م.

(٢) أساس البلاغة: الزمخشري، ص٥٦٢.

(٣) الْكَلَبَ دَاءٌ يُصِيبُ الإِنْسَانَ مِنْ عَضَّةِ الكَلْبِ الكَلِبُ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ ضَرِيَ بِلُحُومِ النَّاسِ فَإِذَا أَكْثَرَ مِنْهَا أَصَابَهُ شِبْهُ جُنُونٍ ". غريب الحديث: للخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)١/٥٨٩، المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، وخرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، الناشر: دار الفكر، الطبعة: ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م، و"يقال: كلب البرد إذا اشتد ومنه الكلب الكلب: الذي يجن.(مفاتيح العلوم ١٨٨) ٠

كما شبهه بالنَّمِر في شدة الغضب، والحرص على النيل من الآخرين، يقال " نمر فُلَان غضب وساء خلقه فَصَارَ كالنمر، لِأَنَّهُ لَا يلفى إِلَّا غَضْبَان فَهُوَ نمر"(١).

وشبهه أيضًا بـ(السّمّ القشب)(٢)، في الإفساد والإضرار، فلا يأتي على شيء إلا أضر به، والسم مفسد بطبيعته فإذا كان قشبا كان أشد ضررا "وفِي حديثِ عُمَرَ، رضيَ الله عَنهُ، قَالَ لبعضِ بنيهِ: (قَشَبَكَ المالُ) من القَشْبِ، وَهُوَ الإفساد، و (إِزالَةُ العَقْلِ) ، أَي: أَفسَدَك، وذهَبَ بعَقْلك"(٣)، وتشبيه الحاسد بالسم القشب؛ لاختلاط الحسد بعقله وقلبه، فأفسد طبعه، وأضر به، وبمن خالطه.

كما يشبه بـ (الفحل القَطِم)(٤) في هياجه، "يُقَالُ: جَمَلٌ قَطِمٌ بَيِّن الْقَطَمِ إِذَا كَانَ هَائِجًا"(٥).

ويشبه كذلك بـ (سيل العرم) (٦) في "شرّه"(٧) أو شِدَّتِهِ وإفساده، وقيل الْعَرِمُ "السَّيْلُ الَّذِي لَا يُطَاقُ دَفْعُهُ وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ** ﴾[سبأ: آية (١٦)] مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى نَفْسِهِ لِاخْتِلَافِ

---

(١) المعجم الوسيط: مادة (نمر).

(٢) "القَشْبُ: خلط السم بالطعام، والقِشْبُ اسم السم، وكذلك كل شيء يخلط به شيء يفسده فقد قَشَبْتَه" (العين مادة (قشب)).

(٣) تاج العروس ماد (قشب).

(٤) "والقطم : العض، وفحل قطم مشته للضراب." (مجمل اللغة : مادة (قطم)).

(٥) الدلائل في غريب الحديث، ١٠٠٣/٣.

(٦) "و العَرِمَةُ: (كَفَرِحَةٍ: سَدٌّ يُعْتَرَضُ بِهِ الوَادِي، ج عَرِمٌ.....(أَو) العَرِمُ هُوَ – صَوابُه هِيَ –الأَحْباسُ تُبْنَى فِي أَوْسَاطِ الأَوْدِيَةِ، و قيل: العَرِمُ: الجُرَذُ الذَّكَرُ ، وَهُوَ الخُلْدُ، قالَه الأَزْهَرِيُّ، وقيل: المَطَرُ الشَّدِيدُ الَّذِي لَا يُطاقُ، وقيل: اسمُ وَاد باليَمَن:" (تاج العروس مادة (عرم))".

(٧) أساس البلاغة: ٦٤٨/١.

اللَّفْظَيْنِ"[١]، و"أجاز الفراء إضافة الشيء إلى ما بمعناه لاختلاف اللفظين"[٢]، وفي كل تلك التشبيهات حذف المشبه لذكره بداية وتقديره (وهو النمر النمر....الخ)، ففي حذفه بعدا عن التكرار الذي يؤدي إلى الملل، وترهل العبارات والجمل، كما حذفت الأداة والوجه للمبالغة في اتحاد الطرفين، حتى يتصور المخاطب أنه لا فرق بينهما، والغرض هو توضيح صورة الحاسد، وما يتصف به من رذيل الصفات قبيح الخلال، للتنفير منها، وتجنب الوقوع فيها.

مع ما بين كل من (الكَلْب الكَلِب، والنَّمْر النَّمِر) من جناس محرف، أحدث تلاؤمًا، واتساقًا.

ثم زاد الجاحظ من تقبيح صورة الحاسد عن طريق الأسلوب الخبري بقوله: (إن مَلَكَ قتلَ وسَبى، وإن مُلِكَ عَصىَ وبغىَ)، وبين (مَلَكَ- ومُلِكَ) جناس محرف، وطباق[٣]، يوضحان طغيان الحاسد، وفساده، في أي حال كان عليه، وبين (قتل- سبى- عصى- بغى) مراعاة نظير، توضح اتصاف الحاسد بها جميعا؛ لتأكيد ما يتصف من الطغيان وسوء طبعه، سواء أكان مَالِكًا، أم مَمْلوكًا، مع ما بين تلك الفواصل من سجع متوازي أحدث تناسقا وخفة نطق.

كما طابق بين (حياتك موته، وموتك عرسه، وسروره)، فالحياة ضد الموت، وناسب بين (عرسه- وسروره)، فالعرس يستلزم السرور، وبين

---

(١) المصباح المنير : (مادة عرم)،

(٢) النحو الوافي:٣/٥١.

(٣) قال أبو هلال " قد أجمع الناس أنّ المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضدّه فى جزء من أجزاء الرّسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة،.. وخالفهم قدامة فقال: المطابقة إيراد لفظتين متشابهتين في البناء والصيغة مختلفتين في المعنى" الصناعتين (ص ٣٠٧).

الجملتين مقابله لطيفة، كشفت شعور الحاسد تجاه المحسود، وأنه لا يسر إلا بما يضره ويؤذيه٠

كما قابل بين قوله: (يصدّق عليك كلّ شاهد زور، ويكذّب فيك كلّ عدل مرضيّ)، وهو من مقابلة ثلاثة بثلاثة، مع دلالة (كل) على للعموم، فكل شاهد زور عنده مصدق، وكل عدل لديه مكذب، وهو كناية عن خُبث نيَّته، وسوء ضميره٠

وهو ما أكده بتآزر كل من القصر، والمقابلة في قوله: (لا يحبّ من النّاس إلّا من يبغضك، ولا يبغض إلّا من يحبّك)، مستخدما طريق النفي والاستثناء، وهو من القصر الحقيقي الادعائي؛ للمبالغة في بيان حسده، وتكراره عن طريق المقابلة، تأكيد على تأكيد لا يدع للإنكار مجالًا٠

وكما قابل أيضًا بين قوله: (عدوّك بطانة، وصديقك علانية)، وهي من مقابلة اثنين باثنين، ليكشف ما عليه الحاسد من نفاق ومراوغة، والذي كنى عنه بقوله: (وقلت: إنّك ربّما غلطت في أمره ، لما يظهر لك من برّه)، حيث يوضح مقدار خداعه وملقه، حتى إن المحسود ليكذب شعوره، ويقنع بصداقته، لكثرة ما يرى من مداهنته، وأتى بالسجع المطرف بين (أمره– وبره)؛ ليوضح حال الحاسد، وما يُظْهِر للمحسود٠

ثم يبين الجاحظ ما ينبغي للمحسود أن يتصف به عن طريق أسلوب الشرط بقوله :[ولو كنت تعرف الجليل من الرأي، والدقيق من المعنى، وكنت في مذاهبك فطنا نقابا، ولم تك في عيب من ظهر لك عيبه مرتابا، لاستغنيت بالرّمز عن الإشارة، وبالإشارة عن الكلام، وبالسّرّ عن الجهر، وبالخفض عن الرفع، وبالاختصار عن التطويل، وبالجمل عن التفصيل، وأرحتنا من طلب التحصيل]٠

وأتى هنا بـ(لَو) الشرطية[١] التي تفيد" عقد السَّبَبِيَّة والمسببية بَين الجملتين بعْدهَا، وتَقْيِيد الشّرطِيَّة بالزمن الْمَاضِي، وَبِهَذَا الْوَجْه... فَارَقت(إِن) فَإِن تِلْكَ لعقد السَّبَبِيَّة والمسببية فِي الْمُسْتَقْبل، وَلِهَذَا قَالُوا الشَّرْط بـ(إِنْ) سَابق على الشَّرْط بـ(لو)، وَذَلِكَ: لِأَن الزَّمن الْمُسْتَقْبل سَابق على الزَّمن الْمَاضِي ... أَلا ترى أَنَّك تَقول إِن جئتني غَدا أكرمتك فَإِذا انْقَضى الْغَد وَلم يَجِيء قلت لَو جئتني أمس أكرمتك"[٢]، وفي هذا الموضع يقول الجاحظ: (ولو كنت تعرف .....، استغنيت)، فامتنع الجواب وهو (استغنيت....الخ) لامتناع الشرط، ولكونه مستلزما له٠

ثم فَصَّل ما اشترطه من أنواع المعرفة بقوله: (الجليل من الرأي، والدقيق من المعنى، وكنت في مذاهبك فطنا نقابا، ولم تك في عيب من ظهر لك عيبه مرتابا)، يقصد بـ"الجليل: الكلام المتعلق بأمور الدين، والدقيق: الكلام المعلق بأمور الفلسفة"[٣]٠

---

(١)"وهي الامتناعية. يعني: أن لو الامتناعية حرف يدل على تعليق فعل بفعل فيما مضى، فيلزم من تقدير حصول شرطها حصول جوابها، ويلزم كون شرطها محكوما بامتناعه؛ إذ لو قُدر حصوله لكان الجواب كذلك "(توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك: للمرادي المصري (المتوفى : ٧٤٩هـ)،١٢٩٧/٣، شرح وتحقيق : عبد الرحمن علي سليمان ، أستاذ اللغويات في جامعة الأزهر الناشر : دار الفكر العربي الطبعة : الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م٠

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ) ٣٣٧، المحقق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م٠

(٣) الرسائل الأدبية: ص ١٢٨.

وقد يراد بـ (الجليل[١] من الرأي)، ما كان ظاهر التدبير عظيم الموقع، أما (الدقيق[٢] من المعنى) فهو كناية عن المعنى المحكم الذي صادف موقعه، وحقق غرضه، وفيه استعارة مكنية، إذ شبه المعنى الذي بعد مقصده، بالشيء الدقيق الذي لا يدرك لكل راء٠

كما طابق بين لفظي (الجليل والدقيق)، حيث يقال: "أتيته فما أدقني ولا أجلني"[٣]، "والجِلُّ، بِالْكَسْرِ: ضِدُّ الدِّقِّ. وَقَالَ الراغِبُ: أَصْلُ الجَلِيلِ: مَوضوعٌ للجِسم الغَلِيظ، ولِمُراعاةِ مَعْنى الغِلَظِ فِيهِ قُوبلَ بالدَّقِيق، وقُوبل العَظِيمُ بالصَّغير، فقِيل: جَلِيلٌ ودَقِيقٌ"[٤]٠

وكنى بقوله: (وكنت في مَذَاهِبِك[٥] فطنا نقابا، ولم تك في عيب من ظهر لك عيبه مرتابا[٦]، عن صحة مذهبه، ودقة فهمه، وعلمه بخفي الأمور وغامضها، مع حسن تعامله معها٠

واشترط الجاحظ مع الفطنة كونه نقَّابا؛ لأن "النَقَّاب: هُوَ الرجل العالِمُ بالأشياء الباحثُ عَنْهَا الفَطِنُ الشّديدُ الدُّخول فِيهَا"[٧]، وهي صيغة مبالغة، تدل على غزارة علمه، وكثرة اطلاعه٠

---

(١) "الجَلِيلُ: العَظِيمُ"،(تاج العروس: مادة (جلل))٠

(٢) " الدَّقِيقُ، الأَمْرُ الغامِضُ الخفِيُّ عَن العُيُونِ.: (تاج العروس: مادة (دقق)٠

(٣) أساس البلاغة:١/١٤٤.

(٤) تاج العروس :مادة (جلل)٠

(٥) "المَذْهَب (: الطَّرِيقَةُ) يُقَال: ذَهَبَ فلانٌ مَذْهَباً حَسَناً، أَي طَرِيقَة حَسَنَةً"، (تاج العروس: مادة (ذهب)).

(٦) "الريبةُ بالكسر، وهي التُهمة والشكُ. ورابَني فلان، إذا رأيتَ منه ما يريبك وتكرهه"(١) (الصحاح : مادة ريب))٠

(٧) تهذيب اللغة: مادة (نقب).

قال أوس ابن حَجَر:

كَريمٌ جَوادٌ أخو مَأْقِطٍ ∴ نَقَّابٌ يُحَدِّثُ بالغائبِ[١]

وأتى بجواب الشرط مقترنا (باللام) في قوله (لاستغنيْتَ)، "لتأكيد ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى"[٢]، ومثله قوله سبحانه: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ [الأنبياء: آية (٢٢)]، إذ أكد ارتباط الاستغناء بالمعرفة، فلوكان عارفا بما ذكره من صفات، لاستغنى عما فَصَّله بقوله: (لاستغنيت بالرّمز[٣] عن الإشارة[٤]، وبالإشارة عن الكلام، وبالسّرّ عن الجهر، وبالخفض[٥] عن الرفع، وبالاختصار[٦] عن التطويل[٧]، وبالجمل[٨]عن التفصيل[٩])٠

وجميعها كناية عن الفطنة والذكاء وسرعة البديهة، وقد اعتمد الجاحظ في توضيح مقصده هذا على الطباق بين تلك الألفاظ جميعا٠

كما حذف المسند في قوله: (ولو كنت تعرف الجليل من الرأي، والدقيق من المعنى،.....الخ)، والتقدير لاستغنيت بالرمز عن الإشارة، ولاستغنيت بالإشارة عن الكلام، ولاستغنيت بالسرعة عن الجهر.....الخ)، وهو جواب الشرط حذف من الثاني لدلالة ما قبله عليه، وحضوره الذهني الذي أغنى

---

(١) الصحاح : مادة (نقب)٠

(٢) المفصل في صنعة الإعراب:ص٤٥١ .

(٣)"الرَّمْزُ: الصَّوت الخَفِيّ، والغَمْزُ بالحاجِب، وَالْإِشَارَة بالشَّفَة، ويُعَبَّر عَن كُلِّ إشارةٍ بالرَّمز،" (تاج العروس مادة (رمز))٠

(٤) يقال" أشارَ الرَّجل يُشيرُ إشَارَة، إذا أومئ بيدَيْهِ"، تهذيب اللغة مادة (شور))٠

(٥) ثانيا: "وخفض الصوتِ: غَضُّهُ "، الصحاح مادة (خفض)٠

(٦) "الاختصار في الكلام: ترك الفضول"، (العين مادة (خصر))٠

(٧) "طال الشيء، أي امتد" ، الصحاح مادة (طول)٠

(٨) "جْمَلَ الشَّيْء: جَمَعَهُ عَن تفْرِقَةٍ. أَجْمَلَ الحِسابَ والكَلامَ: رَدَّه إِلَى الجُمْلَة ثمَّ فَصَّله وبَيَّنه. "تاج العروس جمل) ٠

(٩) التفصيل :التبيين٠الصحاح في تاج اللغة مادة (فصل)٠

المتكلم عن حضوره المقالي، إلى جانب ما يحدثه من تنشيط الذهن، وتذكر ما سبق، وربط أجزاء الكلام بعضه ببعض٠

ثم نراه وقد عطف على هذا الجواب جوابا آخر بقوله : (وأرحتنا من طلب التحصيل[١])، يريد لو عرفت...لاستغنيت... وأرحتنا من" تَمْيِيز مَا يَحصُل"[٢] وإثباته٠

ثم استدرك بقوله: (ولكني أخاف عليك أنّ قلبك لصديقك غير مستقيم، وأن ضمير قلبك له غير سليم)، حيث يكون هذا التغافل لشيء ما في قلبه ، فيقع في شرك المراوغة والنفاق، وكرر معناه للتأكيد على تجنب ذلك، وكرر لفظ (القلب) وهو جزء الإنسان؛ لأنه أهم أعضائه وبه يكون الشعور بالحب والبغض، والخوف، والحزن، فالقلبُ عقلٌ ثانٍ يدفع صاحبه لفعل ما يمليه، حسب ما يحس ويشعر، وإضافة كاف الخطاب لكل من (صديقك – وقلبك) للإشارة إلى كيفية معاملة المحسود للحاسد في غفلة منه٠

ثم ينكر على المحسود ما قد يفعله تجنبا لحسد الحاسد بقوله: (وإن رفعت القذى عن لحيته، وسوّيت عليه ثوبه فوق مركبه[٣]، وقبّلت صبيّه بحضرته، ولبست له ثوب الاستكانة[٤] عند رؤيته، واغتفرت[٥] له الزّلّة[٦]، واستحسنت كلّ ما يقبح من جهته، وصدّقته على كذبه، وأعنته على

---

(١) يقال "وحَصَّلْت الأَمْر: حقَّقْته وأثْبَته" ،(النهاية في غريب الحديث والأثر: للشيباني . مادة (حصل))٠

(٢) تهذيب اللغة مادة (حصل).

(٣) " والمَرْكَبُ: الدَّابة." اللسان (ركب)٠

(٤) "استكان أَي خضع هُوَ افتعل من السّكُون " (مشارق الأنوار على صحاح الآثار: لأبي الفضل السبتي، (المتوفى: ٥٤٤هـ) مادة (سكن)، دار النشر: المكتبة العتيقة ودار التراث٠

(٥) "الغَفْرُ: التغطية. يقال: اغفروا هذا الأمر بغُفْرَتِهِ، أي أصلحوه بما ينبغي أن يصلح به": (الصحاح : مادة (غفر))٠

(٦) "الزلة: السقطة "(الراموز على الصحاح ، المؤلف: السيد محمد بن السيد حسن (المتوفى: ٨٦٦هـ)، ص٣٤، المحقق: د محمد علي عبد الكريم الرديني، الناشر: دار أسامة – دمشق، الطبعة: الثانية، ١٩٨٦)٠

فجرته[١])، وقد كنى الجاحظ بتلك المعاني جميعا عن حرص المحسود على تجنب أذى الحاسد بمداهنته واستمالة وده، وبدأ كلامه هذا (بإن) لدلالتها على الشك وعدم اليقين في أن يفعل أحد ذلك، وهو ما وضحه مفصلا لتأكيد إنكاره لتلك الأفعال التي لا يرتضيها من يربأ بنفسه عن موضع الضعف أو الخزلان، والمراد بالشرط هنا التوبيخ على فعل مثل هذه الأفعال[٢]، التي تنقص من القدر وتخل بالكرامة، وهو ما كنى عنه بقوله: (ولبست له ثوب الاستكانة عند رؤيته) كناية عن إظهار الرضوخ والاستسلام.

وقوله (واغتفرت له الزّلّة)، كناية عن مداراة خطئه، و(الزلة) فعلة تدل على المرة، و"أصل الغفْر: السّتر والتغطية"[٣] فهو يستر زلته ولا يفضحه على رؤوس الملأ.

ولو أن الجاحظ أتى هنا بلفظ (الصفح أو العفو) بدلا من (الغفران) لكان ذلك أنسب للمقام، وأدق لمعناه، إذ "الغفران يَقْتَضِي إِسْقَاط الْعقَاب، وَإِسْقَاط الْعقَاب هُوَ إِيجَاب الثَّوَاب، فَلَا يسْتَحق الغفران إِلَّا الْمُؤمن الْمُسْتَحق للثَّوَاب؛ وَلِهَذَا لَا يسْتَعْمل إِلَّا فِي الله، فَيُقَال: غفر الله لَك، وَلَا يُقَال غفر زيد لَك، إِلَّا شاذا قَلِيلا ..... وَالْعَفو يَقْتَضِي إِسْقَاط اللوم والذم، وَلَا يَقْتَضِي إِيجَاب الثَّوَاب، وَلِهَذَا يسْتَعْمل فِي العَبْد فَيُقَال: عَفا زيد عَن عَمْرو، وَإِذا عَفا عَنهُ لم يجب عَلَيْهِ إثابته"[٤]؛ لأَن الغفران أخص من الستر "وَلَا يُقَال لمن يستر عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا: إِنَّه غفر لَهُ؛ لِأَن الغفران ينبئ عَن اسْتِحْقَاق الثَّوَاب"[٥].

---

(١) وفَجَرَ: أي فسق. وفَجَرَ، أي كذب" الصحاح (فجر).و" سُمِّيَ كُلُّ مَائِلٍ عَنِ الْحَقِّ فَاجِرًا" (مقاييس اللغة (فجر)).

(٢) انظر الإيضاح : للقزويني ،١١٩/٢.

(٣) تهذيب اللغة: مادة (غفر).

(٤) الفروق اللغوية: ٢٣٥.

(٥) السابق: ٢٣٦.

واستخدامه الزلة في الخطأ كناية عن الوقوع فيما يستقبح من الأمور، وأتى بالطباق في قوله (واستحسنت كلّ ما يقبح[١] من جهته، وصدّقته على كذبه)، والقبح نقيض الحسن، والصدق نقيض الكذب، وهو يوضح مقدار تجاوزه عما هو مستنكر، وقبيح، ويوحي بقبول ما لا يستحسنه عاقل أو يرتضيه كريم٠

وحذف جواب الشرط في هذا الموضع، توخّيًا للإيجاز، للعلم به والاستغناء بالشرط؛ لأن "حذف الجواب[٢] أبلغ في المعنى من إظهاره، ألا ترى أنك لو قلت لعبدك "والله لئن قمت إليك" وسكتَّ عن الجواب ذهب فكره إلى أنواع من العقوبة، والمكروه من القتل، والقطع، والضرب، والكسر، فإذا تمثَلَتْ في فكره أنواع العقوبات وتكاثرت عظمت الحال في نفسه، ولم يعلم أيها يتقي؛ فكان أبلغ في رَدْعِهِ وزَجْرِهِ عما يُكْرَه منه، ولو قلت: (والله لئن قمت إليك لأضربنك) وأظهرت الجواب لم يذهب فكره إلى نوع من المكروه سوى الضرب؛ فكان ذلك دون حذف الجواب في نفسه؛ لأنه قد وَطَّنَ له نفسَه فيسهل"[٣]٠

و"لأن الشرطية أصل للنافية، كأن المجتهد في النفي إذا أراد توكيد الجحد يقول: إن كان كذا وكذا فعلى كذا أو: فأنا كذا، وكثر هذا في كلامهم

---

(١) " وَقَبَّحَ عَلَيْهِ فِعْلَهُ إِذَا كَانَ مَذْمُومًا" (المصباح المنير (قبح)٠

(٢) "ويحذفان أَي الشَّرْط وَالْجَوَاب (مَعَ إِن) دون سَائِر الأدوات واختصت بذلك لِأَنَّهَا أم الْبَاب وَلِأَنَّهُ لم يرد فِي غَيرهَا"، (همع الهوامع : للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) ٥٦٢/٢)٠

(٣) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين:، لأبي البركات كمال الدين الأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ)،٣٧٨/٢ ، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م٠

حتى حذف الجواب، وفهم المقصد، فدخلت (إن) في باب النفي"[١]، وتقدير الجواب (وإن فعلت كل ذلك معه لم تسلم من حسده وشره)٠

ولذا تعجب الجاحظ ممن هذا شأنه، وتلك حاله، عن طريق الاستفهام الذي تضمن معنى التعجب بقوله: (فما هذا العناء! كأنّك لم تقرأ المعوّذة، ولم تسمع مخاطبته نبيّه ﷺ، في التّقدمة إليه بالاستعاذة من شرّ حاسد إذا حسد)، وأتى بصورة الاستفهام ليحمل المحسود على البحث عن سبب فعل ذلك، مع علمه بإمكان تجنبه عن طريق الاستعاذة بالله منه٠

وأكد مقصوده هذا عن طريق تشبيه المحسود، وهو على تلك الحال بحال من لم يقرأ من كتاب الله المعوذة التي حفظ الله قارئها من شر (حاسد إذا حسد)، وهو اقتباس من سورة الفلق ﴿مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ﴾ [سورة الفلق: آية (٥)] ، ولم يسمع مخاطبة النبي ﷺ ونصحه الناس بالاستعاذة بالله منه٠

ثم يأت الجاحظ بالاستفهام الدال على معنى النفي، بقوله: (أتطلب – ويحك– أثرًا[٢] بعد عين، أو عطرًا بعد عروس، أو تريد أن تجتني عنبا من شوك، أو تلتمس حلب لبن من حائل[٣])، يريد لا يمكنك ذلك، وحذف فعلي (تطلب، وتريد) من الجمل الثانية، لدلالة ما قبله عليه، فالحذف هنا " يتوقف على أمرين: وجود القرينة ووجود المرجح للحذف على الذكر"[٤]، وفي فضل

---

(١) نتائج الفكر في النَّحو للسُّهَيلي: ص١٦٦، (المتوفى: ٥٨١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢ – ١٩٩٢ م٠

(٢) الأَثَرُ: ما بقي من رسْم الشئ" (الصحاح :مادة أثر)٠

(٣) "وناقَةٌ حائِلٌ: حُمِلَ عليها فلم تَلْقَحْ، أو التي لم تَلْقَحْ سَنَةً أو سَنَتَيْنِ أو سَنَواتٍ" القاموس المحيط مادة (حول)٠

(٤) حاشية الإيضاح: ٤/٢.

الحذف يقول الإمام عبد القاهر: "وانظرْ إلى مَوقِعها في نفسِك، وإلى ما تَجدُه مِنَ اللطفِ والظَّرْفِ إذا أنتَ مررت بموضع الحذف منها، ثم فليت النفسَ عما تَجدُ، وأَلْطفْتَ النظرَ فيما تُحِسُّ به. ثُمَّ تَكلَّفْ أَن تَرُدَّ ما حذَفَ الشاعرُ، وأن تُخرجَه إلى لفظِك، وتُوقِعَه في سمعكَ، فإنك تَعلمُ أنَّ الذي قلتُ كما قلتُ، وأنْ رُبَّ حَذْفٍ هو قِلادَةُ الجِيد، وقاعدةُ التَّجويد"(١).

وهنا يشبه الجاحظ حال هذا المحسود الذي يطلب مالا يمكن وجوده، بحال كل من باقل، والضبع، وهرم، في الجهل وعدم الرشد، بقوله: (إنّك إذا أعيا من باقل(٢)، وأحمق من الضبع(٣)، وأغفل من هرم)، وهو من الأمثال الثائرة التي استعان بها الجاحظ، لتوضيح صورة المحسود الذي يرجو ما لا يكون، ويطلب مالا يوجد، وقد حذف فعل الشرط مستغنيا بالجواب، وتقديره (إنك إن طلبت وجود ذلك إنّك تكون إذا أعيا من باقل، وأحمق.... الخ).

كما أتى بالشرط أيضًا في قوله: (إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك، وتعوجّ بعدما قوّمناك، وتبلّد بعدما ثقّفناك، وتضلّ إذ هديناك، وتنسى إذ ذكّرناك، فأنت كمن أضلّه الله على علم فبطلت عنده المواعظ، وعمي عن

---

(١) دلائل الاعجاز : ص١٥١.

(٢) من أَمثالهم فِي بَاب التَّشْبِيه: (إِنَّه لأعْيَا من بَاقِل) .قَالَ: وَهُوَ رجل مِن رَبيعةَ، وَكَانَ عَيِيًا، اشترى ظبيا بأحد عشر درهما، فقيل له: بكم اشتريته؟ ففتح كفيه، وفرق أصابعه وأخرج لسانه، يشير بذلك إلى أحد عشر، فانفلت الظبى، فضربوا به المثل في العى (الصحاح: مادة (بقل)).

(٣) (أَحْمَقُ مِنَ الضَّبُع.) تزعم الأعراب أن أبا الضِّباع وجد تودية في غدير، فجعل يشرب الماء ويقول: حبذا طَعْمُ اللبن، ويقال: بل كان ينادي "واصَبُوحَاه" حتى انْشقَّ بطنَه ومات. والتودية: العودُ يُشَدُّ على رأس الخِلْفِ لئلا يرضع الفصيل"، (مجمع الأمثال: أبو الفضل النيسابوري (المتوفى: ٥١٨هـ)، المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة – بيروت، لبنان.

المنافع، فختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة. فنعوذ بالله من الخذلان)، فيؤكد على ضلال من جهل ذلك أو تجاهله بعد معرفته والهداية إليه، وبنى معناه هذا على تكرار فعل الشرط مع المطابقة بين ألفاظه، لتنويع المعاني التي تشير إلى الغفلة، وتجاهل ما ينفع٠

وجعل الجواب تشبيها مركبا من تلك الأحوال جميعا، ضربه مثلا لحال هذا المحسود، وقد تمكن منه الجهل بعد العلم، والاعوجاج بعد التقويم، والبلادة بعد التثقيف، والضلال بعد الهداية، والنسيان بعد التذكير، فهو كمن أضله الله على علم، فبطلت عنده المواعظ، ولم يعد يستجيب لها، وامتنع أن يصل إليه شيء من الأمور التي تنفعه، وقد حيل بينه وبينها، فهو كمن منع المنافع، والخير، وحيل بينه وبين ما يريد. بسبب مانع قوى، وهو الختم علي سمعه، وقلبه، فلا يسمع ما يصلحه، ولا يدرك ما يفيده، كما جعل على بصره غشاوة، فلا يرجى صلاحه٠

وقد فصَّل الجاحظ ما ينتج عن ذلك بقوله: (فبطلت عنده المواعظ، وعمي عن المنافع، فختم[١] على سمعه، وقلبه، وجعل على بصره غشاوة[٢])، وهو كناية عن جهله بما فيه المنافع العظيمة، والأمور الجليلة حتى يقع فيما فيه الهلكة والخسران٠

وقوله: (فختم على سمعه، وقلبه، وجعل على بصره غشاوة)، استئناف بياني يبين سبب ما ذكر قبله، وكأن سائلا قال وما سبب ذلك؟ فجاء الجواب

---

(١) "والخَتْم على القَلب: أَلا يفهم شَيْئا وَلَا يخرج مِنْهُ شَيْء، كَأَنَّهُ طبع، وَفِي التَّنْزِيل: ﴿**خَتَمَ الله على قُلُوبهم**﴾ ، أَي: طبع،... والخاتَم: مَا يُوضع على الطِّينة"، (المحكم والمحيط الأعظم): مادة : (ختم)٠

(٢) "الغِشاوة: مَا غشي الْقلب من الطَّبْع، والغشاء: الغطاء"، (اللسان مادة غشا)٠

أن (ختم على سمعه...الخ)، وحتى يبطل عجب من تعجب من تلك الحال الغريبة، ومن تجاهله ما ينفعه بعد علمه به، فإذا علم أن الله ختم على أسماعهم، وقلوبهم ختمًا، وعلى أبصارهم غشاوة، بطل تعجبه، وهو اقتباس من قول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[البقرة: آية (٧)]، بما يظهر تأثره بالقرآن الكريم، وحرصه على الاقتباس منه، ومعناه "طَبَعَ على قُلُوبهم بكفرهم، وهم كَانُوا يسمعُونَ ويبصرون، وَلَكنهُمْ لم يستعملوا هَذِه الحواسّ اسْتِعْمَالا يُجدي عَلَيْهِم؛ فصاروا كمن لم يسمع وَلم يبصر وَلم يعقل"(١)، فيشبه حال هؤلاء الكافرين وعدم الانتفاع بما لديهم من سمع وبصر، بمن لا يمكنه ذلك، لعدم امتلاكه القدرة على السمع والبصر، بجامع فقد المنفعة في كل بطريق التمثيل.

"وَالْخَتْمُ حَقِيقَتُهُ السَّدُّ عَلَى الْإِنَاءِ وَالْغَلْقُ عَلَى الْكِتَابِ بِطِينٍ، وَنَحْوِهِ مَعَ وَضْعِ عَلَامَةٍ مَرْسُومَةٍ فِي خَاتَمٍ لِيَمْنَعَ ذَلِكَ مِنْ فَتْحِ الْمَخْتُومِ، فَإِذَا فُتِحَ عَلِمَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ فُتِحَ لِفَسَادٍ يَظْهَرُ فِي أَثَرِ النَّقْشِ "(٢)، فكأنه جعل الأسماع، والقلوب مثل الأوعية التي يختم عليها فلا يدخلها شيء، كما جعل على بصره غطاء يحجب عنه رؤية ما ينفعه.

وكل من الختم والغشاوة مجاز عن عدم نفوذ العلم بما ينفع إلى كل من السمع والعقل أو البصر، فإذ ضرب على الأسماع وعميت الأبصار، فلا تنتفع بما ترى، وكأنها مختوم عليها، ومغشي دونها، فهي مجاز إما على الاستعارة بتشبيه عدم حصول النفع المقصود منها بالختم، والغشاوة، ثم إطلاق

(١) تهذيب اللغة: مادة (سمع).

(٢) التحرير والتنوير: ١/٢٥٤.

لفظ الختم على الاستعارة التبعية، ولفظ الغشاوة على الاستعارة الأصلية، وهما من الاستعارة التحقيقية، فالمشبه محقق عقلا٠

وإما على جعل كل من الختم والغشاوة تشبيه تمثيلي ، بتشبيه هيئة وهمية متخيلة في قلوبهم في عدم ادراكهم بهيئة الختم، وتشبيه هيئة متخيلة في أبصارهم من عدم التأمل، ورؤية ما ينفع بهيئة الغشاوة ، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس٠

وإما على جعلهما مجازًا مرسلا علاقته اللزوم، وأنَّ المراد هو اتصافه بلازم ذلك، وهو أنَّه لا يسمع ولا يعقل ولا يرى [١]٠

كما أنَّ الغشاوةَ تناسب الأبصار، والختم يناسب الأسماع والقلوب، إذ أن الأذن والقلب يشبهان الوعاء إذ يمكن أن يتخيل فيهما معنى الغلق والختم٠

ومن كان هذا حاله كان مستوجبا للدعاء والاستعاذة بقوله: (أعوذ بالله من الخذلان) "وخِذْلانُ الله للعبد: ألا يعصمه من السوء"[٢] فيقع فيه، لذا وجب الاستعاذة منه٠

كما يصف الجاحظ حال الحاسد مع المحسود بقوله :(إنّه لا يأتيك، ولكن يناديك، ولا يحاكيك، ولكن يوازيك، أحسن ما تكون عنده حالا أقلّ ما تكون مالا، وأكثر ما تكون عيالا، وأعظم ما تكون ضلالا، وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهدا، وأبعد ما تكون من الناس حمدا)٠

فقوله :(إنّه لا يأتيك، ولكن يناديك، ولا يحاكيك،[٣] ولكن يوازيك[٤])، تكرار كاف الخطاب للإشارة إلى تعين المخاطب المحسود بهذا السخط من

---

(١) ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٥٥/١ .

(٢) العين: مادة (خذل)٠

(٣) يقال: "حكَيتُ فلاناً وحاكيتُه إذا فعلتُ مثلَ فِعْله، أو قوله سواء". العين مادة (حكي)٠

(٤) "والإزاء: المحاذاة ، تقول: هو بإزاء فلان، أي: بحِذائه" (العين مادة (وزي))٠

الحاسد، وأكده بكل من (إنّ) المضافة لضميره بغرض تحقيره، والقصر عن طريق العطف بـ(لكن)، حيث قصر فعل الحاسد على ندائه لا إتيانه، لكره ملاقاته، وعلى موازاته لا محاكاته، إذ يوازيه في أفعاله، وصفاته، ولا يقلدها ٠

كما كرر أفعل التفضيل في قوله: (أحسن ما تكون عنده حالا، أقلّ ما تكون مالا، وأكثر ما تكون عيالا، وأعظم ما تكون ضلالا، وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهدا، وأبعد ما تكون من الناس حمدا)، فجعل كل من (أقل- أكثر-أعظم- أقرب- أبعد)، وصفا للمحسود، وطابق بينها ليوضح ما يتمناه الحاسد من الصفات التي لا يهنأ صاحبها، ولا يحسن له حال، فإذا كان المحسود أقل مالا وأكثر عيالا، كان أسوء حالا لعدم كفاية أبنائه حاجاتهم، وما لذلك من أثر سيء في نفسه، وهو ما وضحه الطباق بـ(أقل -وأكثر)، حيث يكون في فرح عظيم، عندما يكون المحسود (بالمصيبة أقرب ، وللحمد أبعد)، وبين كل من القرب والبعد طباق، يظهر مقدار كره الحاسد وحقده على المحسود، الذي يجعله (أحسن حالا- وأفرح ما يكون)، إذ تحقق له ما يريد، وبين (أحسن- وأفرح) مراعاة نظير، تبين حال الحاسد وصفته إذا ساء حال المحسود، وكرر (ما تكون)، لتأكيد رغبته في كينونته على تلك الحال، وتقديم الجار والمجرور (عنده- بالمصيبة- من الناس)، لكونه المقصود الأهم، مع ما بين الجمل من سجع متوازي بين (حالا- مالا- عيالا)، وبين (عهدا- حمدا)، دال على التنوع، الجاذب للانتباه عن طريق الجرس الموسيقى الناشئ عن توافق النغمة وتناسب المعنى ٠

ثم يأتي الجاحظ بالشرط الدال على لزوم تجنب الحاسد، والبعد عنه بقوله: (فإذا كان الأمر على هذا فمجاورة الموتى، ومخالطة الزّمنى[١]، والاجتنان[٢] بالجدران[٣]، ومصر المصران[٤]، وأكل القردان[٥]، أهون من معاشرته، والاتّصال بحبله)، وجاء بـ(أفعل) التفضيل (أهون) جوابًا للشرط؛ للدلالة على أن فعل تلك الأشياء التي لا ترتضيها النفسُ لكراهتها، أهون وأقل ضررًا من معاشرة الحاسد والاتصال به، وأكده بالاستعارة التصريحية بقوله: (والاتّصال بحبله)، لكونها " أوكد في النفس من الحقيقة، وتفعل في النفوس مالا تفعله الحقيقة"[٦]، حيث جعل وُدَّ الحاسدَ ومخالطَتهُ حبلا لا يرغب في وصله٠

كما أورد في هذا الأسلوب عدة كنايات، منها: (مخالطة الزَّمَنى)، كناية عن معاشرة العجائز، والمبتلين من كبار السن، وضعاف القوى٠

---

(١) يقال " زَمِنَ الرجلُ يزمَن، وَهُوَ عُدْمُ بعض أَعْضَائِهِ أَو تَعْطِيل قواه،...وأزمنَ الشيءُ، إذا أَتَى عَلَيْهِ الزمانُ،.(جمهرة اللغة: مادة (زمن))٠

(٢) الِاجْتِنَانُ: الِاسْتِتَارُ، (مختار الصحاح: مادة (جنن)).

(٣) "جَمْعُ الْجَدْرِ جُدْرَانٌ " ،(مختار الصحاح: مادة (جدر)،: و"هُوَ كالحائط، لَكِن الْحَائِط يُقَال اعْتِبَارا بالإحاطة للمكان، والجدار اعْتِبَارا بالنتوء والارتفاع"، (الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: لأبي البقاء القريمي الكفوي ، ص ٣٥٤ .

(٤) "والمَصيرُ: المعا، –مفرد أمعاء– والجمع المصران،... وقال بعضهم: مصير إنما هو مفعل من صار إليه الطعام،... وقال ابن السكيت: المصر: حلب كل ما في الضرع".(الصحاح: مادة (مصر)٠

(٥) "والقراد: دويبة تعض الْإِبِل، وَالْجمع :أقردة، وقردان، " (المحكم والمحيط الاعظم: مادة (قرد))٠

(٦) البديع في نقد الشعر: لأسامة بن منقذ (المتوفى: ٥٨٤هـ)ص٤١، بتحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد، مراجعة: الأستاذ إبراهيم مصطفى، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة٠

و(الاجتنان بالجدران) كناية عن التستر والحماية مما يرهب ويخيف، و(مصر المُصْران، وأكل القِرْدان) كناية عن شدة الجوع.

وكل تلك الأحوال كناية عن عدم إمكان معاشرة الحاسد، ووجوب البعد عن مخالطته؛ لما يترب عليه من ضرر عظيم نستعيذ بالله منه.

ثم ينتقل الجاحظ إلى وصف الحسد، حيث يجعل الغل نتيجة له، ومسببا عنه بقوله: (والغِلُّ نَتِيجُ[١] الحسد، وهو رضيعه، وغصنٌ من أغصانه، وعون من أعوانه، وشعبة من شعبه، وفعل من أفعاله).

وذكر المسند اليه (هو) مع جواز حذفه؛ لزيادة للإيضاح وتقرير الصفة، ثم حذفه من بقية الصفات، لوجود القرينة الدالة عليه وهو لفظ (الغل)، فهي قرينة مقالية دالة على المحذوف، وقد ذكر الدكتور أبو موسى مزايا الحذف من العبارة بقوله: "كل صور الحذف وراءها مزايا ثلاث؛ الأولى: الاختصار، أو الإيجاز ....، والثانية: صيانة الجملة من الثقل، والترهل اللذين يحدثا من ذكر ما تدل عليه القرينة، والثالثة: إثارة الفكر والحس بالتعويل على النفس في إدراك المعنى"[٢].

كما شبه الجاحظ ما يتسبب عن الحسد من غِلٍّ بكل من: (النتاج، الرضيع، والغصن، والعون، والشعبة، والفعل) في ترتبه عليه، وتفرعه عنه، وكونه سببا فيه، وبلاغته تعود إلى ما كان "طريق التشبيه فيه المبالغةُ من المشاهدات والمحسوسات"[٣]، وزاده توضيحا وتفصيلا بتشبيه آخر بقوله: (كما

---

(١) "(النِّتَاجُ) اسْمٌ لِجَمْعِ وَضْعِ الْغَنَمِ وَالْبَهَائِمِ كُلِّهَا عَنْ اللَّيْثِ وَغَيْرِهِ ثُمَّ سُمِّيَ بِهِ الْمَنْتُوجُ "(المغرب: لبرهان الدين الخوارزمي المُطَرِّزِيّ (المتوفى: ٦١٠هـ)، مادة (نتج)، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ .

(٢) خصائص التراكيب : د/محمد محمد أبو موسى، ص ١٦١.

(٣) أسرار البلاغة : ص ٢٣٥.

أنّه ليس فرع إلّا له أصل، ولا مولود إلّا له مُولِد، ولا نبات إلّا من أرض، ولا رضيع إلّا من مُرضِع، وإن تغيّر اسمه، فإنّه صفة من صفاته، ونبتٌ من نباته، ونعت من نعوته)، حيث شبه الغل الناتج عن الحسد بكل من (الفرع، والمولود، والنبات ، والرضيع) في كون كل منها مسبب عن غيره، وهوما يعرف بتشبيه الجمع، لـ"تعدد الطرف الثاني"[١] من التشبيه، وأكده بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء، وهو قصر حقيقي تحقيقي لموافقته الواقع، وبذلك تآزر كل من التشبيه والقصر في توضيح صورة الحسد وما ينتج عنه من غل.

كما أتى بالشرط بـ(إن) في قوله (وإن تغيّر اسمه، فإنّه صفة من صفاته...الخ)، حيث يؤكد ارتباطه الوثيق بأصله، لا ينفك عنه مهما اختلفا في الشكل أو الوصف، ودلالة التنكير فيما ذكر على الجنس إذ يقصد به فرد غير معين مما يصدق عليه اسم الجنس، إلى جانب ما دل عليه الجناس الاشتقاقي بين (صفة وصفات، نبت ونبات، نعت ونعوت) من التأكيد، وما حققه من التناسق والتناغم بين الكلمات.

ومن خلال هذا المبحث يتضح:

اعتماد الجاحظ فيه على كل من الأساليب الإنشائية، والبديعية، إلى جانب استخدامه لبعض الأساليب الأخرى: كالشرط، والتشبيه ،والكناية، حيث استخدم كل من: أسلوب الأمر الذي تضمن معنى النصيحة، والذي يؤكد على لزوم البعد عن الحاسد، وتجنب مخالطته، مع ما فيه من الدلالة على التنبيه، والحث على قبول النصح، والعمل به، إلى جانب تضمينه الأمر أيضًا معنى الشرط، الدال على زيادة التنبيه، والحرص على فعل المأمور به، وأسلوب

(١) بغية الايضاح : ٤٢٩/٣.

النهي الذي أشرب معنى النصح أيضًا، وتكرار الجاحظ لكل من أساليب: الشرط بـ (إذا، وإن، ولو)، والقصر، سواء كان بتقديم الجار والمجرور، أو النفي والاستثناء، أو العطف بـ (لكن)، أو الاستفهام، المتضمن معنى: النفي، أو التعجب، وتكرار أفعل التفضيل، والوصل بين الجمل، والاستئناف البياني، إلى جانب اقتباسه لألفاظ من القرآن الكريم، وحذفه لكل من المسند إليه، وجواب الشرط، والاعتراض بالدعاء، مع الإتيان بالعديد من الصور التشبيهية، والكنائية، والاستعارية، وعنايته الظاهرة بذكر الأمثال السائرة، وتكرارها، بما يوضح معناه، ويثبت فكره، إلى جانب اهتمامه الملحوظ بالمحسنات البديعية من طباق، ومقابلة، ومراعاة نظير، وجناس مصحف، وسجع مطرف، ومتوازي، يظهر مقدرته اللغوية، وإلمامه بمفردات اللغة وأساليبها، التي مكنته من صوغ عبارات متنوعة، أعانته على توضيح غرضه، وإيصال فكره إلى وجدان مخاطبيه.

* * * * * *

المبحث الرابع
من بلاغة الجاحظ في وصف نعيم الجنة جزاء ترك الحسد وحسن ختام الجاحظ للرسالة

أولًا: من بلاغة الجاحظ في وصف نعيم الجنة:

النص :

يقول الجاحظ في وصف أحوال الجنةَ وأهلها:[ورأيت الله –جل جلاله– ذكر الجنّة في كتابه فحلّاها بأحسن حلية، وزيّنها بأحسن زينة، وجعلها دار أوليائه، ومحلّ أنبيائه، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فذكر في كتابه ما منّ به عليهم من السّرور، والكرامة عندما دخلوها، وبوّأها لهم فقال:﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ**﴾ .

فما أنزلهم دار كرامته إلّا بعد ما نزع الغلّ والحسد من قلوبهم، فتهنّوا بالجنّة، وقابلوا إخوانهم على السّرر، وتلذّذوا بالنظر في مقابلة الوجوه لسلامة صدورهم، ونزع الغلّ من قلوبهم، ولو لم ينزع ذلك من صدورهم، ويخرجه من قلوبهم، لافتقدوا لذاذة الجنّة، وتدابروا وتقاطعوا وتحاسدوا، وواقعوا الخطيئة، ولمسّهم فيها النّصب، وأعقبوا منها الخروج، لأنّه عزّ وجلّ فضّل بينهم في المنازل، ورفع درجات بعضهم فوق بعض في الكرامات، وسنيّ العطيات.

فلمّا نزع الغلّ والحسد من قلوبهم ظنّ أدناهم منزلة فيها، وأقربهم بدخول الجنّة عهدا، أنّه أفضلهم منزلة، وأكرمهم درجة، وأوسعهم دارا بسلامة قلبه، ونزع الغلّ من صدره، فقرّت عينه وطاب أكله، ولو كان غير ذلك لصاروا إلى التنغيص في النظر بالعيون، والاهتمام بالقلوب، ولحدثت العيوب والذّنوب][(١)].

(١) الرسائل الأدبية: ص ١٢٤.

يذكر الجاحظ في هذا المبحث صفة الجنة ونعيمها كما أخبر عنها المولى –سبحانه–، ويوشيها بأعظم الصفات وأعلاها، ويوضح خلوها من الغل والحسد الذي يفقد الشعور بالسعادة والرضا، مستخدمًا الأسلوب الخبري الذي يقرر المعنى ويثبته، يقول: (ورأيت الله جل جلاله ذكر الجنّة في كتابه فحلّاها بأحسن حلية، وزيّنها بأحسن زينة، وجعلها دار أوليائه، ومحلّ أنبيائه، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)، وأتى بالخبر غير مؤكد لثبوته بخبر المولى–عز وجل– وقول رسوله ﷺ، ورسوخه في عقيدة كل مسلم، وعبر عن مقصوده هذا بصيغة الماضي في كل من (رأيت، ذكر، فحلاها، وزينها، وجعلها، رأت، سمعت، خطر)، لتحقق وجودها، فهو كائن لا محالة لمن ترك الحسد وتجنبه، وصيغة التفضيل (أحسن) توضح ما أعده المولى–سبحانه– من نعيم وتكريم، يلاءم منزلة الأنبياء، والأولياء، وهو ما كنى عنه بقوله: (ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت)، إذ لم يشاهد مثله من قبل.

وهنا التفت[1] الجاحظ من صيغة الخطاب في (ورأيت)، إلى صيغة الغائب في وصف الجنة بقوله: (فحلّاها، وزيّنها، وجعلها، وفيها)؛ لينتقل بالمخاطب إلى معرفة أحوال الجنة وأهلها، ويوضح ما أعده الله –سبحانه– لعباده من نعيم وتكريم.

(١) هذا عند علماء المعاني، وله معنى آخر عند المتقدمين لا يتسع مجاله هنا، وهو" مأخوذ من التفات الإنسان من يمينه إلى شماله أو العكس. هذا والالتفات من حيث إنه يشتمل على نكتة هي خاصية التركيب من علم المعاني، ومن حيث إنه يحسن الكلام ويزينه من علم البديع والسكاكي أورده في علم المعاني والبديع.) (حاشية الايضاح : للخطيب ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ٨٥/٢).

وقوله: (جعلها دار أوليائه، ومحلّ أنبيائه)، مجازٌ مرسلٌ علاقته الجزئية، حيث ذكر من أهل الجنة الأولياء والأنبياء، وأراد كل من أكرمهم الله-سبحانه- بدخول الجنة من العباد، وخص الأولياء والأنبياء بالذكر، لكونهم أشرف منزلة، وأعظم مكانة وفضلا، والإضافة لضمير المولى -سبحانه وتعالى- لتعظيم المضاف وتكريمه٠

ومن الراسخ في علمنا أن الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله -عزّ وجل- للمتقين، وقد أخبر عنها النبي ﷺ في الحديث القدسي: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ أَعْدَدْت لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١)، وقد اقتبس الجاحظ ألفاظ ذلك الحديث الشريف؛ لبيان ما أعده الله -سبحانه- لأهل الجنة من نعيم٠

كما استشهد به الإمام العلوي على الإيجاز(٢)، فهو من الأحاديث الواردة على جهة الإجمال، إذ تدل تلك الكلمات المعدودة على ما أعده المولى-سبحانه- لأهل الجنة من نعيم يعجز العقل عن إدراكه، أو تخيل

(١) شرح الأربعين النووية للعثيمين ، المؤلف: م/حمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الثريا للنشر، ص١٢٧،٢١٦.
وفي حاشية السندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، المؤلف: محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (المتوفى: ١١٣٨هـ)، الناشر: دار الجيل – بيروت، بدون طبعة ، ص٢/٥٨٩)٠
وأخرجه البخاري كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (٣٢٤٤)، ومسلم – كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، (٢٨٢٤)٠

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: للعلويّ (المتوفى: ٧٤٥هـ)،١٣٢/٢، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ٠

صفته، قال تعالى:﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة: آية ١٧]٠

وبعد أن ذكر الجاحظ صفة الجنة كما وردت في الحديث الشريف، أتى بصفة أهلها كما وردت في الكتاب الكريم بقوله: (فذكر في كتابه ما منّ به عليهم من السّرور والكرامة عندما دخلوها وبوّأها لهم فقال:﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ** ﴾ [الحجر: الآيات (٤٥ – ٤٨)]٠

وهنا جاء الأسلوب الخبري مؤكدًا بـ(إن) بقوله: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴾، إذ أخبر المولى –سبحانه– عن المتقين أن أعد لهم جنات وعيون[١]، والغرض من التأكيد: هو زيادة الإيضاح والتقرير، وقوله: ﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ** ﴾مقول لقول محذوف يقدر حالا من المتقين، والقرينة ظاهرة، والتقدير: يقال لهم: ادخلوها، "وَالْقَائِلُ هُوَ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ إِدْخَالِ الْمُتَّقِينَ الْجَنَّةَ"[٢]٠

والأمر بـ (ادخلوها) للإكرام، و(الْبَاءُ) في (بِسَلامٍ) للمصاحبة، أي يصحبكم مع دخولها السلام، وهو بيان لحالهم عند دخول الجنة، حيث يكونوا سالمين من كل أذى، أو مسلّما عليكم، وكذلك قوله: (آمنين)٠

---

(١) "وَالْعُيُونُ: جَمْعُ عَيْنٍ اسْمٌ لِثُقْبٍ أَرْضِيٍّ يَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ. فَقَدْ يَكُونُ انْفِجَارُهَا بِدُونِ عَمَلِ الْإِنْسَانِ "(التحرير والتنوير: (٢٤٥/١٤) ٠

(٢) التحرير والتنوير،٥٥/١٤.

ومن أحوالهم التي ذكرت في القرآن الكريم ، واستدل بها الجاحظ على خلو الجنة من الغل، والحسد الذي يفسد نعيمها قوله سبحانه: ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** ﴾، والواو عاطفة على الخبر وهو ﴿ **فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴾ ، والتقدير: (إن المتقين في جنات، ونزعنا) وكلمة (إِخْواناً) "حال من الضمير المضاف إليه صدور والصدور جزء من المضاف إليه "[١]، "وإنما تجيء الحال من المضاف إليه: إذا كان المضاف بعضه"[٢]، والمعنى على التشبيه أي نزعنا ما يحيك في الصدور من غل وحسد، حيث يكون حالهم في الجنة كحال الإخوان في الدنيا، وبلاغة التشبيه تكمن في المبالغة في وصفهم بالأخوة والمؤانسة وحسن الصحبة، التي نشأت من حذف الأداة والوجه٠

وفاعل (النزع) هو المولى –سبحانه– وتعالى، ولفظ النزع يوحي بتمكن الغل، واستقراره في النفوس حتى إنه لينزع منها نزعا، والتعبير بـ (صدورهم) مجاز مرسل علاقته المحلية، حيث ذكر المحل وأراد الحال فيه، وهو القلب، فالقلب محل الإحساس بالغل والحسد وغيرهما من المشاعر، وقوله: ﴿**مِنْ غِلٍّ**﴾ [٣] بيان للحال، وكشف لما هو مستقر في الصدور، والتعبير بـ (إخوانا) حال ثانية، وقوله: ﴿**عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ**﴾ بيان لأحوالهم، وهيئتهم

---

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: لابن عقيل، (المتوفى : ٧٦٩هـ)،٢٦٨/٢، المحقق : محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر : دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة : العشرون ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م٠

(٢) ضياء السالك إلى أوضح المسالك، لمحمد عبد العزيز النجار، ٢٢٢/٢، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م٠

(٣) " الغِلُّ: وَهُوَ الحِقْدُ الكَامِنُ" (تهذيب اللغة مادة غل) ٠

التي يجلسونها، يقال "تقابل الْقَوْم: اسْتَقْبل بَعضهم بَعْضًا، جَاءَ فِي التَّفْسِير: أَنه لَا ينظر بَعضهم فِي أقفاء بعض"(١)، ولأن "المتحابين في الله ينظر بعضهم إلى بعض"(٢)، فهو أبلغ في المؤانسة وحسن الصحبة٠

وقوله:﴿**لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ**﴾ المس كناية عن الإصابة، و(لا) لنفي النصب(٣) عنهم، "وَهُوَ التَّعَبُ وَالْإِعْيَاءُ، وَقَوْلُهُ (نَصَبٌ) نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَتَعُمُّ كُلَّ نَصَبٍ، فَتَدُلُّ الْآيَةُ عَلَى سَلَامَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ، "(٤)، فلا يصيبهم في الجنة نصب، مثل نصب الدنيا و إعيائها، والضمير في (يمسهم) مفعول مقدم للعناية به، فالغرض هو التأكيد على راحة أهل الجنة، وعدم شعورهم بالتعب ولو على سبيل المس الذي هو أضعفها، ولذا أتى به دون الإصابة، وعطف عليها جملة﴿**وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ**﴾لتأكيد نفي إخراجهم منها بعد دخولهم فيها، وقدم الجار والمجرور في كل من (فيها– ومنها)؛ للعناية ببيان أحوالهم٠

وقد بينها الجاحظ كما وردت في الآية الكريمة، مستخدما أسلوب القصر بقوله: (فما أنزلهم دار كرامته إلّا بعد ما نزع الغلّ، والحسد من قلوبهم)، مستخدما طريق النفي والاستثناء، للتأكيد على أنهم لم يستحقوا تلك

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم: مادة (ق.ب.ل)٠

(٢) التذكرة الحمدونية: لأبي المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفى: ٥٦٢هـ)، ٣٥٢/٤، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧

(٣) وَالنَّصَبُ: الإعياء، (مجمل اللغة لابن فارس مادة (نصب)٠

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: للشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان، عام النشر : ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م٠

الكرامة، وذلك الإنعام إلا بعد نزع الغل، والحسد من قلوبهم، و(دار الكرامة) هنا كناية عن موصوف وهي الجنة.

وقوله: (فتهنّوا بالجنّة، وقابلوا إخوانهم على السّرر، وتلذّذوا بالنظر في مقابلة الوجوه لسلامة صدورهم، ونزع الغلّ من قلوبهم)، هو نتيجة لسلامة الصدور، ونزع الغل من القلوب، و(اللام) للتعليل، وصيغ الماضي (تهنوا، قابلوا، تلذّذوا، نزع)؛ لتأكيد تحقق ذلك لهم على الاستعارة التبعية في الفعل الماضي، بتشبيه المستقبل بالماضي في تحقق الوقوع، وأن ما ثبت الخبر بوقوعه كالواقع، فهي محققة لتحقق أسبابها، والتعبير (بإخوانهم) كناية عما بينهم من مودة، وصحبه، وقوله: (فتهنّوا بالجنّة، وقابلوا إخوانهم على السّرر، وتلذّذوا بالنظر في مقابلة الوجوه، ونزع الغلّ من قلوبهم) يوضح نعمة الله عليهم وإكرامه لهم، وكونهم (يتقابلون، ويتلذذون) كناية عما بينهم من محبة، وسلام، وما يتمتعون به من نعيم، وتكريم، وهو تأكيد على أنه لا هناء لعيش، ولا لذة لنعيم، مع غل أوحسد.

وأثبته بـ(لو) الشرطية[١] في قوله:

(ولو لم ينزع ذلك من صدورهم ويخرجه من قلوبهم، لافتقدوا لذاذة الجنّة، وتدابروا، وتقاطعوا، وتحاسدوا، وواقعوا الخطيئة، ولمسّهم فيها النّصب، وأعقبوا منها الخروج)، وجاء بـ (لو) هنا لكونها حرف امتناع لوجود؛ "لدخولها على منفي، بعده موجب"[٢]، حيث امتنع افتقاد لذاذة الجنة و.....الخ؛ لنزع الغل من الصدور، وإخراج الحسد من القلوب، وتكرار كل من لفظي (النزع، والإخراج)؛ لتأكيد خلوهما من ذلك الداء الخبيث الذي يفقد صاحبه الشعور بالرضا، أو الإحساس بلذة النعيم، واللام في (لافتقدوا)، لتأكيد جواب الشرط.

---

(١) انظر الايضاح: ١٢٥/٢.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني: ص٢٧٧.

وعطف كل من: (تدابروا، وتقاطعوا، وتحاسدوا، وواقعوا الخطيئة، ولمسّهم فيها النّصب) على جملة (لافتقدوا لذاذة الجنّة)، لاتفاقها جميعا في الخبرية لفظا ومعنى، ثم عطف خبرا آخر هو نتيجة ذلك التحاسد والتدابر، وهو قوله (وأعقبوا منها الخروج)، فالجنة ليست موطنا للحسد، ولا مأوى للحُسَّاد٠

كما ذكر ما قد يحسد فيه أصحاب الجنة بعضهم لولا نزع الحسد منهم بقوله: (لأنّه –عزّ وجلّ– فضّل بينهم في المنازل، ورفع درجات بعضهم فوق بعض في الكرامات، وسنيّ العطيات)، (اللام) للتعليل، والأفعال الماضية (فضل، ورفع) لثبوت الخبر، و توضيح لسبب التحاسد لو قدر وجوده بينهم٠

كما ربط الجاحظ بين عباراته بـ (لما)[١] الرابطة في قوله: (فلمّا نزع الغلّ، والحسد من قلوبهم ظنّ أدناهم منزلة فيها، وأقربهم بدخول الجنّة عهدا، أنّه أفضلهم منزلة، وأكرمهم درجة، وأوسعهم دارًا، بسلامة قلبه، ونزع الغلّ من صدره، فقرّت عينه وطاب أكله، ولو كان غير ذلك لصاروا إلى التنغيص في النظر بالعيون، والاهتمام بالقلوب، ولحدثت العيوب والذّنوب)٠

كما ربط أيضَا بـ (واو) الوصل في (وأكرمهم درجة، وأوسعهم... الخ))؛ للتوسط بين الكمالين، واتفاقها في الخبرية لفظا ومعنى، واتبعها بالعطف بالفاء في (فقرّت عينه)؛ لترتبها على ما سبقها من غير تراخ أو توان، يقال حال الرضا: (قرّت عينه) و" مَعْنَاهُ: رُؤْيَة الْإِنْسَان مَا يسر بِهِ وبلوغه مَا يُوَافقهُ"[٢]،

---

(١) ذكر ابن هشام "من أوجه(لما) أَن تخْتَص بالماضي فتقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عِنْد وجود أولاهما نَحْو لما جَاءَنِي أكرمته وَيُقَال فِيهَا حرف وجود لوُجُود وَبَعْضهمْ يَقُول حرف وجوب لوُجُوب ..وتبعهم جمَاعَة أَنَّهَا ظرف بِمَعْنى حِين وَقَالَ ابْن مَالك بِمَعْنى إِذْ وَهُوَ حسن لِأَنَّهَا مُخْتَصَّة بالماضي وبالإضافة إِلَى الْجُمْلَة"، (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام ، ص٣٦٩)٠

(٢) مشارق الأنوار على صحاح الآثار: مادة (قرر)٠

كناية عن راحة النفس ومتعة العين، حيث تسكن العين، وتستقر، ولا تستشرف إلى غير ما قسم لها، وقيل:" (أَقَرَّ) اللَّهُ عَيْنَهُ أَيْ أَعْطَاهُ حَتَّى تَقَرَّ، فَلَا تَطْمَحَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ"(١).

وعبر بـ (الظن)؛ لأن تلك الأفضلية تقع في الاعتقاد لعظم ما يجد من نعيم، حتى يظن أنه لا نعيم فوقه، وبذلك يكون نزع الغلّ وسلامة القلب، سببا لرضا النفس، وطيب العيش، والهناء بالجنة .

وأكد مقصده هذا بجملة الشرط بقوله: (ولو كان غير ذلك لصاروا إلى التنغيص(٢) في النظر بالعيون، والاهتمام بالقلوب، ولحدثت العيوب، والذّنوب)، وأتى بـ (لو) وهي حرف امتناع لامتناع، لأنها "دخلت على موجبين"(٣)، وجملتي (لصاروا الى التنغيص...ولحدثت العيوب) جواب الشرط، واللام فيهما للتأكيد، والعطف، لإثبات امتناع ذلك كله لامتناع الشرط، والإشارة هنا إلى نزع الحسد من بينهم، وخص كل من (النظر بالعيون، والاهتمام بالقلوب)؛ لأنهما آليات الحاسد، وبهما يقع التحاسد، والتعبير كناية عن طهارة قلوب أهل الجنة ،وخلوها عن كل ما يُفقد لذَّة التنعم بها.

ولذلك جعل الجاحظ سبب استحقاق أهل الجنة تلك المكانة العالية، والمنزلة السامية من الجنة، هو خلو قلوبهم من الحسد، وصفاء نفوسهم من الحقد، فهم لا يتحاسدوا، ولا يتباغضوا، لرضاهم بقسمة الله وعطاءه، فشعروا بالنعيم، وأحسوا الإكرام، وقرت أعينهم، وكان جزاؤهم إتمام النعمة والفضل.

*****

(١) مختار الصحاح: مادة (قرر).

(٢) التنغيص" الْقَطْعِ عَنِ الْمُرَادِ" (المقاييس مادة (نغص)، ويقال "نَغَّصَ الله عليه العيشَ تَنْغيصاً، أي كدَّره" (الصحاح: مادة (نغص).

(٣) الجنى الداني في حروف المعاني: ص٢٧٧.

ثانياً: حسن ختام الجاحظ للرسالة

النص:

يقول الجاحظ في ختام رسالته: (وما أرى السّلامة إلّا في قطع الحاسد، ولا السّرور إلّا في افتقاد وجهه، ولا الرّاحة إلّا في صرم مداراته، ولا الرّبح إلّا في ترك مصافاته٠

فإذا فعلت ذلك فَكُلْ هنيّا مريّا، ونم رضيّا، وعش في السّرور مليّا، ونحن نسأل الله الجليل أن يصفّي كدر قلوبنا، ويجنّبنا وإياك دناءة الأخلاق، ويرزقنا وإيّاك حسن الألفة والاتّفاق، ويحسن توفيقك وتسديدك، والسّلام)٠

وبعد هذا الحديث الطويل الذي كشف دخائل الحاسد، وأحواله، وآثاره، على كل من الحاسد والمحسود، خرج الجاحظ بنصيحة لزم اتباعها والعمل بها، من أجل السلامة من هذا الداء الخبيث ومضاره، وهي وجوب تجنب الحاسد والبعد عن وصاله، وافتقاد وجهه، واستخدم الكاتب لتأكيد هذا المعنى أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء، في قوله: (وما أرى السّلامة إلّا في قطع الحاسد) وهو أقوى طرق الإثبات لتأكيد معناه، وكرر هذا الأسلوب أربع مرات، ليزيد من إثبات ما رآه من خلال خبرته وتجاربه، ولذا نسب هذا الرأي إلى نفسه بقوله (وما أرى)، حيث ينفي رؤيته لأي شيء فيه السلامة من أذى الحاسد، سوى تجنب وصله، وقطع وُدَّهُ، وعبر بـ(القطع)؛ لأن" الْقطع يكون ظَاهرا وخافيا"[١] مع ما فيه من إيجاز بحذف المضاف، والأصل هو: (قطع صلته)٠

ثم عطف عليه قصرًا آخر بذات الطريق؛ لزيادة التأكيد بقوله: (ولا السّرور إلّا في افتقاد وجهه)، وكل من قطع الصلة، وافتقاد الوجه، كناية

(١) الفروق اللغوية: ، ص١٥١.

عن هجره والبعد عنه، وذكر الوجه مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ لأن الوجه هو الجزء الذي يقع به التعارف، والتواصل، فكأنه الشخص كله٠

كما يعطف عليه قصرا آخر بقوله: (ولا الرّاحة إلّا في صرم مداراته)، حيث قصر الراحة النفسية، والبدنية على قطع صحبته، وملاينته، يقال: " ودَارَيت الرجلَ: لايَنْته ورَفَقْت بِهِ، وأَصله مِنْ دَرَيْت الظَّبْي أَي: احْتَلْت لَهُ وخَتَلْته حَتَّى أَصيدَه" [١]، استعيرت للملاينة، وحسن الصحبة على الاستعارة التبعية في المصدر٠

ثم نجده وقد أتى بقصر أخير عن طريق الوصل بالواو بقوله: (ولا الرّبح إلّا في ترك مصافاته[٢]) واستخدام لفظ الربح مع ترك مصافاة الحاسد استعارة مكنية، فـ "كل مَا حصل فِيهِ ربح فَهُوَ تِجَارَة" [٣]، ونفي الربح عن وصل الحاسد، وإثباته في ترك مصافاته ، يشير إلى أن وصله تجارة خاسرة ينبغي تجنبها٠

وبذلك يكون الجاحظ قد قصر كل من (السّلامة ، والسّرور، والرّاحة، والرّبح) على (قطع الحاسد، وافتقاد وجهه، وصرم مداراته، وترك مصافاته)، وهو من القصر الحقيقي الادعائي للمبالغة في الحث على قطع وصل الحاسد، والبعد عن مخالطته ووده٠

ومن البين أن تكراره لأسلوب القصر، والوصل بين جمله بالعطف بالواو؛ لزيادة التأكيد، والحرص على وجوب مجافاة الحاسد، والبعد عنه،

---

(١) لسان العرب مادة (دري)٠

(٢) " الصَّفْوُ نقيض الكَدَرِ، وصَفْوَةُ كُلِّ شيءٍ خالصُه وخَيرُه. والصَّفاءُ: مُصافاة المَوَدَّة والإخاءِ".(العين للخليل :مادة (صفو)).

(٣) الفروق اللغوية: ٧٣.

لتتحقق السلامة مما يتسبب فيه من أذى، مع ما بين تلك الألفاظ من مراعاة نظير، تشير إلى التنوع، إلى جانب تأكيد معانيها.

ولذلك أتى الجاحظ بأسلوب الشرط بقوله: (فإذا فعلت ذلك فَكُلْ هنيّا مريّا[١]، ونم رضيّا، وعش في السّرور مليّا[٢])، حيث جعل كل من (الهناء، والرضا، والسرور) نتيجة محققة إذا استجاب لنصحه، وفعل ما وصَّى به، من هجر الحاسد، وتجنبه، وصيغة الأمر هنا للإكرام، وخص كل من (الأكل، والنوم، والعيش)؛ لأنه بصفائهم تتحقق سعادة الإنسان وراحته.

وأتى بالفاء في جواب الشرط ليعلم ارتباطه بالأداة ؛ لأن الجواب لا يصلح أن يجعل شرطاً لكونه فعلا طلبيا"[٣]، وهو الأمر في كل من (فَكُلْ، ونَمْ، وعِشْ) إذ وقع جوابٍ للشرط، وأدخل عليه (الفاء) "ليتصل مَا بعْدهَا بِمَا قبلهَا، وَإِنَّمَا كَانَت أولى من سَائِر حُرُوف الْعَطف، لِأَنَّهَا توجب أَن يكون مَا بعْدهَا عقيب مَا قبلهَا، وَلَيْسَ (الْوَاو) كَذَلِك؛ لِأَنَّهَا توجب الْجمع بَين شَيْئَيْنِ، وَلَا يكون لَفظهَا دلَالَة على أَن الْجَواب يسْتَحق بِوُقُوع الشَّرْط، وَلم يجز اسْتِعْمَال (ثمَّ) ؛ لِأَنَّهَا للتراخي، فَإِذا اعْتقد الْمَشْرُوط لَهُ تراخي الْجَزَاء عَن وُقُوع فعله، لم

---

(١) "قيل: الهنيء: الطَّيِّبُ الْمُسَاغُ الَّذِي لَا يُنَغِّصُهُ شَيْءٌ، وَالْمَرِيءُ: الْمَحْمُودُ الْعَاقِبَةِ التَّامُّ الْهَضْمِ الَّذِي لَا يَضُرُّ"(معالم التنزيل في تفسير القرآن: لابن للبغوي ، ٥٦٦/١) "وهما صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه، وهما وصف مصدر أي: أكلاً هنيئاً مريئاً أو حال"، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: للنسفي ،١/ ٣٣٠) ، و" وأصل الهَنِيء والمهْنَا مَا أتَاك فِي غير مَشَقَّة"، (المخصص: لابن سيده ، ص٤١٦) .

ويقال:" مرَى (الشَّيءَ) يَمْريه مَرْياً: (اسْتَخْرَجَه"، تاج العروس: مادة (مرى)، "وَأَصله المري، وَهُوَ اسْتِخْرَاج اللَّبن من الضرع" (الفروق اللغوية: ص١٠٠).

(٢) "الْمَلِيُّ: الزَّمَانُ الطَّوِيلُ" : مختار الصحاح مادة (ملا).

(٣) انظر: الجنى الداني في حروف المعاني:٦٨,٦٧.

يحرص على الْفِعْل، فَلذَلِك لم يجز اسْتِعْمَال (ثمَّ) ، واستعملت الْفَاء"[١]، والتعبير كناية عن طيب العيش ورضا النفس ٠

كما عرض الجاحظ تلك المعاني على تنغيم مسجوع، يتلاءم مع الاستقرار النفسي الذي يشعر به، وما يتحقق له من رضا نتيجة بعده عما يكدر عيشه، وينغص راحته٠

ثم يختم الجاحظ رسالته بالدعاء الذي يلائم حديثه عن الحسد بقوله: (ونحن نسأل الله الجليل أن يصفّي كدر قلوبنا، ويجنّبنا، وإياك دناءة الأخلاق، ويرزقنا، وإيّاك حسن الألفة، والاتّفاق، ويحسن توفيقك وتسديدك، والسّلام)٠

والختام بالدعاء طريقة تعبيرية ومحمودة، سار عليها كثير من الأدباء، وهي تصور حسن الختام الذي حرص الكتاب والأدباء على الاحسان فيه غاية الإحسان؛ لأنه " آخر ما يبقى في الأسماع، وربما حفظ من دون سائر الكلام في غالب الأحوال"[٢]٠

ولذلك أتى الجاحظ بعدد من الجمل الدعائية واصلا بينها بالواو؛ لاتفاقها في الانشائية لفظا ومعنى، كما أن تنوع المدعو به يشير إلى مقدار حرصه على سلامة مخاطبه من أمراض القلوب والضمائر؛ لكونها أشد ضررًا من الأمراض البدنية المستعصية، فأمراض الأبدان يقتصر ضررها على صاحبها، أما أمراض القلوب فتتجاوزه إلى من يحيط به، ولذ خص الدعاء

---

(١) علل النحو: لأبي الحسن، ابن الوراق (المتوفى: ٣٨١هـ)،٤٤٠، المحقق: محمود جاسم محمد الدرويش، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض / السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م٠

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب: لابن حجة الحموي (المتوفى: ٨٣٧هـ)، ٤٩٣/٢، المحقق: عصام شقيو ، الناشر: دار ومكتبة الهلال–بيروت، دار البحار–بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م٠

بتصفية القلوب؛ لأنها موطن الأمراض التي تؤذى النفس وتكدر العيش، والدعاء بصفائها، كناية عن خلوها مما ينغصها.

ثم يتم الجاحظ دعاءه بـ(تجنب دناءة الأخلاق[١])؛ لأنها سبب كل ضرر وبلاء، والدنيء "الْخَبيث.... وَيُقَال: للخسيس"[٢]، فبتصفية القلوب، وتجنب الدنيء من الخلق، تتحقق السعادة وينتشر السلام، وذكره لضمير المفعول (إيَّاك)، وتكراره للتأكيد.

ويقصد بـ "الأُلْفَةُ: الأُنْسُ"[٣] وهي كناية عن المحبة والود، وأثبتها بعطف الاتفاق عليها، حيث تزيد المودة بالاتفاق في الطبع والرأي.

وذكر المسند إليه (نحن) لتقرير الدعاء، وإثباته لكل من أراد النجاة من هذا البلاء، والتعبير بصيغة المضارع (يصفّي ، ويجنّبنا، ويرزقنا، ويحسن)؛ للحرص على تجدد تلك الأفعال واستمرارها، وصيغة المصدر في (توفيقك، وتسديدك) لبيان ثبوتها ودوامها، فلا تفارق المدعو له، ويقصد بالتوفيق "فعل ما تتفق معه الطاعة، وإذا لم تتفق معه الطاعة لم يسم توفيقا"[٤].

أما المراد بـ (التسديد) فهو "التوفيقُ للسداد، وهو الصوابُ والقصدُ من القول والعمل"[٥]، وكاف الخطاب هنا لا تخص مخاطبًا بعينه، وإنما تشمل كل

---

(١) و"الخُلُقُ- بِضَمِّ اللَّامِ وسُكونها-: الدِّين والطَّبْع والسَّجِيَّة، وحقيقتُه أَنَّهُ لِصُورة الإنسانِ الْبَاطِنَةِ وَهِيَ نفْسُه وأَوْصافُها ومَعانِيها المُخْتصَّة بِهَا بِمَنْزِلَةِ الخَلْق لِصُورته الظَّاهِرَةِ وأَوْصافِها ومَعانيها" ، (النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير ،٧٠/٢).

(٢) "وَيُقَال: لقد دَنَأْتَ تَدْنأُ، أَي سَفَلْت فِي فِعْلِك ومَجُنْتُ". (تهذيب اللغة مادة (دنا)).

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس: مادة (الف).

(٤) الفروق اللغوية: ٢١٨ .

(٥) الصحاح: مادة (سدد).

مخاطب، يريد تجنب الوقوع في تلك الصفة الذميمة التي تزج بصاحبها في بحر من الذنوب، والمعاصي، (أعاذنا الله منها جميعًا)٠

ومن خلال هذا المبحث يتضح:

استعانة الجاحظ بالعديد من الأساليب والصور التي توضح غرضه، وتحقق قصده، والتي كان من أبرزها الأسلوب الخبري، الذي قرر به الجاحظ صفة الجنة، وأهلها، معتمدًا في ذلك على ما اقتبسه من آيات القرآن الكريم، وألفاظ الحديث القدسي الذي أخبر به النبي ﷺ، مؤكدًا على خلو قلوب أهل الجنة من الغل والحسد، واستعان الجاحظ على إثبات ذلك المعنى بكل من الأفعال الماضية، والتفضيل، وأسلوب الالتفات، لبيان ما أفاض الله –سبحانه وتعالى– على أهل الجنة من نعيم وتكريم، مؤكدًا على أن سبب استحقاقهم له، وتمتعهم به، هو نزع الغل والحسد من قلوبهم، مثبتًا ذلك بكل من طريق القصر بالنفي والاستثناء، وتكرار الشرط بـ (لو)، والاستعارة التبعية في الفعل الماضي، والربط بين الجمل بكل من (واو العطف، ولمَّا الرابطة، وفاء التعقيب)، والكناية عن موصوف، وصفة٠

كما نجد حسن ختام الجاحظ للرسالة، بما عرض في نهايتها من رأي، وذكر من نصيحة، يتعين قبولها، والعمل بها، وأنه لا سبيل للسلامة من الحاسد إلا قطع صلته، وترك وده، مؤكدًا ذلك بكل من: تكرار أسلوب القصر أربع مرات متتابعة، بما يوحي بقوة المعنى في نفسه، وشدة حرصه على استجابة نصحه، وأتباعه أسلوب الشرط الذي يوضح نتيجة العمل به، عن طريق عطف عدد من الجمل الإنشائية بواسطة الواو العاطفة، إلى جانب تنويعه في الأسلوب بين السجع المطرف، والمتوازي، والجمل القصيرة ، والمتوسطة، بما أضفى على النص خفة، وقبولا٠

كما يتضح من ذلك الختام الرائع للرسالة مدى التناسب والتوافق بين مطلع الرسالة وختامها، حيث افتتح الجاحظ رسالته بالدعاء وختمها بالدعاء، هو أسلوب إنشائي رائع يخاطب العاطفة والوجدان، ويجعل المخاطب أكثر إقبالا على المتكلم، وقبولا لقوله، خاصة وأن الدعاء في تلك المواضع له أثره، ودلالته النفسية التي تجعل كلامه ادعى للإصغاء، وأقرب القبول، لما يظهر من حرص الكاتب على سلامة المخاطب، وتجنبه ما يؤذيه، حتى تستقيم حياته، وحياة من يَصِلُه، ويتبعه استقامة مجتمعه الذي يعيش فيه، وبذلك يكون الكاتب قد وفق كل التوفيق في حسن المطلع والختام معًا، بما يحقق فائدة الرسالة، والغرض منها.

* * * * * *

المبحث الخامس

سمات الرسالة وخصائصها البلاغية

اتسمت رسالة الجاحظ (في الحاسد والمحسود) بالعديد من السمات والخصائص أهمها:

١- ظهر في الرسالة بجلاء أسلوب الجاحظ وطريقته في الكتابة والتأليف، التي جعلته بحق في قمة البلاغة والبيان، فقد انتهج أسلوباً بحثيًا يوصف بأنَّه منهج بحث علمي دقيق، إذ أورد في الرسالة الكثير من الفوائد التربوية والأخلاقية، والمهارات العلمية والبحثية، التي تدل على كاتب محنك مصقل بالمعارف والخبرات، من مظاهر ذلك بدؤه الرسالة بعدد من الأسئلة التي توضح غرضها، وتكشف الهدف منها، ثم تفسيرها والإجابة عنها أثناء الرسالة، وهي فائدة تربوية يتبعها المعلم في درسه، ومهارة بحثية يتبعها الباحث في الكشف عن موضوع بحثه، والغرض من دراسته، قبل البدء في تناوله بالتوضيح والتفسير، كما أنها وسيلة فاعلة، ومهارة فائقة في إيصال الفكرة وترسيخها في الأذهان، مع الكشف عن أبعادها ووجوهها المتنوعة والمختلفة، وهو ما يوصف بمهارات التعلم النشط والفعال، التي تحقق الفائدة، وتُيسِّر الوصول إلى الغاية.

ويعد الجاحظ بهذا المنهج سابقا لكتاب عصره، حيث عرض موضوع الحسد كمشكلة اجتماعية، يبحث عن تفسير يوضحها، ويبرز غامضها، فكان له بذلك السبق المنهجي والفكري، الذي اعتمد في عرض مشكلته على جملة من الأسئلة المتعددة، التي تستقري جوانبها، وتشتمل على صورها وأبعادها، كاشفا من خلال جوابه عن تجاربه وخبراته، موضحا تفسيره لها، وتعليله لوجودها، بأسلوب يتسم بالواقعية والعقلانية، فهو يظهر في صورة العالم الذي يُعْمِلُ فكره، ويعتمد على تجاربه وعلمه، في البحث عن حقيقة موضوعه وتفسيره.

٢- بدا واضحا من خلال عرض الرسالة الثقافة الواسعة، والموهبة النادرة التي يتحلى بها الجاحظ، التي طبعت رسالته بطابع خاص ومميز، حيث اتصف حديثه فيها عن الحسد، بأنه حديث تعليمي نفعي، هدفه النصح، وتقويم السلوك الإنساني على النهج الصحيح، مع التنفير من تلك الصفة الذميمة التي تؤذي صاحبها قبل الآخرين، إلى جانب الحث على حسن الخلق، وتصفية النفوس، وطهارة القلوب٠

٣- تتصف الرسالة بالنضج الفكري والفني، لما اشتملت عليه من معان، وصور، وأخيلة، وما تضمنت من قصص واقعية، وتجارب مشاهدة، ومعارف، صورت أحوال الحاسد وأفعاله مع المحسود على أي حال وجد عليه، فقد كان تأليفها في مرحلة متأخرة من حياة الجاحظ التي قاربت المائة، حيث كثر حساده، لما رأوا من مكانته وعلمه، وكثرة مؤلفاته وجودتها التي لا تجارى، والذي يشير إلى وقت تأليفها أبيات ذكرها في رسالته (بين العداوة والحسد)، حيث تعد هذه الرسالة تابعة لها، أو جزءًا منها، أنها كانت "موجهة إلى أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وزير المتوكل، كما يتضح من استشهاد الجاحظ بالبيتين التاليين اللذين يمدح بهما الوزير، ويعتبره فيها حاميه من الحساد:

إنّ ابن يحيىَ عُبَيْد الله أمَّنَني
مِن الحوَادثِ بَعدَ الخَوْفِ مِنْ زَمَنِي
فَلَسْتُ أحْذر حُسَّادِي وإنْ كَثُرُوا
ما دُمتُ ممْسِك حَبْلَ مِنْ أَبِي الحَسَنِ[١]

(١) يقصد الوزير الفتح ابن خاقان وزير المتوكل، وهو أبو الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، الذي قتل مع خليفته سنة ٢٤٧هـ ، الرسائل الأدبية:٦٧، ٣٨٩، ورسائل الجاحظ : رسالة (ما بين العداوة والحسد):١/ ٣٧٠. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، عام النشر: ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م.

٤- ومن السمات الظاهرة التي تميزت بها الرسالة أيضًا الثقافة الدينية التي تحلى بها الجاحظ، وبدت واضحة في كثير من المواطن، سواء أكان الاستشهاد بالقرآن الكريم، أم بالحديث الشريف، أم بالرواية التي نقلها عن أهل العلم، واستدل بها على صحة رأيه في الحسد٠

ومن ذلك اعتماده في بعض فقرات الرسالة على ما قرأه من القرآن الكريم، وتأثَّر بأسلوبه ومعانيه، لإثبات فكرته، وتقوية حجته ورأيه، منه استشهاده أثناء حديثه عن أسباب الحسد بقول الحق سبحانه: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آَتَيْنَا آَلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا**﴾[سورة النساء آية (١٥٤)]، وقوله سبحانه : ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ** ﴾ [سورة البقرة آية (١٠٩)]٠

وكونه سببًا لعصيان إبليس، قوله: ﴿ **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾[الأعراف الآيات (١١، ١٢)] ، كما استشهد به في بيان صفة أهل الجنة الذين نزع من قلوبهم الغل والحسد بقوله:﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ** ﴾[الحجر (آية ٤٦)]٠

ومما اقتباسه في صفة الجنة الحديث القدسي: " فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" .

وإلى جانب استشهاده بقول المولى سبحانه، نجد تأثره بأحاديث[١] النبي ﷺ، وذلك من خلال إخباره -عليه الصلاة والسلام- عن وجود الحسد بين جميع الأمم، بقوله: «دبّ إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء»٠

ومما استشهد به من أقوال العارفين أثناء توضيحه لحقيقة الحسد، سؤال (بعض الناس لجلسائه: أيّ الناس أقلّ غفلة؟)، للحث على معرفة صفة الحاسد وطبعه، وقول بعض الأعراب في بيان أثره: (ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد)٠

٥- كما أورد الجاحظ في الرسالة العديد من الأمثال الشائعة التي توضيح فكره، وتكشف غرضه كقولهم: (تجوع الحرة) ، و(ألح من الذباب)، (أعيى من باقل ... إلخ٠

٦- وإلى جانب ذلك عرض بعض القصص الواقعية، وما أدركه من خبرات، وتجارب، جعلت موضوع الرسالة صورة حية وواقعية لحياة الحاسد وأحواله، حيث وصف شخصية الحاسد وصفا دقيقًا، استمدها من الحياة التي عاشها، والتجارب التي مر بها أو سمعها، وانعكست على فكره وأدبه، بأسلوب رائع وجذاب٠

٧- اتسم أسلوب الجاحظ في الرسالة بالدقة اللغوية، والمهارة البيانية، إذ عرض تفاصيل كل غرض من أغراضها، وكل فكرة من أفكارها، بقدرة بيانية رائعة، امتازت بالملاءمة بين الألفاظ والمعاني والأغراض، باستعماله كل لفظ في موضعه الذي لا يصلح فيه غيره، فهو يحسن اختيار اللفظ الدقيق للمعنى الملائم، الدال على غرضه بكل دقة

(١) سبق تخريج الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في موطن دراستها من البحث٠

ووضوح، وهي سمة عرفت عن الجاحظ في كتاباته، فهو القائل:" لكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكلّ نوع من المعاني نوع من الأسماء"(١).

٨- كما جاءت ألفاظ الرسالة واضحة، متلائمة مع جاراتها، لا تنافر بينها، ولا ثقل فيها، خالية من التكلف أو الاستكراه، تحقق مقصدها من غير خلل، ولا تطويل، تشير إلى ما يتحلى به الكاتب من ملكة لغوية فائقة، وحس بلاغي نادر، مع دقة في الأداء، ومراعاة الجرس والإيقاع الملائم، الخفيف على السمع والنفس، إلى جانب كون تلك الألفاظ وإيحاءاتها انعكاس بَيِّن لأفكار الجاحظ وتجاربه.

٩- اتسمت تراكيب الرسالة بدقة التعبير، والتلاؤم بين الألفاظ والعبارات والمقاصد، بما يشعر القارئ بالإمتاع والتشويق.

١٠- ومما اتسمت به الرسالة أيضًا المرونة، وكثرة الاستطراد، وتعدد الأفكار، وتنوعها، فهو يخرج من فكرة لأخرى، ومن قصة لغيرها، في سلاسة واتساق وترابط، أعانه على ذلك ثقافته الواسعة، وعلمه الغزير، وتجاربه الكثيرة، إلى جانب قدرته على التصرف بألفاظ اللغة وأساليبها، وما يملكه من رصيد لغوي، ومقدرة إبداعية نادرة.

١١- قام الجاحظ ببسط الحديث أثناء تناول عناصر موضوعه، لتوضيحها، وكشف أبعادها، وصورها المختلفة، لاستيفائها واستقصاء جوانبها، وكشف خوافيها، حتى تبرز واضحة جلية، فتستقر في القلب، وتتمكن من النفس كما رآها وأرادها.

---

(١) الحيوان: للجاحظ ، ١٧/٣ .

١٢- استعمل الجاحظ في رسالته أكثر الأساليب البلاغية من معان، وبيان، وبديع، فمما اعتمد عليه في معظم الرسالة الأسلوب الخبريّ الممتزج بالخطاب، وهو أسلوب يصلح للوعظ والتنبيه، ويلائم المقصد من الرسالة، والغرض من تأليفها، لاعتماده على إثبات الفكرة، وتقرير المعنى، وتأكيد حرصه على التنفير من الحسد، والتنبيه لخطره، والحث على تجنبه، والبعد عمن يتصف به، كما يُعد أنسب الطرق وأكثرها ملاءمة للحكاية، وسرد القصص التي أوردها الجاحظ في الرسالة واعتنى بذكرها، قاصدا من ورائها كشف حقيقة الحسد، وبيان صوره، وأحوال الحاسد وأفعاله٠

ومن الأساليب الخبرية غير المؤكدة التي استخدمها الجاحظ لتقرير صفة الحسد قوله: (الحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل...إلخ)، لم يؤكده لظهور أذاه وضرره، ومن الأخبار التي أكدها بأكثر من مؤكد قوله في صفة أخوة يوسف- عليه السلام-: (ولقد كان إخوة يوسف حلماء، وأجلّة علماء)، لقيامهم بفعل ما يخالف تلك الصفات، وغير هذا كثير في جل معاني الرسالة ومقاصدها التي يريد الجاحظ بيانها وتقرير معناها، كما استخدم لتأكيدها أكثر أدوات التوكيد مثل (إن، واللام، وقد، والجملة الاسمية)٠

١٣ - ظهر في مواضع كثيرة من الرسالة عناية الجاحظ بالتعبير بالأسلوب الحقيقي أكثر من التعبير المجازي، قد يرجع ذلك إلى حرصه على وضوح معانيه وجلائها، من غير كلفة والتأويل والتفسير٠

١٤- اعتمد الجاحظ في عرض أفكار الرسالة على صيغة الخطاب، التي لم يرد بها مخاطبا معينا، وإنما قصد كل مخاطب يُعْنى بهذا الموضوع الذي يتحدث عنه، ومنها قوله: (إنّه لا يأتيك، ولكن يناديك، ولا يحاكيك، ولكن يوازيك)٠

١٥- ومما شاع في أكثر مواضع الرسالة التعبير بالضمائر، سواء أكانت متصلة أم منفصلة، بغرض الاختصار، وربط أجزاء الكلام بعضه ببعض، كقوله في بيان عاقبة الحسد، وكشف رغبة الحاسد: (ولو لم يدخل على الحاسد بعد تراكم الغموم على قلبه، واستكمان الحزن في جوفه، وكثرة مضضه، ووسواس ضميره، وتنغّص عمره، وكدر نفسه، وكد عيشه، إلّا استصغاره نعمة الله عليه، وسخطه على سيّده بما أفاد غيره، وتمنّيه عليه أن يرجع في هبته إيّاه، وأن لا يرزق أحدا سواه...الخ)٠

١٦- ومما أتى به الجاحظ في الرسالة الأسماء المعرفة، سواء كان التعريف بالضمير كقوله: (وهو سبب لكلّ قطيعة)، أم بالإضافة مثل (ابنا آدم، وأخوة يوسف)، أم بـ (أل) الجنسية مثل (الجيران ، والحاسد،)، أم العلمية مثل (ابن الزّبير، وابن عباس ، وعبد الله بن أبيّ)٠

١٧- ومما ورد في الرسالة الإيجاز بالحذف، سواء كان حذف مفردات أم جمل، بغرض البعد عن التكرار وترهل العبارات٠

فمن حذف المفردات: حذف المسند إليه، بقوله: (فأخبرنا بأقلّ النّاس غفلة. فقال: الحاسد)، وقوله: (والحسد عقيد الكفر، وحليف الباطل، وضدّ الحقّ)، وقوله: (وإن كان الحسود ذا دين قال: متصنّع)،ومن حذف المشبه قوله: (فهو الكَلْب الكَلِب، والنِّمْر النَّمِر، والسُّمُّ القَشِب، والفحل القطم، والسّيل العرم)٠

ومن حذفه المسند قوله: (ولو كنت تعرف الجليل من الرأي، ...لاستغنيت بالرّمز عن الإشارة، وبالإشارة عن الكلام،...الخ)٠

ومن حذف المضاف في قوله: (وما أرى السّلامة إلّا في قطع الحاسد) والأصل (قطع صلته)، ومن حذفه الجمل قوله: (فهو أغلب على صاحبه من السيّد على عبده، ومن السّلطان على رعيّته، ومن الرّجل على زوجته ومن الآسر على أسيره)٠

١٨- ومما جاء به في الرسالة أيضًا تقديم بعض أجزاء الجملة بغرض العناية، أو القصر، منها تقديم الجار والمجرور للقصر الادعائي كقوله في الحسد: (منه تتولد العداوة)٠

١٩- عُنِي الجاحظ عناية كبيرة بالأسلوب الإنشائي، ومن أبرز الأساليب التي استخدمها أسلوب الاستفهام، الذي افتتح به رسالته مجملا به أفكارها وعناصرها، عن طريق تتابع أدواته وتنوعها، كما أتى به في بعض المواضع معرضا عن الأسلوب الخبري، لتضمنه معانيَ أخرى كالنفي في قوله: (ومتى رأيتَ حاسدا يُصوّبُ لك رأيا إن كنتَ مُصيبا)، وقوله :(وكيف يصبر من استكنّ الحسد في قلبه على أمانيه)، أو التعجب كقوله: (فما هذا العناء!) و(أتطلب -ويحك- أثرًا بعد عين، أو عطرًا بعد عروس)، وفي شأن إخوة يوسف-عليه السلام- (وكيف تقر أعين المحسودين بعد يوسف وقد ملكه الله خزائن الأرض؟) وغيرها كثير٠

٢٠- ومن الأساليب الإنشائية التي اعتمد عليها في نصحه في معاملة الحسود، أسلوب الأمر، كقوله: (فإذا أحسست- رحمك الله- من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته)، وقوله :(وحصّن سرّك منه تسلم من شرّه)٠

٢١- ومما استعمله أيضًا أسلوب النهي كقوله: (ولا يغرنّك خدع ملقه) وقول الأنصار في ابن أُبي: (يا رسول الله لا تلمه)، وفيه تآزر النهي مع النداء الحقيقي لالتماس العذر له٠

٢٢- كما حرص الجاحظ في رسالته على إثبات معانيه وتأكيدها عن طريق أسلوب القصر، سواء بطريق النفي والاستثناء الذي استعمله في أكثر مواضع الرسالة، على تنوع أفكارها، لكونه أكثر الطرق ملاءمة وأقواها، أم بطريق (إنما)، أم بطريق العطف٠

فمن النفي والاستثناء قوله: (وما أتي المحسود من حاسده إلّا من قبل فضل الله عنده ونعمه عليه)، وقوله: (وما أرى السّلامة إلّا في قطع الحاسد، ولا السّرور إلّا في افتقاد وجهه، ولا الرّاحة إلّا في صرم مداراته، ولا الرّبح إلّا في ترك مصافاته)، وقوله: (وما لقيت حاسدا قطّ إلّا تبيّن لك مكنونه)، ومنه و (ما خالط الحسد قلبا إلّا لم يمكنه ضبطه)، وفي بيان صفة عبد الله بن أبيّ، قبل نفاقه، قوله: (وما استوجب ذلك إلّا بعدما استجمع له لبّه، وتبيّن لهم عقله)، وقوله في وصف أهل الجنة، (فما أنزلهم دار كرامته إلّا بعد ما نزع الغلّ والحسد من قلوبهم)٠

٢٣- ومن القصر بطريق (إنما) قوله: (إنما همه أن يصبح)، و(إنّما همّه أن يقطع سفره)، و (إنّما همّه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها)٠

٢٤- ومن القصر بطريق العطف قوله: (إنّه لا يأتيك، ولكن يناديك، ولا يحاكيك، ولكن يوازيك)، مستخدما أداة العطف (لكن)٠

٢٥- وبتقديم الجار والمجرور في قوله: (خصّ به أفضل الملائكة)، وقوله (وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهدا، وأبعد ما تكون من الناس حمدا)٠

٢٦- ودمج بين أسلوبي الشرط والقصر بقوله: (ولو لم يدخل على الحاسد ....إلّا استصغاره نعمة الله عليه....لكان عند ذوي العقول مرحوما، وكان لديهم في القياس مظلوما)، وتآزر القصر مع المقابلة في قوله: (لا يحبّ من النّاس إلّا من يبغضك، ولا يبغض إلّا من يحبّك)٠

٢٧- من الظواهر الأسلوبية الشائعة في جميع أجزاء الرسالة وفقراتها ظاهرة الوصل سواء كان الوصل بين المفردات بغرض المشاركة في الحكم، أو بين الجمل، للتوسط بين الكمالين، حيث أكثر الجاحظ من استخدم

(واو) العطف، لأنها إلى جانب كونها لمطلق الجمع، هي وسيلة لإضافة معان، وأساليب، وصور، تظهر براعة الجاحظ وثراءه المعرفي واللغوي، كقوله في صفة الحاسد: (وإن حضر مدحه ذمّه، وإن سئل عنه همزه، وإن كانت عنده شهادة كتمها، وإن كانت منه إليه زلّة عظّمها، وقال: إنّه يحب أن يعاد ولا يعود، ويرى عليه العقود).

وقوله: (وحصّن سرّك منه تسلم من شرّه وعوائق ضرّه، وإيّاك والرغبة في مشاورته، ولا يغرنّك خدع ملقه، وبيان ذلقه)، وقوله في بيان صفة أهل الجنة: (ولولم ينزع ذلك من صدورهم ويخرجه من قلوبهم، لافتقدوا لذاذة الجنّة، وتدابروا وتقاطعوا وتحاسدوا، وواقعوا الخطيئة، ولمسّهم فيها النّصب، وأعقبوا منها الخروج)٠

كما ترك ذكرها في بعض المواطن للاستئناف البياني، كقول القائل: (ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحساد: نفس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم)، وقوله :(حاطب ليل ومبتغي نيل، لا يدرى ما حمل، قد ترك العمل)، وقوله:(وما لقيت حاسدا قطّ إلّا تبيّن لك مكنونه، بتغيّر لونه)٠

٢٨- كما أتي بـ (الفاء) العاطفة في مواضع كثيرة، وبدلالات مختلفة ما بين السببية، والتعقيب، ومصاحبتها أدوات الشرط٠

فمن (الفاء) الدالة على التعقيب قوله في بيان سرعة عصيان إبليس (فعصى ربّه)، وعن حسد الجيران: (فمتى كنت بينهم معدما فأيسرت، فبذلت وأعطيت، وكسوت وأطعمت، وكانوا في مثل حالك فاتّضعوا، وسلبوا النعمة وألبستها أنت، فعظمت عليهم بليّة الحسد، وصاروا منه في تنغيص آخر الأبد)، وعن أهل الجنة: (ونزع الغلّ من صدره، فقرّت عينه)٠

٢٩- اعتنى الجاحظ في الرسالة عناية كبيرة بأسلوب الشرط، حيث ورد في مواضع مختلفة بأدوات متعددة، عُني فيها بإثبات مقصده وتقرير معناه، ومن تلك الأدوات: (لو، وإن ،وإذا، ولما، ولولا)٠

فمن استخدامه (لو) قوله: (ولو سلم المخذول قلبه من الحسد، لكان من الإسلام بمكان)، وقوله: (ولو لم ينزع ذلك من صدورهم ويخرجه من قلوبهم، لافتقدوا لذاذة الجنّة)٠

ومن الشرط بـ(إن) قوله (فإن أردت أن تعرف آية مصداقه فأدنين إليه من يهينك عنده)، ومنه (إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك... الخ)٠

ومن الشرط بـ(إذا) قوله: (فإذا فعلت ذلك فكل هنيّا مريّا)٠

ومن الشرط بـ(لما) الرابطة: (فلمّا نزع الغلّ والحسد من قلوبهم ظنّ أدناهم منزلة فيها، وأقربهم بدخول الجنّة عهدا، أنّه أفضلهم منزلة)٠

٣٠- كما أورد الجاحظ بعض صور الإطناب في المواضع التي تستدعيه، ومنها:

١- الاحتراس بقوله: (وإن وجد له خصما أعانه عليه ظلما)٠

٢- وكذلك الاقتباس من قول المولى سبحانه: "﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾٠

٣-والاعتراض بالدعاء في مواضع متعددة، مع دقته في اختيار الدعاء الملائم للمعنى الذي يتحدث فيه، منه قوله: (أيّدك الله)، و(أبقاك الله)، و(رحمك الله)٠

٤-التتميم بقوله: (ما استطعت)٠

٥- والترادف في قوله: (لبه وعقله) ، و(كتمانه ، واكتتامه)، و(وأظهره، وأعلنه)٠

٦- كما استخدم الإطناب بالتكرار أحيانا لتقرير معانيه وتأكيدها في أذهان مخاطبيه، أو لتوفير الإيقاع والجرس الملائم لانسجام الألفاظ، وتوافق العبارات٠

٣١- استخدمه لام التعليل في كثير من المواضع التي تستدعي بيان السبب، كقوله: (نسيج وحده؛ لجودة رأيه وبعد همّته)، و(لظهوره عليه فهو أغلب على صاحبه)، و(لأني سمعت)، و(لسلامة صدورهم) وغيرها٠

٣٢- أتى الجاحظ بلفظ (كل) للدلالة على العموم، كما عمل على تكراره، لتأكيد مدلوله بقوله: (يصدق عليك كل شاهد زور، ويكذب فيك كل عدل مرضي)٠

٣٣- كما جاء في بعض المواضع بالإجمال ثم التفصيل، كقوله: وما لقيت حاسدا قطّ إلّا تبيّن لك مكنونه، بتغيّر لونه، وتخوّص عينه، وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك والإعراض عنك، والاستثقال لحديثك، والخلاف لرأيك)، وقوله: (وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر، وقال له: لقد كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمّك)٠

٣٤- عبر الجاحظ في مواضع كثيرة بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الفعل وثبوته، مثل: (أنزله ، رأيت، ذكر، فحلاها، وزينها، وجعلها، رأت، سمعت،....إلخ)٠

٣٥- كما أتى بالمفعول المطلق لتأكيد المعنى كقوله: (وشوّه خلقه تشويها، وموّه على نبيّه تمويها)٠

٣٦- وبصيغة المضارعة، لقصد استحضار الصورة، وتجدد فعلها، كقوله: (يغزو- يوصى- يحجّ- يثنى- يصوم- تقبل- يظهر- يودع- يقرأ يحضر- تعرف)، وغيرها٠

٣٧- إلى جانب ذلك نجد استخدمه للألفاظ الموحية، والتعبيرات المؤثرة، كتلك التي تصور ما يجيش في نفس الحاسد من (غم، وحزن، ومضض، ووسواس، وكدر، وتنغص، واستصغار، وسخط)، بما يدل على خبث نفسه، وما يجول فيها من شر، كما أتى بما يشير إلى المقدار

بـ (تراكم – واستمكان– وكثرة)، وغيرها من الألفاظ الموحية ،كلفظ (العناء)، و (تتولد)...وغيرها كثير ٠

٣٨- ومما جاء به أيضا الاستدراك، والتكرار بقوله: (ولكني أخاف عليك أنّ قلبك لصديقك غير مستقيم، وأن ضمير قلبك له غير سليم)٠

٣٩- كما أورد كثيرًا صيغة التفضيل–أفعل– مثل: (ألح، وأسرع، وأكفر، وأشد، وأهون، وأعون...الخ)، وتكرارها مع الطباق في قوله: (أحسن ما تكون عنده حالا، أقلّ ما تكون مالا، وأكثر ما تكون عيالا، وأعظم ما تكون ضلالا، وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهدا، وأبعد ما تكون من الناس حمدا)٠

٤٠ – من البين تنوع أسلوب الجاحظ بين الجمل القصيرة والطويلة أحيانا بما يتلاءم مع دقة التعبير عن الفكرة التي يعرضها، فغايته وضوح فكرته، واستيفاء معناها٠

٤١- كما يلاحظ إكثاره من التعبير بالجمل القصيرة ذات الجرس الموسيقي، الذي يجذب الأسماع، وهو من الأساليب المستحسنة التي لا يقدر عليها إلا أديب متقن للغة، عالم بأساليبها، يقول بن المراغي وهو شيخ من أجلّة العلماء: "ما أحسن معونة الكلمات القصار، المشتملة على الحكم الكبار، لمن كانت بلاغته في صناعته بالقلم واللّسان، فإنّها توافيه عند الحاجة، وتستصحب أخواتها على سهولة"(١)٠

٤٢- كما عُني الجاحظ بتصوير كل من الحاسد والمحسود اللذين هما محورا حديثه بالعديد من الصور البيانية، والتي كان أبرزها وأكثرها ورودًا في معظم الرسالة الكناية عن صفة، مبرزا بها صفات كل منهما،

(١) الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان التوحيدي ، ص٢٧٥.

وأحواله، إلى جانب ورود بعض صور التشبيه، والاستعارة المكنية، التي بينت مقصده، ووضحت غرضه٠

٤٣- فمن التشبيهات التي وردت في الرسالة قوله في بيان صفة ابن عباس: (فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنّهما عسيبا نخل)، وفي توضيح صفة الحسد: (وهو أغلب على صاحبه من السلطان.... ومن الرجل...إلخ تلك التشبيهات، كما يشبه حرص الحاسد على النيل من المحسود بإلحاح الذباب بقوله: (وهو ألحّ في حسده لك من الذّباب)، ويكشف ما في نفس الحاسد من دنيء الصفات، بقوله: (فهو الكَلْب الكَلِب، والنِّمْرُ النَّمِر، والسّمُّ القَشِب، والفحل القطم، والسّيل العَرِم)، وفي مداهنة الحاسد (كأنّك لم تقرأ المعوّذة)، كما يشبهه حال طلبه ما لا يُطْلَب، بقوله: (إنّك إذا أعيا من باقل، وأحمق من الضبع، وأغفل من هرم)، ومن تشبيه الجمع قوله: (والغلّ نتيج الحسد، وهو رضيعه، وغصن من أغصانه، وعون من أعوانه، وشعبة من شعبه)٠

٤٤ - وأتى بالمجاز المرسل في بعض المواطن، كقوله: (قد أقبل بوجوه النّاس إليه)٠

٤٥- كما جاء بعدد من الاستعارات التصريحية الأصلية كقوله: (وعروق دوحاتهم بين أطباقها راسية)، و(وأنجمها بالهدى زاهرة)، والتبعية كقوله: (ولا الرّاحة إلّا في صرم مداراته)٠

ومن الاستعارة في الحرف قوله: (وصاروا منه في تنغيص آخر الأبد)٠

ومن المكنية قوله في صفة الحسد (منه تتولد العداوة)، وقوله (ومنتج كلّ وحشة، ومفرّق كلّ جماعة، وقاطع كلّ رحم بين الأقرباء....الخ)، وفي الحاسد قوله: (ولا الرّبح إلّا في ترك مصافاته)٠

٤٦- كما أتى بجملة من الكنايات عن صفة كقوله: ((تراكم الغموم على قلبه)، و(نفس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم)، و (ألقى الحجر عليه شادخا، وأصبح عليه نادما صارخا)، و(كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمّك)، و(أو دعاه إلى نصرّ خذله)، و(انثالوا عليه)، و(استجمع له لبّه، وتبيّن لهم عقله، وافتقدوا منه جهله)، و(حاطب ليل ومبتغي نيل)، و (نسيج وحده)، و (كانوا في مثل حالك)، (ومجالسهم من أعاليها عامرة)، وفي عدم مخالطته بقوله (فمجاورة الموتى، ومخالطة الزّمنى، والاجتنان بالجدران، ومصر المصران، وأكل القردان، أهون من معاشرته، والاتّصال بحبله)، (فبطلت عنده المواعظ، وعمي عن المنافع، فختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة)،....وغيرها كثير ٠

ومن الكناية عن موصوف قوله: (خصّ به أفضل الملائكة فعصى ربّه)،)، وقوله: (فليس أمثالهم يوصلون)٠

٤٧-كما استخدم الجاحظ العديد من المحسنات البديعية كـ (الطباق، والمقابلة، والجناس، ومراعاة النظير، والازدواج والسجع) في كثير من المواطن؛ لتوضيح معانيه، وتأكيد مقصده، مع الحفاظ على جرس الجملة وتناسقها، وانسجام الألفاظ وتلاؤمها، بأسلوب أدبي مشوق ومثير ٠

٤٨- فمما ورد من الطباق قوله: (ما ظهر-وما بطن)؛ و(ليل-ويصبح)، و(السموات-والأرض) و(كفروا -وأظهروا)، و(مدحه- وذمه)، و(صار-وكان)، و(الحمق-والعقل)، و(النار-والجنة)، و(واستحسنت كلّ ما يقبح من جهته، وصدّقته على كذبه)، (أقلّ-وأكثر، أقرب-وأبعد)، وبين (الإشارة-والكلام، والسّر- والجهر، والخفض- والرفع، والاختصار- والتطويل، والجمل- والتفصيل)، وغيرها ٠

٤٩- ومن المقابلة قوله: (والحاسد مخذول وموزور، والمحسود محبوب ومنصور، والحاسد مغموم ومهجور، والمحسود مغشيّ ومزور)، كما قابل بين (أعانهم في الباطن، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر)، وبين ،(تسجينه وكتمانه- وظهوره وإعلانه)، وبين (يصدّق عليك كلّ شاهد زور، ويكذّب فيك كلّ عدل مرضيّ)، و(عدوّك بطانة، وصديقك علانية)٠

٥٠- ومن مراعاة النظير: كل من كلمات: (غامض، ومتعذر)، و (وموزور، ومغموم) ، و(القسوة، والعقوق)، و (حرام، وآثام)، و (حسودا، وحقودا) و(يستعبده، ويستمليه، ويستنطقه)، و (شره وضره)، و(قتل- سبى- عصى- بغى)، (أحسن- وأفرح) ٠

٥١- ومن المذهب الكلامي قوله: (وما صار منافقا حتّى كان حسودا، ولا صار حسودا حتّى صار حقودا)، و (ولو سلم المخذول قلبه من الحسد، لكان من الاسلام بمكان)٠

٥٢- وصيغة المبالغة لفظ (النِّقاب)٠

٥٣- كما جاء بالجناس بين بعض الألفاظ، منه الجناس المضارع كقوله: (العقوق والحقوق)، لقرب مخرج الحرفين، والمصحَّف كقوله: (عرضه، وغرضا)، والناقص مثل (قدمه -والقدم)، والمحرَّف كقوله: (مَلَكَ- ومُلِكَ)، وقوله: (الكَلْب الكَلِب، والنِّمْر النَّمِر)، لاختلافها في الهيئة، والاشتقاقي بين (يعاد- ويعود)، و(صفة وصفات)، و(نبت ونبات)٠

٥٤- ومن أبرز الظواهر الأسلوبية التي اعتنى بها الجاحظ في الرسالة السجع، حيث ختم به جُل فقراتها من غير تكلف أو استكراه، فكان سلسا مقبولا، كاشفا لمعناه من غير تصنع في معظمها، وبهذا يكون

" الجاحظ صادقًا فيما يقوله عن نفسه فهو لا يتصنع في كتابته، وإذا ورد فيها شيء من السجع أو الصنعة البيانية، فإنما يرد عفو الخاطر دون أن يقصد إليه قصدًا، وقد أعلن رأيه في هذه المسألة مرارًا ، وهو أن جمال الأدب يرتكز على الطبيعة، أي: عدم التكلف، وعلى البلاغة، أي: المساواة بين اللفظ والمعنى، واختيار اللفظ الذي يناسب المعنى ويوازيه، فلا يفضل عنه ولا ينقص، شرط أن تتوافر فيه الفصاحة، أي الوضوح ويتجنب الغرابة والوحشية " [(١)].

ويقول الجاحظ "أستحي من الكتابة، وأستنكف بأن أنسب إليها من البلاغة أن أعرف بها في غير موضعها، ومن السجع أن يظهر مني، ومن الصنعة أن تعرف في كتبي"[(٢)].

والبديع ما دام قريبًا من الطبع، بعيدًا عن الصنعة والتكلف، يتطلبه الغرض الذي سيق لأجله، والأسلوب الذي سيق فيه، فهو قمة البلاغة والإبداع، و"هذا هو نفس اتجاه الجاحظ، فحين ذكر السجع ذكر آراء رجال البيان فيه استساغة وذمًّا، ثم ذكر وجه من ذمه، ثم ذهب إلى إيثار المطبوع منه دون المتكلَّف"[(٣)].

ومن أمثلة ما أتى به في الرسالة من السجع المتوازي قوله: (السلامة- الكرامة- الاستقامة- الندامة)، (عسر- ضجر)، و(تشويها، تمويها)، و(سبى- عصى- بغى)، و(حالا- مالا- عيالا)، و(عهدا- حمدا).

---

(١) الرسائل الأدبية: ص ٣٩.

(٢) رسائل الجاحظ: ٢٥٣/٤ .

(٣) البديع في البديع: ٥٩. منقول عن البيان والتبيين ص١٩٤/١، ١٩٥.

ومن السجع المطرف: (الحسد- الود) ، و(أمره- وبره)، و(قطيعة، وحشة، جماعة)، وغيرها، ولم يأت بالمرصع منه لِئَلَّا يوصف بالصنعة، ويكون طبعيا مقبولا٠

٥٥ – وأخيرا فقد اتسمت الرسالة بوحدة الموضوع –الوحدة العضوية- والمتمثلة في الحديث عن الحسد وصوره وإن تعددت الأفكار، فجميعا تبرز حال كل من الحاسد والمحسود، إلى جانب مراعاة الكاتب ترتيب الأفكار داخل النص، وترابطها، واتصالها ببعضها، حيث لا يمكن وضع أجزائها في غير موضعها، مع الكثير من المعاني التي تكشف مدى الترابط بين أفكار النص، والتي يترتب بعضها على بعض، سواء أكان ذلك بتفصيل، أم نتيجة، أم تعليل٠

٥٦ – وأخيرا فمن البين من حديث الجاحظ عن الحسد وتصويره لأحوال الحاسد، أنه صاحب تجربة وفكر ورأي، صاغه بأسلوب أدبي بليغ ومشوق، وبذلك يكون الجاحظ قد جمع بين التجربة، والفكر، والأدب، والبلاغة، في رسالة واحدة ، هي من أروع وأبلغ ما كتب عن الحسد والحساد٠

* * * * * *

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ٠

وبعد

من خلال تلك الجولة في رسالة (الحاسد والمحسود) للجاحظ والتي غصنا فيها في بحر من الصور، والأخيلة، والأساليب البلاغية الرائعة، وعشنا فيها مع الكاتب رؤيته لكل من (الحاسد والمحسود)، وقد كشف لنا الستار عن الحسد والحساد، مستشهدا بما أحاط به عقله من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأقوال، وأمثال، غرضه من ذلك توضيح الصورة بكل عبارة ولفظ، استطاع الجاحظ برهافة حسِّه، وتمكن لغته، أن يضفي على رسالته صبغة أدبيَّةً بليغة ورائعة٠

كما عني الجاحظ في رسالته بعرض القصص الواقعية، التي صورت الحاسد بصور بلغت غاية الدقة والإتقان، وأظهرت منهج الجاحظ وسمات أسلوبه وشخصيته، فقد اتسمت الرسالة بفصاحة الألفاظ، ومتانة التراكيب، ووضوح الدلالة، واستخدام أنسب العبارات، والأساليب، وأحسن التراكيب، والصور، وأفضل التعبيرات، التي تحمل إلى جانب التلاؤم الخارجي إيحاءات داخلية خفية، تتمثل في جمال الألفاظ، ودقة التصوير، وبراعة التعبير، يمكننا من خلال توضيحها وصف أسلوبه بأنه حسي مادي، يحرص على استعمال الكلمات التي توضح الصورة وتقرّبها للأذهان، إلى جانب ما حققه أسلوبه من الإمتاع والإقناع في إثبات الفكرة، وتوضيح الغرض٠

كما يمكن القول أن ألفاظ الرسالة وعباراتها، كانت مرآة لأفكار الجاحظ، وتجاربه، وآرائه، وخبراته، وانعكاس صادق لعاطفته وشعوره، معبرة بكل بدقة عن مقصوده وغايته، فقد جاءت عناصرها مترابطة في وحدة نغمية مؤثرة في

النفس، جاذبة للسمع، ومعانيها ملائمة للسياق، موافقة لموقعها من العبارة، فكانت الرسالة بحق صورة فنية رائعة في غاية البلاغة والبيان.

كما نلمس تأثره بأسلوب القرآن الكريم والحديث الشريف، وحرصه على مراعاة وضوح الدلالة، مع الإيجاز، وعدم التكلف، أو المبالغة في الخيال في الصور والأساليب التي استخدمها، كما قاده إيمانه بفكرته إلى الحرص على تأكيدها بشتى طرق التأكيد والإثبات، ربما كان ذلك بسبب مذهبه العقدي، ومنهجه الفلسفي، القائم على العقل في إقامة الحجج والبراهين التي تثبت رأيه، وتوضح فكرته، حيث لا تدع للشك أو الإنكار مجال، يتضح لنا ذلك من خلال كثرة استخدامه لأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء، والتقديم، إلى جانب استخدامه لأدوات التوكيد المتعددة.

كما استخدم كثيرًا المحسنات البديعية المطبوعة، غير المتكلفة، من المحسنات اللفظية التي تعطي جرسا موسيقيا لطيفا جاذبا للسمع، والوجدان، والمحسنات المعنوية التي توضح المعنى، وتكشف الغرض، ولذلك تعد رسالة (الحاسد والمحسود) للجاحظ من الروائع العربية القيمة والهادفة.

توصية البحث:

من خلال البحث في التراث الأدبي النثري عامة، وأدب الجاحظ خاصة، أوصي نفسي والباحثين من دارسي اللغة وأساليبها، العناية بهذا التراث النثري الرائع، لما يزخر به من صور بيانية وأساليب بلاغية، تستحق الدراسة، وكشف ما تحمله من معان وأساليب تربي الذوق، وتنمي المعرفة؛ لذا ينبغي علينا العمل على شرح ذلك الأدب الرائع، وإيضاح غامضه، والكشف عن معانيه، وتقريبها للأفهام، والتعليق عليها، وتخريج ما فيها من آيات، وأحاديث، وأخبار، وأشعار، وأمثال، وأساليب ببيان بلاغتها وبراعة الاستشهاد بها.

وإذا كان موضوع حديثنا هو رسائل الجاحظ، وله من الرسائل الكثير التي تزخر بأروع الصور والأساليب، فينبغي العناية بتلك الرسائل الكثيرة والنافعة، ذات الأهمية والقيمة، وكشف ما تحمله من بلاغة وبراعة.

وقد تحدث الجاحظ عن الحسد في رسالتين منفصلتين من كتابه الرسائل الأدبية، أحدهما بعنوان (من كتابه في الحاسد والمحسود)[١]، والأخرى بعنوان (فصل ما بين العداوة والحسد)[٢]، وخصصت الحديث في هذا البحث على بيان بلاغته فيما ورد في رسالته التي عنوانها (من كتابه في الحاسد والمحسود)، والتي عنيت بوصف أحوال كل من الحاسد والمحسود معا، مستبقية الأخرى والتي يَفْصِل فيها الجاحظ بين العداوة والحسد، ويكشف عن حساده، وأعدائه الذين حسدوه على كتبه، وما تدر عليه من منزلة، لبحث آخر يكشف بلاغتها، ويبرز أسرار التعبير فيها؛ لما تتسم به وغيرها، من الرسائل بأسلوب أدبي بليغ، غني بالأساليب المؤثرة، والصور الموحية، التي تظهر مقدرة بيانية عالية، وبراعة نادرة، لا تأتي إلا من كاتب مصقل بالمعارف، والخبرات الغزيرة كالجاحظ.

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير

* * * * * *

(١) الرسائل الأدبية ، ص ١١٥.

(٢) السابق : ص٣٦٧.

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــــة	اسم السورة	ورقم الآية	الصفحة
قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾	البقرة	١٠٩	٦٣٤
قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾	النساء	٥٤	٦٣٠
قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾	المائدة	٣٠	٦٥٤
قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾	الأعراف	١١، ١٢	٦٤٧
قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾	الأعراف	١٦، ١٧	٨
قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾	الحجر	٤٦	٧٣٦
قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾	الأنبياء	٢٢	٧١٩
قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾	الشعراء	٨٨ ، ٨٩	٥٨٥
قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ﴾	الأحزاب	١٨	٧٠٥
قال تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا﴾	سبأ	١٦	٧١٤
قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾	فاطر	٢٢	٦٣٩
قال تعالى: ﴿رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾	ص	٣٦	٧١٣
قال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾	الزخرف	٣٢	٥٨٤
قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾	الجمعة	٥	٦٦٤
قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾	الإنسان	١٩	٥٩٢
قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾	الفلق	١–٥	٦٠٣، ٧٢٣

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
قال رسول الله ﷺ:" إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ"	٦٠٣
قال رسول الله ﷺ: " المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ"	٦٠٤
قال رسول الله ﷺ: " لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"	٦٠٤
قال رسول الله ﷺ: " لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا".	٦٠٤
قال رسول الله ﷺ : " دبّ إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء"	٦٢٤
قال رسول الله ﷺ: " ليس بمؤمن من بات شبعانا وجاره طاو"	٦٨٧
قال رسول الله ﷺ :" لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ"	٦٤٨
قال رسول الله ﷺ : في الحديث القدسي " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ أَعْدَدْت لِعِبَادِي"	٧٣٥

فهرس الأمثال

المثل	الصفحة
«إنّك إذا أعيا من باقل، وأحمق من الضبُع، وأغفل من هَرِم»	٧٢٤
«الحرّة تجوع ولا تأكل بثدييها»،	٧٠٩
«وهو ألحّ في حسده لك من الذّباب»	٧٠٧

فهرس الأشعار

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
كل العَدَاوةِ	حسدِ	ابن المبارك	٦٠٣
طالت على	أحزانه	----	٦٧٦
أيا حاسدًا لِي	الأدَبْ	منصور الفقيه	٦٤٠
كَمْ مِن عَقِيدٍ	قَدْ قَتَلُوا	أَبو خِرَاشٍ الْهُذْلِيُّ	٦٣٢
وشَرِيكَيْنِ	فِي إِقْلاَلِ	الأَعْشَى	٦٣٣
كَرِيمٌ جَوادٌ	بالغائبِ	أوس ابن حَجَر	٧١٩
انّ ابن يحيىَ	زَمَنِي	الجاحظ	٧٥٠

فهرس المصادر والمراجع

م	المصدر أو المرجع
١-	إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: لياقوت الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م٠
٢-	إرشاد العباد في كشف مثالب الحسد والحساد: لعلي محمد سلمان العبيدي ، دار النوارس للدعاية والنشر ٠
٣-	أساس البلاغة: للزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م٠
٤-	أسرار البلاغة : للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق شاكر، ط الأولى ١٤١٢هـ- ١٩٩١م٠
٥-	أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: للشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت – لبنان، عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م٠
٦-	إعراب القرآن وبيانه: المؤلف : محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ)، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت)، الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ٠
٧-	الأمالي لأبي علي القالي، (المتوفى: ٣٥٦هـ)، رتبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، الناشر: دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦م.

م	المصدر أو المرجع
٨-	الأمثال: للهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، المحقق: الدكتور عبد المجيد قطامش ، الناشر: دار المأمون للتراث، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م٠
٩-	الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين:، لأبي البركات كمال الدين الأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ)، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م٠
١٠-	أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ٠
١١-	الإيضاح في علوم البلاغة: للخطيب القذويني (المتوفى: ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة
١٢-	البحر المحيط في التفسير: لأبي حيان (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر–بيروت،الطبعة:١٤٢٠هـ٠
١٣-	البخلاء: للجاحظ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٩ هـ٠
١٤-	البديع في البديع :لابن المعتز (المتوفى: ٢٩٦هـ)،، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م٠
١٥-	البديع في نقد الشعر: لأسامة بن منقذ (المتوفى: ٥٨٤هـ)، بتحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد، مراجعة: الأستاذ إبراهيم مصطفى، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – وزارة الثقافة والإرشاد القومي – الإقليم الجنوبي – الإدارة العامة للثقافة٠

م	المصدر أو المرجع
١٦-	بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة)، المؤلف: عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ)، الناشر: مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١٧-	البلاغة العربية: للميداني (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ص١/٤٧٥.
١٨-	البيان والتبيين: للجاحظ ، طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
١٩-	تاج العروس من جواهر القاموس، للزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
٢٠-	تاج اللغة وصحاح العربية: للفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
٢١-	تاريخ أداب اللغة العربية: لجرجي زيدان ، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، مصر.
٢٢-	تاريخ بغداد: لأبي بكر البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م.
٢٣-	التحرير الأدبي: المؤلف: د. حسين علي محمد حسين (المتوفى: ١٤٣١هـ)، الناشر: مكتبة العبيكان الطبعة: الخامسة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
٢٤-	تحرير ألفاظ التنبيه: لأبي زكريا النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، المحقق: عبد الغني الدقر، الناشر: دار القلم - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨.

م	المصدر أو المرجع
٢٥-	التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) ، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر ١٩٨٤هـ.
٢٦-	تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: لأبي العلا المباركفورى (المتوفى: ١٣٥٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.
٢٧-	التذكرة الحمدونية: لأبي المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفى: ٥٦٢هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧.
٢٨-	تصحيح لسان العرب: لأحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور (المتوفى: ١٣٤٨هـ) ، الناشر: دار الآفاق العربية – مصر /القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.
٢٩-	التطبيق النحوي: للدكتور عبده الراجحي، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.
٣٠-	تفسير الراغب الأصفهاني، (المتوفى: ٥٠٢هـ): تحقيق ودراسة: د. عادل بن علي الشِّدِي الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م، دار النشر: دار الوطن – الرياض.
٣١-	تفسير القرآن الكريم :لابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٠هـ
٣٢-	تفسير القرطبي: تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة : الثانية: ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
٣٣-	تفسير مقاتل بن سليمان: لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: ١٥٠هـ)، المحقق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٣ هـ.

م	المصدر أو المرجع
٣٤-	تهذيب اللغة: للهروي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي ، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م٠
٣٥-	توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك: للمرادي المصري (المتوفى : ٧٤٩هـ) ، شرح وتحقيق : عبد الرحمن علي سليمان ، أستاذ اللغويات في جامعة الأزهر الناشر : دار الفكر العربي الطبعة : الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م٠
٣٦-	توفيق الرحمن في دروس القرآن: لفيصل النجدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، حققه: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل محمد الناشر: دار العاصمة، المملكة العربية السعودية - الرياض، دار العليان للنشر والتوزيع، القصيم – بريدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م٠
٣٧-	جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: للقاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (المتوفى: ق ١٢هـ)، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م٠
٣٨-	الجمل في النحو: للخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د. فخر الدين قباوة، الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م٠
٣٩-	جمهرة اللغة: لابن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، ط: الأولى، ١٩٨٧م،
٤٠-	الجنى الداني في حروف المعاني: للمرادي (المتوفى: ٧٤٩هـ)، المحقق: د فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م٠

م	المصدر أو المرجع
٤١-	جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهية: أحمد زكي صفوت: مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة ط١٩٧١م٠
٤٢-	جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب: لمصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين ، لناشر: مؤسسة المعارف، بيروت٠
٤٣-	جواهر البلاغة : للهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت٠
٤٤-	حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك: لأبي العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (المتوفى: ١٢٠٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت–لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ –١٩٩٧م٠
٤٥-	الحيوان: للجاحظ، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ دار الكتب العلمية – بيروت٠
٤٦-	خزانة الأدب وغاية الأرب: لابن حجة الحموي (المتوفى: ٨٣٧هـ)، المحقق: عصام شقيو ، الناشر: دار ومكتبة الهلال–بيروت، دار البحار–بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م٠
٤٧-	خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/محمد محمد أبو موسى، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: السابعة٠
٤٨-	دلائل الإعجاز: للإمام عبد القاهر، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م٠
٤٩-	الدلائل في غريب الحديث: لابن حزم العوفي السرقسطي (المتوفى: ٣٠٢هـ)، تحقيق: د. محمد بن عبد الله القناص، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م٠

م	المصدر أو المرجع
٥٠-	الراموز على الصحاح ، المؤلف: السيد محمد بن السيد حسن (المتوفى: ٨٦٦هـ) المحقق: د محمد علي عبد الكريم الرديني، الناشر: دار أسامة – دمشق، الطبعة: الثانية، ١٩٨٦)٠
٥١-	الرسائل الأدبية: للجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ.
٥٢-	رسائل الجاحظ : تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، عام النشر: ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م٠
٥٣-	الزاهر في معاني كلمات الناس: لأبي بكر الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ) ، المحقق: د. حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ -١٩٩٢م.
٥٤-	سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: ٤٦٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م٠
٥٥-	شرح الأربعين النووية لابن عثيمين ، المؤلف: م/حمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الثريا للنشر٠
٥٦-	شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك:لابن عقيل، (المتوفى : ٧٦٩هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر : دار التراث، القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة: العشرون ١٤٠٠ هـ.
٥٧-	الصاحبي لابن فارس ، تحقيق / السيد أحمد صقر، مطبعة يحي البابي الحلبي وشركاه القاهرة ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧م٠
٥٨-	صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: للقلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت٠
٥٩-	صحيح البخاري: المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ٠

م	المصدر أو المرجع
٦٠-	ضياء السالك إلى أوضح المسالك، لمحمد عبد العزيز النجار،، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م٠
٦١-	الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: للعلويّ (المتوفى: ٧٤٥هـ) ، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ
٦٢-	طرح التثريب في شرح التقريب : لأبي الفضل العراقي (المتوفى: ٨٠٦هـ) ، أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم العراقي (المتوفى: ٨٢٦هـ)، الناشر: الطبعة المصرية القديمة – وصورتها دور عدة منها (دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي٠
٦٣-	طلبة الطلبة، نجم الدين النسفي (المتوفى: ٥٣٧هـ) ، الناشر: المطبعة العامرة، مكتبة المثنى ببغداد، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٣١١هـ٠
٦٤-	علل النحو: لأبي الحسن، ابن الوراق (المتوفى: ٣٨١هـ)، المحقق: محمود جاسم محمد الدرويش، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض / السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م٠
٦٥-	العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني (المتوفى: ٤٦٣ هـ، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م٠
٦٦-	العين: للخليل بن أحمد (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال٠
٦٧-	غريب الحديث: للخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ) ، المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، وخرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، الناشر: دار الفكر، الطبعة: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
٦٨-	غريب الحديث: للقاسم بن سلاّم البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ) ، المحقق: د. محمد عبد المعيد خان، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، الطبعة: الأولى، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م٠

م	المصدر أو المرجع
٦٩-	الفائق في غريب الحديث والأثر: للزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة – لبنان، الطبعة: الثانية٠
٧٠-	الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر٠
٧١-	فن البلاغة : للدكتور عبد القادر حسين، دار غريب للطباعة والنشر٠
٧٢-	فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه: لمحمد صالح الشنطي، الناشر : دار الأندلس للنشر- السعودية / حائل، الطبعة : الخامسة ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م٠
٧٣-	الفن ومذاهبه في النثر العربي: لشوقي ضيف (المتوفى: ١٤٢٦هـ)، الناشر: دار المعارف، الطبعة: الثالثة عشرة٠
٧٤-	كتاب الصناعتين: لأبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩هـ٠
٧٥-	كشف الأستار عن زوائد البزار: لأبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م٠
٧٦-	كشف المشكل من حديث الصحيحين: جمال الدين ابن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ، المحقق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن – الرياض سنة النشر: بدون٠

م	المصدر أو المرجع
٧٧-	الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: لأبقي البقاء القريمي الكفوي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، المحقق: عدنان درويش – محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت،(بدون)٠
٧٨-	لباب التأويل في معاني التنزيل: لأبي الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ) ، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ٠
٧٩-	لسان العرب : لابن منظور(المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ٠
٨٠-	لسان الميزان: لابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: دائرة المعرف النظامية – الهند، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٣٩٠هـ /١٩٧١م٠
٨١-	اللمحة في شرح الملحة: لابن الصائغ (المتوفى: ٧٢٠هـ)، المحقق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م٠
٨٢-	اللمع في العربية: لابن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، المحقق: فائز فارس، الناشر: دار الكتب الثقافية – الكويت٠
٨٣-	نتائج الفكر في النَّحو للسُّهَيلي: (المتوفى: ٥٨١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢ – ١٩٩٢ م٠
٨٤-	المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لضياء الدين بن الأثير (المتوفى: ٦٣٧هـ) ،المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة٠
٨٥-	مجمع الأمثال: للميداني ، (المتوفى: ٥١٨هـ)، المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة– بيروت٠

م	المصدر أو المرجع
٨٦-	مجمل اللغة : لابن فارس (المتوفى: ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م ٠
٨٧-	محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ٠
٨٨-	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢هـ٠
٨٩-	المحكم والمحيط الأعظم، بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م.
٩٠-	مختار الصحاح: للرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م مادة (أنس)٠
٩١-	مختصر تفسير ابن كثير: (اختصار وتحقيق) محمد علي الصابوني، الناشر: دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨١م٠
٩٢-	المخصص: ابن سيده (المتوفى: ٤٥٨هـ) ، المحقق: خليل إبراهم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م٠

م	المصدر أو المرجع
٩٣-	المزهر في علوم اللغة وأنواعها: للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: فؤاد علي منصور، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م٠
٩٤-	المستطرف في كل فن مستطرف: لأبي الفتح الأبشيهي (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩م٠
٩٥-	مسند الإمام أحمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م٠
٩٦-	مشارق الأنوار على صحاح الآثار: لأبي الفضل البستي، (المتوفى: ٥٤٤هـ) نشر: المكتبة العتيقة ودار التراث٠
٩٧-	المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: لأبي العباس الحموي، (المتوفى:٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية٠
٩٨-	المطول للتفتازاني : المكتبة الازهرية للتراث٠
٩٩-	معالم التنزيل في تفسير القرآن : للبغوي (المتوفى : ٥١٠هـ)، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ٠
١٠٠-	معاني القرآن وإعرابه: للزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م٠
١٠١-	المعجم الوسيط: لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار) الناشر: دار الدعوة٠
١٠٢-	المسند الصحيح: للإمام مسلم (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت٠

م	المصدر أو المرجع
١٠٣-	المغرب: لبرهان الدين الخوارزمي المُطَرِّزِيّ (المتوفى: ٦١٠هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ٠
١٠٤-	مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ) ، المحقق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر – دمشق ، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م٠
١٠٥-	مفتاح العلوم: لأبي يعقوب لسكاكي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م٠
١٠٦-	المفصل في صنعة الإعراب: للزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: د. علي بو ملحم، الناشر: مكتبة الهلال – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣م٠
١٠٧-	المقال وتطوره في الأدب المعاصر: للسيد مرسي أبو ذكري، الناشر: دار المعارف، الطبعة: ١٩٨٢م٠
١٠٨-	مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م٠
١٠٩-	المنهاج الواضح للبلاغة: المؤلف: حامد عونى: الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث) بدون تاريخ٠
١١٠-	نتائج الفكر في النَّحو: للسُّهَيلي، (المتوفى: ٥٨١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢ – ١٩٩٢ م٠
١١١-	نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، لِلْيَازِجِيّ الْحِمْصِيّ (المتوفى: ١٣٢٤هـ)، الناشر: مطبعة المعارف، مصر، عام النشر: ١٩٠٥ م٠
١١٢-	النحو الوافي: المؤلف: عباس حسن (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، الناشر: دار المعارف الطبعة: الخامسة عشرة٠

م	المصدر أو المرجع
١١٣-	نهاية الأرب في فنون الأدب: لشهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ
١١٤-	النهاية في غريب الحديث والأثر: للجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي٠
١١٥-	الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية. (شرح حدود ابن عرفة) للرصاع التونسي المالكي (المتوفى: ٨٩٤هـ)، الناشر: المكتبة العلمية الطبعة: الأولى، ١٣٥٠هـ٠
١١٦-	همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية - مصر٠
١١٧-	الهوامل والشوامل: لأبي حيان التوحيدي، وابن مسكويه، مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٩م.

* * * * * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥٨٤
التمهيد:	٥٨٨
أولًا: التعريف بالكاتب	٥٨٨
نسب الجاحظ	٥٨٨
ميلاده ووفاته	٥٨٩
أساتذته	٥٨٩
منزلته وفضله	٥٨٩
مؤلفاته	٥٩١
ثانيًا: مفهوم النثر	٥٩٢
الفرق بين الشعر والنثر	٥٩٤
رأي الجاحظ في النثر	٥٩٤
أنواع النثر	٥٩٥
الفرق بين الرسائل والخطب	٥٩٦
تعريف الرسالة	٥٩٦
تاريخ الرسالة	٥٩٧
أسلوب الرسائل	٥٩٨
أشهر الكتاب	٥٩٩
مقومات الرسالة	٦٠٠
أنواع الرسائل	٦٠١
ثالثًا: المقصود بالحسد	٦٠٢

الموضوع	الصفحة
نص الرسالة	٦٠٦
المبحث الأول: حسن ابتداء الجاحظ للرسالة وبلاغته في بيان حقيقة الحسد وعواقبه	٦١٦
أولًا: بلاغة المطلع وبيان الجاحظ لحقيقة الحسد	٦١٦
ثانيًا: سبب الحسد	٦٢٩
ثالثًا: عواقب الحسد وآثاره	٦٣٥
المبحث الثاني: من بلاغة تراكيب السرد القصصي في الرسالة وحسن تقسيم الجاحظ للحساد	٦٤٥
أولًا: حسد إبليس	٦٤٧
ثانيا: حسد ابن آدم	٦٥٢
ثالثا: حسن تقسيم الجاحظ للحاسد والمحسود	٦٥٦
(أ) قول الحاسد في المحسود ان كان غنيًا	٦٥٧
(ب) حال الحاسد مع المحسود إن كان ممن يعاشره	٦٦١
(ج) قول الحاسد في المحسود إن كان عالما	٦٦٣
(د) أحكام الحاسد على المحسود صاحب دين	٦٦٦
(هـ) علامات الحاسد عند الجاحظ	٦٦٧
رابعًا: قصة حسد عبد الله ابن أبيّ	٦٦٩
خامسًا: وصف الجاحظ لحسد الجيران	٦٧٨
سادسًا: تصوير الجاحظ لتملك الحسد للحاسد	٦٨٢
سابعًا: حسد ابن الزبير لبني هاشم	٦٨٤
ثامنًا: حسد إخوة يوسف	٦٩٤

الـمـوضـوع	الصفحة
المبحث الثالث: بلاغة الجاحظ ونصائحه في معاملة الحسود	٧٠٣
أولا : نصائح الجاحظ في معاملة الحسود	٧٠٣
ثانيا: ضرورة البعد عن الحاسد	٧٠٨
ثالثًا: لا خير يرتجى من حسود	٧١١
المبحث الرابع: من بلاغة الجاحظ في وصف الجنة ونعيمها جزاء ترك الحسد، وحسن ختام الجاحظ للرسالة	٧٣٣
أولًا: من بلاغة الجاحظ في وصف الجنة ونعيمها	٧٣٣
ثانيًا: حسن ختام الجاحظ للرسالة	٧٤٢
المبحث الخامس : سمات رسالة الحاسد والمحسود للجاحظ وخصائصها البلاغية	٧٤٩
الخاتمة	٧٦٧
فهرس الآيات القرآنية	٧٧٠
فهرس الأحاديث	٧٧١
فهرس الأمثال	٧٧٢
فهرس الأشعار	٧٧٣
فهرس المراجع	٧٧٤
فهرس الموضوعات	٧٨٨